رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأمثال

في النثر العربي القديم

مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى

تأليف
الدكتور عبد المجيد عابدين
أستاذ الأدب العربي
بجامعة الخرطوم

بحث تقدم به المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة باشراف الأستاذ الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية بالكلية .

الطبعة الأولى

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي "الفجالة"

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأمثال

في النثر العربي القديم

مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى

تأليف
الدكتور عبد المجيد عابدين
أستاذ الأدب العربي
بجامعة الخرطوم

بحث تقدم به المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة باشراف الأستاذ الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية بالكلية .

الطبعة الأولى

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (ز) شارع كامل صدقي "الفجالة"

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

ليس أجدى على اللغة العربية وآدابها من أن تحتل مكانها المقرر بين شقائقها الساميّات فى دراسة الدارسين ، فتُبحثَ قضاياها فى محيط اللغات السامية ، وتناقَش مسائلها مقترنة بمسائل أخواتها . فاذا استطعنا أن نلم شتات هذه اللغات وآدابها ، فنجمع الشبيه إلى الشبيه ، وننبه على مواطن الاختلاف بينهما ، فقد أقمنا دراسة أصيلة ذات فائدة محققة لتلك الآداب عامة وللأدب العربى بنوع خاص .

ومنهجنا فى هذا البحث يتجه وجهتين وجهة تقارنية ، ووجهة تطورية .

أما الأولى فهى تتضح فى معالجة المثل العربى فى ضوء الأداب السامية الأخرى ، واستفتاء تلك الآداب ، فى نطاق ما قدرنا عليه ، فى كل مرحلة مرَّ بها المثل العربى فى تاريخه الطويل .

أما الوجهة التطورية ، فهى تتجلى فى ذلك التقسيم الذى جعلتهُ أساس البحث . فقد قسمتُ أبواب البحث وفصوله بحيث تساير المثل فى النثر العربى ، فى مراحل تطوره ، ممهدا للبحث بتعريف لاغنى عنه للمثل فى اللغة والاصطلاح . فاستعرضت فى ذلك التمهيد المادة فى اللغات السامية وفى آدابها ، وناقشت آراء الباحثين فى أصل الاصطلاح ، ووصلت إلى أن لفظ (مثل) هو بمثابة لقب خاص يميز أقوالا معينة ، عَمَادها أصحاب السلطة الدينية والزمنية .

وفى الباب الثانى تحدثت عن المثل العربى القديم ، أو المثل الشعبى الذى صاغه العرب فى اللغة (الكلاسيكية) ، وتصفحت آثاره فى الجاهلية . وماشَيْتهُ إلى زمن بنى أمية وهو العصر الذى ضعُف فيه نفوذ المثل الشعبى فى الاستعمال الحى ، ولم يعد متداولا على ألسنة الناس كما كان من قبل .

ولما كان المثل الشعبى قطعة من نتاج المحيط الذى نشأ فيه ، ومرآة للبيئة التى نبع منها ، رأينا الوقوف عند مواطن هذا المثل و بيئاته . وهدانا البحث إلى أن المثل فى العراق والبحرين وعمان وحضرموت ونجد — وهذا ما اصطلحتُ على تسميته بالمَثَل الشرقى — يختلف فى طابعه (المحلى) عن المثل فى الحجاز واليمن ، وهو ما أطلقتُ عليه اسم المثل الغربى . وهذا تقسيم لا يقوم على أساس جغرافى ، ولا سُلالىّ ، ولا إقليمى ، ولكن نتائج البحث هى التى هدتنى إليه . فهو تقسيم أدبى لُغوى إن صح التعبير . وقد قدّمتُ مع هذا البحث خريطة لبلاد العرب ، رسمت فيها حدودا تقريبية لهذا الشرق وذلك الغرب ، وكان رائدى فى تحديدها ما أورده الباحث «ك. رابين» فى كتابه الذى ألفه بالإنجليزية : (العربية الغربية القديمة) . فقد رسم حدودا لغوية بين مجموعتين من اللهجات التى تكلمها سكان شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى . ومهما تكن قيمة الآراء التى أدلى بها «رابين» فى ذلك الشأن ، فقد رأيت فى تقسيمه اللغوى ما يتفق إلى حد كبير مع نتائج بحثى فى المثل الشعبى . وقد نبهنى هذا التوافق إلى الصلة الوثيقة التى ربطت بين اللغة والمثل فى النشأة والتطور .

ولمحت فى أثناء تتبع المثل الشعبى فى هذا الباب ، بعض مؤثرات أجنبية طرأت عليه . ورأيت الآرامية تحمل من تلك المؤثرات حظا غير قليل . فكان لها أثر فى جمع الأمثال العربية القديمة وتدوينها ، ومن الآرامية — أيضا — تسرّبتْ معانٍ وأفكار إلى المثل الشعبى .

وفى هذا الباب — أيضا — أفردت ثلاثة فصول للخصائص الفنية التى تميّزَ بها المثل الشعبى فى لغته ، وتصويره الفنى ، وفكاهته .

وفى الباب الثالث عَرَضتُ للمثل الكتابى — وهو يمثل خطا واضحا آخر ، يبدأ فى الجاهلية ، ثم يزدهر بظهور الإسلام ، ونزول القرآن الكريم ، وعناية المسلمين بالحكمة الكتابية والتعليم الدينى والدنيوى . ويشق هذا المثل طريقه إلى نهاية عصر بنى أمية ، متداولا على الألسنة ، حيًّا بالاستعمال . ثم يبدأ منذ ذلك الوقت

سيرا بطيئا متعثرا . فقد جد من الظروف والعوامل ما غير كثيرا من أساليب التفكير والتعبير . وانصرف الناس عن الأمثال العربية — الشعبية والكتابية — إلى أمثال أخرى ، بعضها خلقته المناسبات الطارئة ، و بعضها نقلته الشعوب المستعربة إلى العربية فى جملة ما نقلته من تراثها القديم .

وتحدثت فى هذا الباب نفسه عن فنون المثل الكتابى ، أعنى المثل الكتابى الموجز ، والمثل القياسى ، والمثل الخرافى ، ووقفت عند كل منها شارحا أهم خصائصه وملامحه . ورأيت الآرامية فى هذا الدور أيضا تقتحم ميدان المثل وتتجلى بنصيب أكبر مما أسهمَتْ به فى المثل الشعبى .

و يبلغ التأثير الآرامى مدى سلطانه فى دور المثل المولد ، وهو موضوع الباب الرابع من هـذا البحث . فى هذا الدور يضعف النفوذ العربى ، وتفتح الشعوب الإسلامية ، ولاسيما شعوب الهلال الخصيب — مهد الآرامية — أبوابها على مصاريعها لهذا التأثير . وكان ذلك منذ نهاية العصر الأموى . وقد قصدت أن يكون هذا الباب أوجز من سابقَيْه ، ذلك أن المثل المولد — فى صفاته اللغوية والأدبية ، ليس من المثل القديم الذى هو موضوع هذا البحث ، و إن كان مرتبطا من جهتين : من حيث أنه امتداد لمؤثرات أجنبية ، وآرامية بنوع خاص ، بدأَتْ من قبل فى المثلين الشعبى والكتابى ، ومن حيث أنه وارث هذين المثلين وخليفتهما على العالم الإسلامى . فكان على الباحث أن يتبين الأسباب التى دعت إلى ظهوره فى هذا الدور ، وحلوله محل المثل القديم فى الاستعمال الحى .

وختمت البحث بثلاثة ملاحق : أولها فى تحقيق مخطوطة فى الأمثال منسوبة إلى أبى علىّ القالى ، والثانى فى تحقيق رسالة فى الأمثال منسوبة إلى أبى عبيد القاسم ابن سلام . والثالث فى بعض أمثال عربية قابلتها بنظائرها فى الآرامية .

وسيرى القارئ فى هوامش صفحات البحث رموزا للمصادر التى رجعت إليها ، وقد آثرت هذه الطريقة طلبا للاختصار ، ثم عدت فى آخر البحث فشرحت هذه الرموز

و بينت عناوين الكتب والمصادر . على أننى لم أستخدم هذه الرموز إلا فى حالة رجوعى إلى المصدر أكثر من مرة . أما المصادر التى رجعت إليها مرة واحدة فقد أوردتها مفصلة فى مواضعها من الهوامش .

وقبل أن أترك هذا التقديم أحب أن أعبر عن شكرى للأستاذ المشرف الدكتور مراد كامل ، على حسن توجيهه و إرشاده ، وأن أعبر — أيضا — عن تقديرى للتوجيهات القيمة التى أبداها أساتذتنا الفضلاء فى أثناء مناقشة البحث ، وقد أفدت منها كثيرا حين أعدت النظر فيه . هؤلاء الأساتذة هم : الدكتور إبراهيم سلامه ، والأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور خليل يحيى نامى ، والدكتور عبد العزيز برهان .

ولا يفوتنى أن أذكر أستاذنا « مصطفى السقا » بشكر خاص ، لعنايته بنشر هذا البحث ، ومراجعته فصول الكتاب فى أثناء الطبع .

القاهرة فى مايو ١٩٥٦ عبد المجيد عابدين

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محتويات الكتاب

مقدمة	ا — د
محتويات الكتاب	هـ — ط
الباب الأول : تمهيد : المثل لغة واصطلاحا	١ — ٢٤
١ — المثل لغة	٢ — ٧
٢ — المثل القولى وأشكاله القديمة : —	
الاصطلاح القديم والاصطلاح المتأخر	٨ — ١٠
إطلاق المثل على الرؤيا والنبوءة وكلمة الكاهن	١٠ — ١١
المثل القياسى	١١ — ١٢
الخرافة	١٢ — ١٣
الأنشودة	١٣
المثل الشعبى	١٣ — ١٤
المثل الكتابى الموجز	١٤
٣ — أصل الاصطلاح : —	
رأى (هاوبت)	١٥ — ١٦
الرأى الشائع بين كتاب العرب	١٦ — ١٩
رأى بوشتروم	١٩ — ٢٢
٤ — المثل العربى وخطوطه العامة	٢٣ — ٢٤
الباب الثانى : المثل العربى القديم	٢٥ — ١٢٤
١ — المراكز الثقافية فى شرق شبه الجزيرة : —	
أسواق العرب	٢٦ — ٢٨
مراكز ملوك العرب	٢٨ — ٣٠
الأدب العربى يبدأ فى الشرق	٣٠ — ٣١
جمع الأمثال وتدوينها	٣١ — ٣٢
مدارس الرواية والتدوين	٣٢ — ٣٥

٢ — المثل الشرقى (١) : —
الأمثال فى الجاهلية البعيدة وقصصها ٣٦ — ٣٨
قصة ابنة الزباء ٣٨ — ٤١
خرافة الحية والفأس ٤٢ — ٤٣
لقمان الجاهلى وقصصه ٤٣ — ٥١
٣ — المثل الشرقى (٢) : —
الأمثال فى الجاهلية القريبة وقصصها ٥٢ — ٥٣
موضوعها ٥٣ — ٥٤
نوعها ٥٤ — ٥٨
الألغاز فى المثل ٥٨ — ٦٢
٤ — المثل الغربى (١) : —
المثل الحجازى — اليمنى وموارده ٦٣ — ٦٥
بعض فوارق بين المثلين الحجازى واليمنى ٦٥ — ٦٦
المورد الأول للمثل الغربى (المورد المحلى) ٦٦ — ٧٣
٥ — المثل الغربى (٢) : —
المواردان الشرقى والكتابى فى المثل الحجازى — اليمنى ٧٤ — ٨٤
٦ — المثل الأصيل : —
الألفة الشعبية ٨٥ — ٨٦
أهمية الصيغة فى المثل الشعبى ٨٦
بعض مظاهر تطوره ٨٦ — ٨٨
٧ — المثل الذى جاء على وزن « أفعل » : —
تعريفه ٨٩
انفراد العربية بصيغته ٨٩ — ٩٠
قلة وروده فى مدونات الاتجاه العربى الخالص ٩٠ — ٩٣
حدوث معظمه فى الإسلام ٩٣ — ٩٧
قلة توفر الألفة الشعبية القديمة فيه ٩٧
٨ — فن المثل القديم : اللغة والأسلوب : —
تلاصق العبارات ٩٨

تسويتها ٩٨ — ٩٩
التلاصق والتسوية فى المثل ٩٩ — ١٠٤
الإشارة المثلية وأنواعها ١٠٥ — ١٠٧
٩ — فن المثل القديم : التصوير الفنى : —
التشخيص ١٠٨
تصوير المواقف والهيئات ١٠٩ — ١١٢
مادة الخيال ١١٢ — ١١٣
التصوير فى العبارات الإنشائية ١١٣ — ١١٥
١٠ — فن المثل القديم : الفكاهة : —
السمر عند العرب ١١٦
فن التمثيل المسرحى لم يعرفه العرب قديما ١١٧ — ١١٨
النكتة والدعابة المرحة ١١٨
ألوان النكتة فى المثل ١١٩ — ١٢٣
قلة الدعابة المرحة فى المثل القديم ١٢٣
تطور النكتة فى عصر الرسول ١٢٤

الباب الثالث : المثل الكتابى ١٢٦ — ١٧٢

١ — المثل الكتابى تراث مشترك : —
الفرق بين المثل الكتابى والمثل الشعبى ١٢٦ — ١٢٧
الحكمة القديمة فى مصر وبابل وفلسطين ١٢٧ — ١٢٩
بين العرب وشعوب الشرق الأدنى ١٢٩ — ١٣٠
تشابه أقوال الحكماء واتجاهاتهم فى الشرق الأدنى ١٣٠ — ١٣٤
٢ — المثل القرآنى : نظرة عامة : —
أمثال القرآن وأنواعها ١٣٥ — ١٣٧
لقمان فى القرآن الكريم ومناقشة آراء الباحثين فى الصلة بينه
وبين أحيقار وبلعام ١٣٧ — ١٤٣
٣ — المثل الكتابى الموجز : النغمة التأديبية : —
الحكمة والتربية ١٤٤ — ١٤٥
الحكمة والحكام ١٤٥ — ١٤٦

أهداف المثل الكتابى الموجز ١٤٦ — ١٤٧
لغته ١٤٧ — ١٤٩
٤ — المثل الكتابى الموجز : الصيغة الأدبية : —
توازن الأشطار العددى ١٥٠ — ١٥٣
السجع ١٥٣ — ١٥٥
الأسلوب العددى ١٥٥ — ١٥٦
التنظيم الأبجدى ١٥٦ — ١٥٧
٥ — المثل القياسى فى القرآن : —
وروده فى الكتب السماوية ١٥٨ — ١٥٩
وفى القرآن الكريم بنوع خاص ١٥٩ — ١٦١
مادته فى القرآن ١٦١ — ١٦٣
مادته فى التوراة والإنجيل ١٦٣
المثل القياسى وعلماء المسلمين ١٦٣ — ١٦٥
خلو القرآن من المثل القياسى الخرافى ١٦٥
٦ — أمثال كليلة ودمنة : —
الرأى السائد فى الأصل الذى نقل عنه ابن المقفع ١٦٦
مناقشته ١٦٦ — ١٦٩
أشكال المثل فى كليلة ودمنة ١٦٩ — ١٧٠
أسلوبها القصصى ١٧٠
فكاهتها ١٧٠ — ١٧٢

الباب الرابع : المثل المولد ١٧٣ — ١٩٠

١ — المثل المولد : خصائصه : —
بداية ظهوره ١٧٧
المثل المولد قسمان ١٧٧ — ١٧٨
اختفاء المثل القديم وأسبابه ١٧٨ — ١٨٣
٢ — المثل المولد : منابعه : —
المنابع الآرامية تحمل أكبر نصيب ١٨٤ — ١٨٦

لقمان المولد وإيسوب ١٨٦ — ١٩٠
خاتمة ١٩٠
الملحق الأول : تحقيق مخطوطة فى الأمثال منسوبة إلى أبى على القالى ١٩١ — ١٩٢
الملحق الثانى : تحقيق رسالة منسوبة إلى أبى عبيد القاسم بن سلام ١٩٣ — ١٩٤
الملحق الثالث : طائفة من الأمثال العربية ونظائرها فى الآرامية ١٩٥ — ١٩٦
كشاف الموضوعات والأعلام : ١٩٧ — ٢٠٥
رموز المصادر وعناوينها : ٢٠٦ — ٢١٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خريطة بلاد العرب

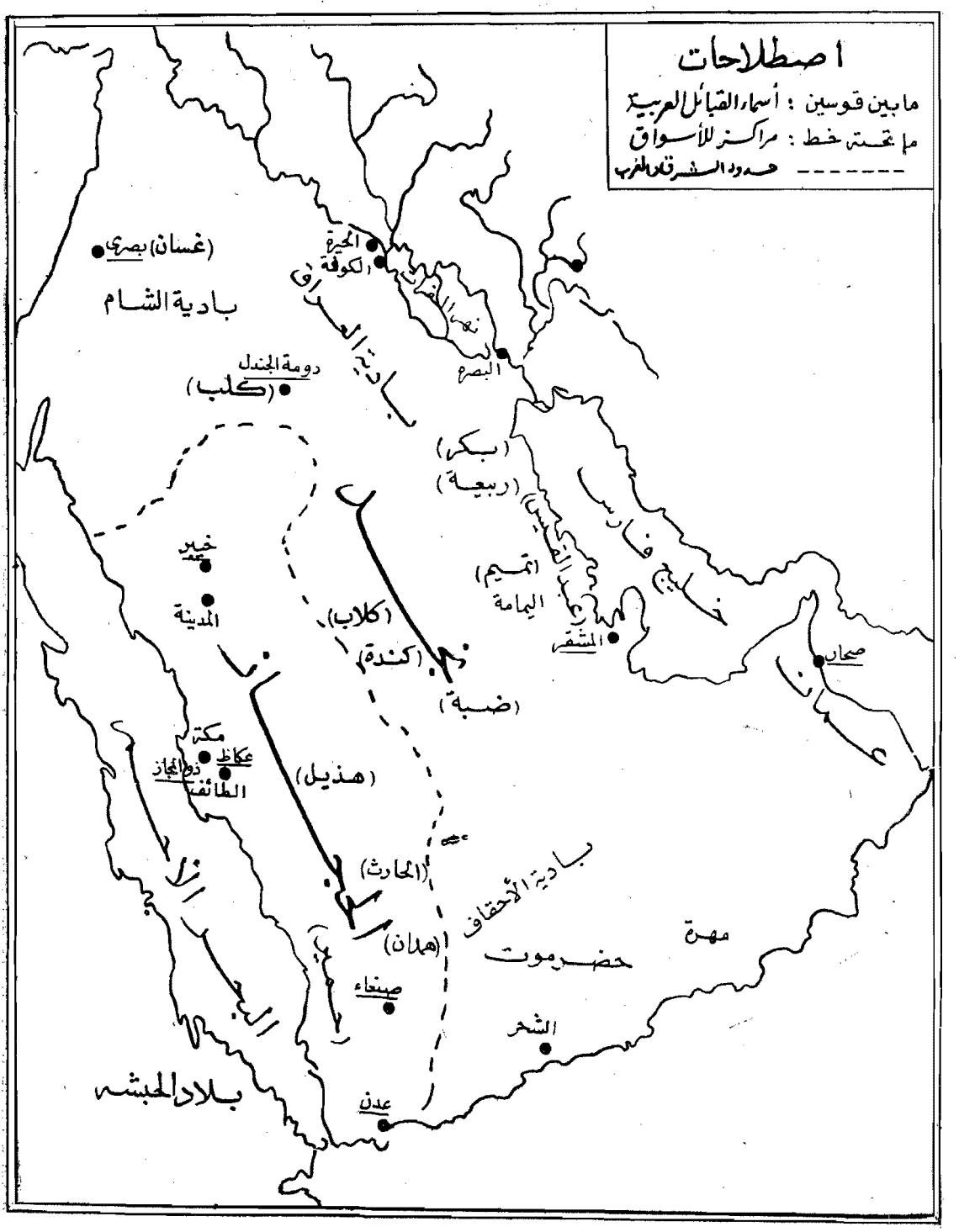

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

تمهيد

المثل لغة واصطلاحا

١ — المثل لغـــة

فى الأسفار العبرية للعهد القديم ورد اللفظ mâšâl[١] للدلالة على الحكم والسيادة . وردت صفة الحكم منسوبة إلى الله و إلى الناس و إلى الأجرام السماوية . وفى نسبة الحكم إلى الأجرام السماوية وردت آيتان فى سفر التكوين (١ : ١٦ — ١٨) هذا نصهما : « فعل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار (לממשלת היום) والنور الأصغر لحكم الليل والنجومَ . وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ، ولتحكم (ולמשל) على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة.

والقصة الواردة فى سفر التكوين (من ١ : ١ إلى ٢ : ٤ م) لها نظائر فى نصوص بابلية قديمة[٢] . ومن المسلم به أن « نجم النهار » كان من أعظم معبودات البابليين ، وكانت له هياكل فى كل مكان ، حتى انهم كرسوا له مدينة بأسرها هى سبارا Sippâra حيث كانوا يشعلون فى معابدها نارا لا تنطفئ تكريما للشمس[٣] . وفى بعض الآثار البابلية ترنيمة يخاطب البابليون فيها الشمس بقولهم : « أيها اللهب ! السيد السامى ، المرتفع فى سماء البلدان »[٤] . وكان للأجرام السماوية بوجه عام شأن عظيم فى المعتقدات الكلدانية[٥] . وكان نور الأجرام عندهم مصدر الحياة والقوة ، وهو المهيمن على الكائنات ، وهو الغالب المسيطر على الظلمة كما تنطق بذلك أساطيرهم[٦] .

و إذا رجعنا إلى اللغة الآشورية — البابلية ، وجدنا لفظ Mašâlu ومعناه لمع أو سطع[٧] . وفى العربية مَثَلَ القمر مُثولا إذا ظهر . والماثلة منارة المسرجة . وربما

---

(١) من القواعد الصوتية فى علم مقارنة اللغات السامية أن التاء فى اللفظ العربى تقابل شينا فى الآشورية والعبرية وسينا فى الحبشية وتاء فى السريانية . فمادة (م ث ل) العربية تقابل Msl فى الآشورية والعبرية ، Msl فى الحبشية ، Mtl فى السريانية .

(٢) EBr ص ٩٣٩ — ٩٤٠ (٣) جوستاف ٩٥

(٤) نفسه ١٠١ (٥) نفسه ٩١

(٦) EBr ص ١٤٠ ، بفايفر ٣٦ (٧) EBi ص ٣٩٠٥ هامش

استطاع الباحث فى الأمثلة المتقدمة أن يفترض — على الأقل — وجود علاقة أسطورية قديمة بين نور الأجرام السماوية الذى اقترن بالقوة والسلطان و بين معانى اللمعان والظهور .

أطلق اللفظ فى العبرية على الحكم والسيادة مطلقا . فقالوا Mòšèl (الحاكم) ، himšil (ولىّ الحاكم وعينه) ، واشتقوا الاسم على وزن فُعْل فقالوا Mòšèl [Mušl] (الحكم والسلطة والسيادة) . وفى العبرية المتأخرة ورد Mâšal بمعنى لمس وقبض ، وقالوا מָשְׁלָה בָּהֶן הָאוּר (شعلة النار أمسكت بهم أو انقضّت عليهم)[٨] . وليس ببعيد أن يكون معنى اللمس والقبض جاء تبعاً لمعنى السيادة والحكم .

أما العربية فلا تستعمل لمعنى الحكم ألفاظاً مشتقة من (م ث ل) . وربما اكتفت العربية بمادة (ح ك م) ومشتقاتها عن مادة (م ث ل) فى الدلالة على الحكم والسيادة فى حين نجد لغات سامية أخرى كالعبرية قد استغنت بمادة (م ث ل) عن مادة (ح ك م) فى الدلالة على الحكم والسيادة[٩] .

ومن الممكن أن ترد مادة (ح ك م) فى السامية إلى معنى المنع والفصل ومن فصل الشىء ومنعه يشتق معنى التوضيح والتمييز ؛ ومنه جاءت المعانى الكثيرة التى تدور حول (القول الفصل) . ويبدو أن ما ورد فى القرآن الكريم عن هذه المادة يرجع إلى معنى (القول الفصل) أى الكلام الواضح البين المتميز فلفظ الحكم يرد فى القرآن حوالى ثلاثين مرة وكلها ناطقة بمعنى البيان والإيضاح وما يشتق منهما . ففى قوله تعالى : « إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » [٦ : ٥٧] يفسر الحكم اقترانه بالقصص والفصل وهو الإبانة والتمييز . وفى قوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ » [٦ : ٨٩] جعل الحكم مقروناً

---

(٨) جاسترو ٨٥٥

(٩) قاموس عبرى فى مادتى hakam, nâšal .

بالكتاب كما قرن الكتاب بالحكمة فى تسع آيات أخر من القرآن . والعرب يطلقون الحكم والحكمة بمعنى . وفى الحديث : (الصمت حكم وقليل فاعله) . وفيه أيضاً (إن من الشعر لحكما) . فالحكم هنا بمعنى الحكمة أى العلم والتفقه . وهكذا إذا تتبعنا سائر الصيغ الواردة فى القرآن الكريم فى هذه المادة وجدنا أنها تدور حول معنى الوضوح والبيان أو بعبارة أدق معنى (القول الفصل) .

على أنه قد ورد فى مادة (م ث ل) العربية ما يشير من بعيد إلى صلة ما بينها و بين معنى الحكم والسيادة وذلك فى قولهم مُثِلَ الرجل يمثُل مَثالةً إذا فضُل وحسُن حاله . والمثيل الرجل الفاضل ، والأمثل الأفضل . وفى القرآن : « ويذهبا بطريقتكم المثلى » [٢٠ : ٦٣] ، « إذْ يقُولُ أمثلهم طريقة إن لَبِثْتُم إلاَّ يَوما » [٢٠ : ١٠٤] . و يقول العرب امتثل القومُ ما قال فلان أى أذعنوا وأطاعوا . وربما كان فى قولهم : (مِثْلٌ مَاثِلٌ) أى جَهْدٌ جاهد اثارةٌ من معنى القوة الذى حملته الكلمة قديما . ولا يبعد كذلك أن يكون المثل ، بمعنى الأصل أو الغاية[١٠] ، مستفاداً من هذا التصور الذى يجعل النور السماوى مصدر القوة والحياة .

والتمثال فى العربية : وكذلك mesl — messàlé — amsàl فى الحبشية[١١] ، كلها بمعنى (الشىء المصوَّر) . وهذا معنى قد يبدو لأول وهلة — كما بدا لبعض الباحثين — بعيد الصلة عن معنى الحكم والسيطرة[١٢] . ولكن من اليسير فيما نرى أن نجد صلة ما بين المعنيين إذا رجعنا إلى المفهوم القديم لمعنى التمثال فى اللغات السامية . فقد أورد القرآن بعض الألفاظ الدالة على الصور المعبودة ومن بينها لفظة تماثيل إشارةً إلى معبودات قوم إبراهيم [قرآن ٢١ : ٥٢] . ووردت كذلك للدلالة

---

(١٠) الجاحظ فى الحيوان ٥/٤١ (أن السمكة هى الأصل فى السباحة وهى المثل وإليها جميع النسبة) .

(١١) كريستوماتى ١٧٦

(١٢) يرد باترسون المادة اللغوية إلى أصلين مختلفين كل منهما قائم بذاته هما : الحكم والمشابهة (EBi ص ٥ ٣٩ هامش) .

على أشياء مصورة ليست مخصوصة بالعبادة [قرآن ٣٤ : ١٣][١٣] . فاللفظ أطلقه العرب القدماء على الصور التى تصنع لأغراض شتى منها العبادة .

وكان السحر من أهم أغراض هذه الصناعة عند الساميين . فالبابليون أفرغوا فى صناعة التماثيل جهداً ضخماً لأغراض سحرية . كانوا يصورونها بشعة مزعجة ترمز إلى الشر حتى تدفع الناس إلى اللجوء المستمر إلى التعاويذ والرقى التى يجتذبون بها رضاء هذه التماثيل و يجتنبون بها سخطها . وتفردت (كلدة) فى مسائل التماثيل والأحجبة والتعاويذ والطلاسم والعرافة حتى كانت موطن السحر[١٤] . والساحر البابلى كان يستهدف الغلبة والسيطرة على العوامل المشئومة التى تكتنفه من كل جانب[١٥] . فكان إذا أراد أن ينتقم من عدوه وهو غائب عنه عمد إلى صورة ما يصنعها بيده ثم يخرقها بحرابه أو يشعل فيها النار اعتقاداً منه أن ذلك يصل إلى جسم عدوه[١٦] .

و بالجملة كان التمثال فى اعتقاده وسيلة تمكنه من السيطرة على الأصل[١٧] . وهناك طائفة من التماثيل الصغيرة كان يستخدمها العبرانيون فى مساكنهم الخاصة و يسمونها الترافيم Teràphim ، وهى بمثابة حمائل وطلاسم لحماية السكان من الشر والأذى[١٨] .

فالتمثال فى ذهن السامى القديم ، كان رمز السيادة والإخضاع ، إذ هو الوسيلة إلى الحماية والبقاء ، أو هو السيد القوى الذى يرجى خيره و يخشى من شره . وهنا نعود إلى المعنى السابق ، فنفترض أن السامى القديم حين سمى الصورة (مِسْل Mesl) أو تمثالا ، اشتق اللفظ من معنى الغلبة والسيطرة .

---

(١٣) السيوطى فى الجلالين الحلبى ١٣٤٥ ٢ / ١١٦ (ولم يكن اتخاذ الصور حراما فى شريعته (شريعة سليمان).

(١٤) جوستاف ٩٧ — ٩٨ (١٥) روجيه ٢٩

(١٦) جوستاف ٩٨ هامش ، روجيه ٣٤ (ولا يلزم أن يكون شبه بين التمثال والرجل الذى يراد موته) .

(١٧) ERE ٧ / ١١١٢ (١٨) نفس المرجع والصفحة .

ثم نجد فى المـادة اللغوية معانى يبدو أنها متفرعة من معنى (الشىء المصوّر) من ذلك معنى القيام والانتصاب . قال العرب : « مَثَلَ الشىء » إذا انتصب . ومنه الحديث : « من سره أن يمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار[١٩] . » ومنه حديث عائشة تتحدث عن أبيها : « فحَنَتْ له قسيها وامتثلوه غرضا » أى نصبوه هدفا لسهام ملامهم وأقوالهم[٢٠] .

ومن الشىء المصور لمح الناطقون معنى المشابهة والمشاكلة فورد اللفظ فى الساميّات (المثل ، màs̆àl ، Mesl ، metal) بمعنى الشبه والنظير . واشتقوا الفعل màs̆al فى العبرية ، masl̆u فى الآشورية ، masala فى الحبشية القديمة والأمهرية ، mètal فى الآرامية ، métal فى السريانية ، وكلها أفعال تدل على المشابهة والمشاكلة[٢١] .

واشتق العرب من المادة لفظا يؤدى معنى القصاص (العقاب بالمثل) وهو مبدأ قانونى قديم فى الشعوب السامية عرفه البابليون فى شريعة حمورابى وعرفه بنو إسرائيل والآراميون[٢٢] . ولـكن العرب ، فيما نحسب ، قد تفردوا بإطلاق لفظ يدل على معنى القصاص من مادة (م ث ل) فقالوا (المثال) وقالوا : أمثل الحاكم فلانا من فلان أقصّه منه ، وامتثل منه اقتص . وقد يكون منشأ هذه التسمية أنهم لمحوا فى القصاص معنى المشابهة والمشاكلة وذلك بأن يُجعل شخص نظير شخص آخر فى القتل .

ومن المثال أو العِقاب بالمثل ربما أخذوا معنى التنكيل ، فقالوا مَثَل يمثُل مَثْلا ومُثْلةً بالرجل أى نكّل به وانتقم منه ، وأصبحت المُثلة دالة بذاتها على الآفة والعقوبة التى تقترن بالتشهير . وورد هذا المعنى فى التوراة بضع مرات بلفظى mésöl ، màs̆âl .

---

(١٩) ابن الجزرى ٤ / ٧٧

(٢٠) نفس المرجع والصفحة

(٢١) فى أسفار العهد القديم تتردد صيغة الفعل الدالة على المشابهة كثيرا فى حين لا ترد صيغة الاسم إلا مرة واحدة فى أيوب ٤١ : ٢٥ (מְשָׁלָל) أى مثله . أما فى العربية فنجد فى القرآن هذا الاسم فى بضع عشرات من الآيات وفى صيغ مختلفة .

(٢٢) سيسل ٤٧ ، خروج ٢١ : ٢٤ ، ERE ٢ — ٧٢٠ .

ففى التثنية (٢٨ : ٣٧) « وتكون دَهَشا ومَثَلا לְמָשָׁל وهزأة فى جميع الشعوب » وفى أيوب (١٧ : ٦) « ومُثلة للشعوب למשל עַמִּים[٢٣] ووردت آيات قرآنية بهذا المعنى ، كقوله تعالى : « فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً ومضى مَثَلُ الأولين » (٤٣ : ٨) وقوله : « فجعلناهم سَلَفاً ومَثَلا للآخرين » (٤٣ : ٥٦)[٢٤] وورد عدد من الأحاديث النبوية فى هذا المعنى[٢٥]. أما فى الأناجيل فلم نعثر على هذا الاستعمال[٢٦].

(٢٣) قاموس عبرى (משל) .
(٢٤) لسان (مثل) .
(٢٥) ابن الجزرى ٤/٧٧ .
(٢٦) مانسون ٦١ .

٢ ــ المثل القولى* وأشكاله القديمة

وإذا أنعمنا النظر فى استعمال كلمتى مثل وحكمة فى الاصطلاح الأدبى السامى القديم ، لا نكاد نهتدى إلى نوع الصلة التى ربطت بين الاصطلاحين فى المراحل الأولى : أكان كل لفظ منهما مختصا بنوع من الكلام ، أم كانا لفظين مترادفين اصطلاحا ، أم كانت الحكمة أعم فى مدلولها من المثل ؟ مهما يكن فإن هذا المعنى هو الذى قرره الاصطلاح العلمى المتأخر فاتفق الباحثون على أن أدب الحكمة Wisdom literature أعم من أدب الأمثال . فكل مثل حكمة ، وليس كل حكمة مثلا .

والمثل القولى فى الاصطلاح السامى القديم ، يحمل مدلولا واسعا . وليس من اليسير ترجمته بلفظ يماثله فى الأدب اليونانى القديم وتوابعه . فقد أطلق الساميون لفظ (مثل) على فنون من التعبير بعضها موجز وبعضها مطول . أطلقوه على الكلمة الموجزة التى اكتسبت صفة الشيوع والشهرة فى الناس ، والكلمة الجامعة المركزة الدالة على مهارة الصنعة والقدرة على الألغاز والتعمية ، وأطلقوه على القطعة الأدبية التى قد تبلغ الفقرة والفقرتين من الكلام والتى تقص نبوءة من النبؤات ، أو تنزع منزع الأنشودة الشعرية ، أو ترد قياسا ومقارنة لتفسير فكرة ، أو توضيح عبارة ، أو تحكى قصة خرافية ذات مغزى (١) .

وعندما قام الفرنجة بترجمة أسفار التوراة والإنجيل إلى اليونانية ثم إلى سائر اللغات الأوروبية أدركوا ذلك المدلول الواسع الذى تشتمل عليه كلمة māšāl فى العبرية والآرامية . فاستخدموا ألفاظا عدة فى لغاتهم للتعبير عنها ومنها الكلمتان اليونانيتان

---

* تمييزا له عن المثل الدال على الفعل كالذى ورد بمعنى القدوة ويسميه الأستاذ محمد عبده المثل الكلامى (تفسير المنار ١ ــ ٢٣٩) .

(١) ERE ٩ / ٦٢٩ بتصرف ١ ــ ١٦٧ .

Παροιμία (proverb) ، Παραβολή (parable) . وكان الاصطلاح الأول منهما هو اللفظ الشائع عندهم للمثل . فإذا عرّفوه قالوا : هو العبارة التى تتصف بالشيوع والإيجاز وحدّة المعنى وصحته[٢] . فالإيجاز ركن من أركان المثل عندهم وبذلك حدده أرسطو[٣] . ويظهر أن هذا التحديد اليونانى قد شاع فى الشرق مع ما شاع من أفكار الثقافة اليونانية حتى كان له أثر فى تعديل مفهوم المثل فى أذهان بعض المفكرين الشرقيين ، فنجد أن من مفكرى العرب مثلا من عرفوا المثل تعريفا قريبا من تعريف اليونان القدماء . فأبو عبيد القاسم بن سلام + ٢٢٤ هـ يرى اجتماع ثلاث خلال فى المثل : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه[٤] . فإبراهيم بن سيار النظام + ٢٢١ هـ = ٨٤٦ م إمام المعتزلة ، وأحد الذين أخذوا من الأفكار اليونانية بنصيب يصف المثل بقوله : (يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة)[٥] . ويأتى أبو نصر الفارابى الفيلسوف + ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) فيفرق بين النادرة والمثل بقوله : (النادرة حكمة صحيحة تؤدى ما يؤدى عنه المثل إلا أنها لم تشع فى الجمهور ، ولم تجر إلا بين الخواص وليس بينها وبين المثل إلا الشيوع وحده)[٦] . وهذا يطابق ما ذكره العالم بنتسن Bentzen فى تقسيم أدب الحكمة إلى وحدات بسيطة تتألف من شكلين : الجملة الجامعة sentence ، والمثل proverb[٧] .

ولكن هذا التحديد المتأخر لا ينطبق إلا على بعض فنون المثل فى المدلول السامى . فقد أطلق العرب القدماء مع إخوانهم الساميين هذا اللفظ على عبارات

---

(٢) ERE ١٠ — ١٤١٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) شرح البكرى ورقة ٢ ا (راجع الملحق الثانى فى آخر هذا البحث) .
(٥) مقدمة الميدانى فى مجمع الأمثال .
(٦) مزهر ١ — ٤٨٦ .
(٧) بنتسن ١ — ١٦٧ .

لا يشترط فيها الإيجاز —على الأقل— كالأمثال القياسية parables والأمثال الخرافية fables .

ولن نأخذ بذلك التحديد غير السامىّ فى بحثنا هذا ، و إنما نستوحى المدلول الشائع فى الآداب السامية القديمة .

وفيما يلى الأشكال التى عدها الساميون القدماء مندرجة فى مدلول المثل :

(١) نظر الناطق القديم إلى أحلام النائم ، وتهيؤات الكاهن وتنبـؤات النبى ، فعدها أمثالا ، فأطلقت التوراة اللفظ على نبوآت بلعام وميخا وحبقوق[٨] . ويزعم بعض الباحثين أن القدامى عدوا هذا الشكل مثلا لأنه كلام فيه تشبيه[٩] . وارتبط المثل القولى بالـكهانه والعرافة . عرفهما البابليون والآشوريون والمصريون والعبرانيون والأحباش من أقدم العصور[١٠] . وكان الكاهن والعراف فى أشد الحاجة إلى الصورة المجازية يجد فيها مجالا للمواربة والإيماء والرمز والألغاز . ونجد عددا من الأمثال الملغزة منسوبة إلى أقوال كهان العرب أمثال عزى سلمة الكاهن[١١] والشعثاء الكاهنة وهى تصف سبعة أخوة . وطريفة الكاهنة وهى تخاطب قوم عمرو ابن عامر ، وكاهنة ذى الخلصة وهى تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم والكاهنة السعدية تخاطب العجفاء وصواحباتها[١٢] . وكل هذه أحاديث اشتملت على عدد من الأمثال وروتها كتب الأمثال . وفى التوراة يرد لفظ מָשָׁל مقترنا باللغز فى سفر حزقيال (١٧ : ١ — ١٠) « يا ابن آدم حاج أحجية (חִידָה) ومثل مثلا لبيت إسرائيل وقل هكذا قال السيد الرب : نسرٌ عظيمٌ كبير الجناحين طويل القوادم . . . » وكذلك فى سفر الأمثال (١ : ٦) mâsâl umêlîṣâh.

---

(٨) مانسون ٦٢ ، قاموس عبرى מָשָׁל . استخدمنا كلمة (التوراة) فى هذا البحث بالمعنى الشائع الذى ورد على ألسنة العرب وفى القرآن الكريم .وهو معنى لا ينطبق دائما على المدلول الاصطلاحى المعروف لدى الدارسين للآداب السامية .

(٩) مانسون ٦٢

(١٠) ERE ١٠/٢٨٤ ، ١/٥٦ ، ٤٠٩ — ٤١٠ ، ٣ / ١٠١ ، ٤/١٨١ ب

(١١) ميدانى ١/٣٠ (١٣١٠) .

(١٢) ميدانى ١/١١ ، ١٨٥ — ١٨٦ ، ٣٢١ (١٣١٠) على الترتيب .

واللغز طريقة قديمة ، تنبع كما يقول هِرْدَر مع طفولة الجنس البشرى ، ولعل جميع الشعوب فى أولى مراحل ثقافتها كانت مولعة بالألغاز[١٣] . وقد يقترب من المثل القولى حتى يصعب التمييز بينهما وحتى يصبح اللفظان مترادفين . وكانت الألغاز والأمثال الملغزة منتشرة فى الشعوب السامية . ومن أقدم ما حفظته الآثار منها ما ورد فى الآثار الشومرية وهو عدد من الأمثال والألغاز يرى الباحثون أنها شبيهة بنظائر لها فى أسفار العهد القديم[١٤] . وفى البابلية فى بعض نقوشها ورد لغز هذا نصه : « ما الشىء يصير حاملا من غير حبل ، ويصير سمينا من غير أكل » ؟ والجواب هو السحاب[١٥] . وقد استخدم العبرانيون الألغاز فى محافلهم وأعيادهم مادة للهو والمسامرة . ولم ترد نصوص تؤكد أن العرب كانوا يفعلون شيئا من ذلك فى محافلهم وإن كان بعض الباحثين لا يستبعد ذلك[١٦] .

(ب) وأطلق الساميون لفظ مثل على صورة مجازية أخرى ليست عبارة موجزة ولكنها حكاية أو وصف قصد به توضيح فكرة أو البرهنة عليها بطريق المقارنة والقياس والتمثيل . ويمكن أن نسمى هذا المثل « المثل القياسى » ويسميه الفرنجة Parable . عرف قديما فى تعاليم بوذا إذ كان المثل القياسى وسيلة تعليمية محببة إليه . رووا أن بوذا أخذ يوما يشرح تعاليمه لتلامذته فذكر لهم أن المجاهدين فى سبيله سيلقون جزاءهم ولكنه سيحتفظ لأشدهم تمسكا بتعاليمه بهدية المعرفة ، وأن مثلهم فى ذلك كمثل الملك الذى كافأ جنوده بأشياء كثيرة ولكنه احتفظ لأشدهم إخلاصا بدرة تاجه[١٧] . وفى بابل كان المثل القياسى وسيلة تعليمية لرجال الحكمة ، وقد ورد عدد منه فى قصة أحيقار[١٨] . ووردت أمثلة منه فى أسفار العهد القديم ثم كثر استخدامه فى أيدى الأحبار والربانيين فى توضيح التعاليم اليهودية وتفسيرها . ثم نجده فى أقوال

---

(١٣) ERE ١٠ — ١٧٦٩ .
(١٤) نفسه ١٠ — ٤١٢ ، ٤١٣ ب .
(١٥) نفسه ١٠ — ٧٦٧ .
(١٦) EBi ص ٤١٠٢ .
(١٧) ERE ١/٦٣١ ب .
(١٨) فندلاى ٣٢ ، ٥٨ ، ٧٥

الإنجيل والقرآن ورجال الديانتين المسيحية والإسلامية . والظاهر أن المثل القياسى فى الآداب السامية بنوع خاص قد نشأ فى أحضان الديانات . وقد يلتقى المثل القياسى بالخرافة حتى يصعب التمييز بينهما ، وإن كان بعض علماء اللاهوت يفرقون فى الاصطلاح بين المثل القياسى والخرافة[١٩] .

(ج) والصلة وثيقة بين الخرافة و بين الأشكال السابقة من حيث انها جميعا صور مجازية مغربة بعيدة عن الواقع المجرد . ويصف أحد الباحثين (تور أندريه T. Andrae) الصلة بين اللغز والخرافة بقوله (فى كليهما يتجلى الضباب والرياح كائنات حية ، وتتمثل السحب أبقارا كما فى كتابات رج — فيدا وفى ألغاز الألمان . ويبدو الليل والنهار شقيقين يتعهدان ولديهما الشمس والقمر . .)[٢٠] وكثيرا ما يكون اللغز تعبيرا عن السر المقدس أو كلمة السر التى تمتلكه جماعة ما[٢٠] .

والخرافة بمعناها الواسع ترجع فى نشأتها إلى أقدم عصور التاريخ ، وهى كسائر الصور المجازية مستمدة من البواعث العامة التى تدفع الناس إلى التعبير عن أفكارهم فى صور محسوسة[٢١] . ولكن الخرافة أصبحت أداة تعليمية على أيدى الحكماء ورجال الدين ، فأدخلوا عليها المغزى الخلقى ، وجعلوها مادة لشرح الأفكار والتعاليم . ونحن حين نطلق كلمة (خرافة) فإنما نقصد ماسماه الفرنجة fable ، وهو الذى يُتَّخذ أداة تعليمية بنوع خاص . وهذا النوع هو الذى أطلق عليه الساميون كلمة مَثَل فى أكثر الأحيان . أطلقها العبرانيون المتأخرون على هذه الصورة المجازية سواء أكانت مركزة أم مطولة . فى القرن الأول الميلادى أطلق اليهود كلمة mâšä على عدد من قصص الثعالب وخرافات كوبسيم أوكو بسيس משׁ / כּוּבְסִים[٢٢] .

---

(١٩) ERE ، ٦٢٩ ب، ٦٣١ ا ، EBr ، ١١٤/١٠ ا — وأرسطو يفرق بينهما (مانسون ٥٧ — ٥٨) .

(٢٠) بنتسن ١٧٧/١ .

(٢١) EBr ١١١٤/١٠ ا .

(٢٢) جاسترو ٨٨٥ ، JE ١٢٢١/١ ا .

وأطلق العرب على قصص الحيوان أمثالا[٢٣] . وفى السريانية تؤدى كلمة matlâ هذا المعنى نفسه[٢٤] .

(د) وأطلق المثل فى بعض النصوص العبرانية القديمة على الأنشودة والترنيمة وورد للدلالة على الملحمة التى كان ينشـــدها الموشليم [الماثلون] מושלים (عدد ٢١ : ٢٧ — ٣٠) . وأطلق أيضا على ثلاثة آلاف مقطوعة غنائية منسوبة إلى سليمان (الملوك الأول ٥ : ١٢ « النص العبرى ») ، وأطلق على بعض المزامير التى تتغنى بالتعاليم الدينية (مزامير ٤٩ : ٥ ، ٧٨ : ٢) . ومن العسير أن نجد هذا الاطلاق فى العربية ، غير أننا نجد بعض الشواهد اللغوية التى تحتمل هذا المعنى ، وذلك فى قول العرب : تمثل الرجل أى أنشد بيتا ثم آخر ثم آخر وهى الأمثولة[٢٥] .

وطائفة الموشليم التى أشار إليها سفر العدد هم الذين كانوا ينشدون الملاحم الوطنيـــة ، كما كانوا فيما يظهر يحترفون قول الأهاجى فى الأشخاص الأحياء[٢٦] . ويرتبط هذا الإسم بكلمة mâšâl التى تقابل فى العربية المُثْلة وهى الدّالة على التنـكيل والعقوبة .

(هـ) وأطلق لفظ (المثل) على العبـارة الموجزة المعبرة عن رأى الشعب أو اتجاهه Folk — Proverb[٢٧] والآداب السامية تحتفظ بعدد من الأمثال الشعبية دونها جُمّاع الأمثال فوصلت إلينا . ومما وصل إلينا من الأمثال الشعبية المصرية القديمة قولهم (إنها لم تحدث لنا منذ أيام رع) وهو مثل نطق به جمع من الشباب حين كانوا يتحدثون عن الانتصارات التى أحرزها فرعون مصر ، منفتاح[٢٨] . وورد فى أسفار

---

(٢٣) ضبى ٨٥ ، حيوان ٧/٩٢ ، ٩٧ ، عسكرى ١/٢٤٦ ، ٢٦٥ ، ٢/ ٩٥

(٢٤) قاموس سريانى ٣١٧ (٢٥) القاموس المحيط (مثل) .

(٢٦) EBr ص ٣٩٠٦ ، ٣٩١١ .

(٢٧) راجع إطلاق اللفظ على هذا النوع فى بعض أسفار العهد القديم صموئيل الأول ١٠ : ١٢ وفى العربية عند الجاحظ بيان ١ / ١٧٣ (من أمثال العامة أحمق من معلم كتاب) وفى أمثال ابن سلام ورقة ٦ ا (والعامة تقول فى مثل هذا المثل «دون ذا ينفق الحمار» ، وكلام العرب هو الأول) يريد قولهم « شاكه » .

(٢٨) ERE ١٠ / ٤١٢ .

العهد القديم بضعة أمثال شعبية[٢٩] كقولهم « أشاول أيضا بين الأنبياء » قاله شعب بنى اسرائيل حين انضم شاول بن قيس إلى زمرة الأنبياء وحل عليه روح الله فتنبأ معهم ، فدهش الشعب لأنهم كانوا قد عرفوه من قبل بشرا عاديا لا يتنبأ . فقالوا قولتهم هذه التى ذهبت مثلا . وكذلك نجد عددا كبيرا من هذه الأمثال فى التلمود[٣٠] والأمهرية[٣١] والعربية[٣٢] . ونلاحظ أن بعض هذه الأمثال لا يفهم إلا إذا عرفنا مناسبته وقصته ، فهو بذاته أشبه باللغز الذى يحتاج إلى حل . ولهذا حرص الرواة على إيراد قصص لهذه الأمثال لشرحها وتفسيرها .

وهذه الأمثال فى معظمها لا تعدو ملاحظات بسيطة لا تصل إلى حد التعمق والتأمل الفلسفى البعيد ، ولا تعدو كلاما مرسلا على السجية لا صنعة فيه ولا محاولة شعرية ظاهرة فى سرد العبارة[٣٣] ، كما أنها لا تلتزم التعبير المجازى دائما وإن كان لا يخلو عدد كبير منه .

(و) وأطلق لفظ (مثل) على العبارة الموجزة الأدبية gnome التى تتميز عن النوع السابق بأنها تدل على عقل واع وتأمل بعيد ، وصنعة ظاهرة فى تنميق العبارة وتنسيقها . فمن ذلك قول العربى (رب عجلة تهب رنيا ورب فروقة يدعى لنيا ، ورب غيث لم يكن غيثا)[٣٤] وقول سفر الأمثال (١ : ٨ — ١٠) « اسمع يابنى تأديب أبيك ولا ترفض شريعة أمك ، لأنهما اكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك » . ولا يشترط فى هذه الأمثال أن تكون معبرة عن نفسية طبقات الشعب وذوق الجمهور ، بل هى مبادئ وأقوال يقررها أفراد من الصفوة المثقفة كالحكماء ورجال الدين ، وتصدر عن روية وتفكير وإتقان ، وهى بهذا كله تختلف عن الأمثال الشعبية . وهذا النوع من الأمثال يقترن فى تاريخه الطويل بالكتابة والحكمة والتعليم الدينى .

---

(٢٩) صمويل الأول ١٠ : ١٢ ، ٢٤ : ١٣ تكوين ١٠ ، ٩ ، ارميا ٢٣ : ٢٨ ، ٣١ : ٢٩ ، حزقيال ١٨ : ٢ ، ملوك أول ٢٠ : ١١ ، حزقيال ١٢ : ٢٢ ، ١٦ : ٤٤ .

(٣٠) بولانو ٣٨٦ وما يليها .

(٣١) فى بلاد النجاشى للدكتور مراد كامل سلسلة اقرأ .

(٣٢) راجع أمثال العرب للمفضل الضبى . (٣٣) بنتسن ١/١٦٨ .

(٣٤) ضبى ٦١

٣ ـ أصل الاصطلاح

عرفنا فيما سبق الأشكال القديمة التى أطلق عليها الساميون لفظ « مثل » ، وكانت تتناول صورا شعرية حينا ، ومرسلة حينا آخر .

وقد وقف الباحثون القدماء والمحدثون أمام هذه الأشكال ، يبحثون عن أصل العلاقة بينها و بين هذا اللقب الذى خلعه عليها الساميون ، لفظ « مَثَل » وهو اللقب الذى أطلق على تلك الأشكال على اختلافها . وذهبوا فى الإجابة على هذه المسألة مذاهب شتى . وفيما يلى نذكر أهمها :

(ا) رأى ب. هاوبت P. Haupt أن الصلة بين المثل والشعر قديمة فى تاريخ الآداب السامية وغير السامية ، وأن أقدم الأمثال التى وصلت إلينا فى النقوش الشوميرية وفى أسفار التوراة ، كانت فى الأغلب الأعم موزونة العبارات على الطريقة الشعرية السامية التى يطلق عليها توازن الأشطار Parallelismus membrorum . والمثل فيها يتألف — على الأقل — من شطرين متساويين[1] . ثم وجد الباحث أن ظاهرة الشعر قديمة جدا فى الآداب السامية ، فرجح أن يكون هناك علاقة أساسية بين لفظ مثل و بين الشعر فى الاصطلاح الأقدم . وافترض أن منشأ هذه التسمية راجع إلى معنى التسوية بين شطرى العبارة واستند إلى معنى المساواة الذى يفهم من استعمال اللفظ فى اللغة ، و إلى اللفظ الآشورى mišlàni الذى يدل على « الأجزاء » . فمن هذا الاستعمال أطلق الساميون لفظ مثل على السطر أو البيت من الشعر الذى يتألف من شطرين متساويين[2] .

وهذا رأى بعيد الاحتمال ، فقد نسى الباحث أن الأمثال الشعبية فى نشأتها الأولى لا تدل على وزن شعرى ظاهر . و إذا كان أقدم الأمثال التى وصلت إلينا

---

(١) ERE ١٠/٤١٣ ب ، بنسن ١/١١٩ .

(٢) EBi ص ٣٩١١ .

فى النقوش والـكتابات هى فى أغلبها من النوع الموزون ، فليس هذا دليلا على ما رآه. ذلك أن الأمثال التى ظفرت بالتدوين هى فى معظمها من ذلك النوع « الرسمى » التعليمى الذى كان أسعد حظا من النوع الشعبى فى ذلك المضمار . فقد كان التدوين فى أيدى فئة خاصة من الـكتاب والحكماء وأصحاب التعاليم . فلم يحظ المثل الشعبى من عنايتهم إلا بالشىء القليل . ومع ذلك فإن الأمثال الشعبية على قلة ما دون منها فى النقوش والآثار القديمة ، تمثل اتجاها قديما فى تاريخ الشعوب .

أضف إلى ذلك ما ذكره باحث آخر[٣] فى الرد على هذا الرأى وذلك قوله : « من العسير ، من الوجهة الاشتقاقية أن يطلق معنى الأشطر أو الأنصاف على لفظ (مثل) وهو لفظ مفرد . فهذا ما لا نجد له نظيرا فى اللغات السامية ولا فى اللغتين اليونانية واللاتينية . ثم إن إرجاع أصـل الـكلمة إلى شكل الأسطر الظاهر دون أى اعتبار للتعبير والفكرة أمر لا يتفق وأصـول الـكلمات المقاربة فى معناها أو المرادفة للفظ (مثـل) فى العبرية وفى غيرها ، مثل , melisah hidâh ، ṣîr, adagium, proverbium, παραβολή ، παροιμία ، (ونظير هذا فى العربية « شعر ») ، فهذه كلها تدل فى أصول معانيها على التعبير والفكرة . أضف إلى ذلك أن ردّ الأصل إلى شكل الأسطر إنما يحمل فى معناه افتراض وجود فن الـكتابة منذ البداية . ولـكن الأرجح أن يكون معنى المثل القولى قد نشأ قبل أن يبدأ الاستعمال الأدبى لفن الـكتابة » .

(ب) ولاحظ عدد من الباحثين[٤] أهمية الصورة المجازية فى مدلولات المثل فربطوا بينها وبين بعض معانى اللفظ فى اللغة ، ورجحوا أن أصل المثل القولى يرجع إلى معنى المجاز أو التشبيه . وهذا هو الرأى الشائع بين كُتّاب العرب . وقد رأينا من قبل أن التشبيه يعد عنصرا أساسيا فى تعريفاتهم[٥] . ويوضح التهانوى هذا

---

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) EBi ص ٣٩٠٥ و ٣٩١١ ، ERE ٩ — ٦٢٨ وبنسن ١ — ١٦٨ .

(٥) مزهر ١/٤٨٦ ، وراجع ص ٩ من هذا الـكتاب .

الرأى بقوله : (المثل فى الأصل بمعنى النظير ثم نقل منه إلى القول السائر — أى الفاشى — الممثل بمضربه و بمورده . والمراد بالمورد الحالة الأصلية التى ورد فيها . وبالمضرب الحالة المشبهة بها التى ورد فيها الكلام ، وهو من المجاز المركب . بل لفشو استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سمى بالمثل[٦]) .

وهذا يستدعى الرجوع إلى نشأة المجاز فى اللغات عامة وفى السامية بنوع خاص . وحسبنا أن نشير بإيجاز إلى ما يراه بعض الباحثين فى ذلك . فمنهم من يرى أن نشأة المجاز قد اقترنت بالأساطير والحياة الدينية ، وأن الأساطير كانت منبعا أساسيا هاما للمجاز . وربما كانت الصور المجازية عبارة عن أساطير متركزة متبلورة . وكانت الشعوب البدائية تؤمن بهذه المجازات أيمانها بالأساطير وتعتقد أنها قد حدثت فعلا[٧] . وقد وصف الساميون آلهتهم بصور رمزية أو طبيعية فخلعوا عليها رموزاً تعبر عن مشاعرهم نحوها . كالرمز إلى (تيامت) الآلهة الظالمة عند البابليين بالحية (الثعبان) . وفى أساطيرهم أن مردوك ذبح الحية تيامت وجعل من نصفَىْ جسمها السماء والأرض[٨] . وأكثر البابليون من تصوير الكوكب بالرموز اللغوية والخطية . ولا نزال نجد آثارا لذلك فيما ورثه العرب من كتب الحكمة القديمة . فصوروا الشمس بصورة امرأة قائمة على عجلة تجرها أربعة أفراس ، فى يدها اليمنى مرآة ، وفى اليسرى على صدرها مقرعة وفى رأسها شعاعها . وصوروا زحل بصورة رجل وجهه وجه غراب ورجلاه رجلا جمل قاعد على كرسى وفى يده اليمنى عصاً وفى كفه اليسرى حربة الخ[٩] . . . والطلاسم تقوم صورها على المجاز فى أكثر الأحيان كأن يقال فى طلسمات المحبة والألفة : ألفت بين فلان وفلان كتأليف النار والهواء والماء والأرض ، وزينت فلاناً فى عين فلان كزينة السماء بنجومها والنبات بأزهارها[١٠] .

---

(٦) كشاف ٢ — ١٣٤٠ (٧) EBr ٢ — ١٥٥ ، ١٩ — ١٢٩

(٨) ولهذا صدى فى التوراة (أيوب ٧ : ١٢ و ٢٦ : ١٢ ومزمور ٨٩ : ١٠ واشعياء ٥١ : ٩ و ٢٧ : ١ وابن سيراخ ٤٢ : ٢٣) .

(٩) مجريطى ١٠٩ — ١١١ . (١٠) نفسه ٣٩ — ٤٠ .

فيبدو أن الناطق القديم كان ينظر إلى الصور المجازية كما نظر إلى (التمثال) يصطنعها لأغراض دينية وسحرية . وإذا كنا اليوم نعد البلاغة نوعا من السحر على سبيل المجاز ، فقد كان الناطق القديم يرى ذلك حقيقة يؤمن بها أشد الإيمان . فالكلمات لم تكن مجرد علامات لاخطر لها ، بل كان لها قيمة سحرية هى التى تفسِّر قوة الرقى واللعنات[١١] .

فالمجاز أسلوب جرت عليه اللغات السامية وآثرت استخدامه فى كلامها إلى حد استرعى أنظار الباحثين الشرقيين والغربيين قديما وحديثا ، ومن الملاحظ أن الشعوب السامية ، بوجه عام ، كانت تقدر إلى حد كبير برهان الحكمة الذى يتجلى فى التعبير المجازى عن الأفكار العميقة العويصة[١٢] . وقد أشار الباحثون هـ . هـ . شايدر ، وادوارد نورس Nourse ، وجفكن Geffcken إلى تلك الظاهرة الشائعة البارزة فى اللغات السامية ، وقارن بعضهم بينها وبين اللغات الأوربية التى تتميز بالتصورات المحدودة المتميز بعضها من بعض . ومن كتاب العرب من لاحظ هذه الظاهرة فى كلام العرب . فمن ذلك قول أبى هلال العسكرى : (وأكثر كلام العرب محمول على الاستعارة وأجوده أحسنه استعارة[١٣]) .

فإذا رجعنا إلى المثل القولى فى السامية القديمة لاحظنا أن عددا كبيرا منه تضمن عبارات مجازية . وقد رأينا أن المجاز فى أشكال المثل التى سبق ذكرها قد تجلى بنصيب كبير ، فظهر فى النبوءة واللغز والخرافة والمثل القياسى والأنشودة . ومن ثم تنبه الباحثون إلى الصلة بين المثل والمجاز ، وبالغ بعضهم فردوا أصل المثل إلى المجاز . ولكن الأقرب عندى أن يكون المجاز قد دخل فى المثل بطريق غير مباشر اكتسبه فى أثناء تطوره خلال العصور والأجيال . وقد انتهينا فى الفصل الأول من هذا البحث إلى أن معنى النظير والمشابه لم يكن المعنى الأصلى فى المادة اللغوية . وفى ظنى أن الصور المجازية لم تقع فى الأمثال لكونها أمثالا ، بل لأن

---

(١١) فندريس ٢٣٨ — ٣٩ ومجريطى ٩ . (١٢) بنقسن ١/١٧٧ .
(١٣) عسكرى ١/٢٥١ .

اللغات السامية مولعة بالمجاز حيث كان . والتصوير المجازى — كما رأينا — سمة تميز معظم الأساليب الساميةِ القديمة بوجه عام سواء ما كان منها أمثالا وما لم يكن . ومن ثم دخل المجاز فى الأمثال كما دخل فى غيرها . وفوق هذا فلا ننس أن عددا من الأمثال الشعبية وهى قديمة جدا لم يتضمن صورا مجازية[١٤] .

(ج) وهنالك رأى آخر أورده الباحث بنتسن نقلا عن العالم بوشتروم ، ولعل هذا الرأى فى جملته أقرب الآراء إلى الصواب ، وهو لا يتجه إلى التعبير ولا إلى الفكرة ليستمد منهما أو من أحدهما أقدم تعليل للاصطلاح ، خلافا لما فعله أصحاب الرأيين السابقين ، وإنما اتجه إلى ذلك الرأى بعد تتبع الأمثال السامية القديمة والاهتداء إلى ما كان بينها وبين أصحاب السلطة من صلة وثيقة ؛ فأرجع أصل المثل القولى إلى الكلمة التى ينطقها الحاكم أو السيد Mòšél تلك الكلمة القوية فى نظر الناس المفعمة بالهيبة والسيطرة[١٥] .

وقد رأينا من قبل أن معنى الحكم والسيطرة هو من أقدم معانى المادة اللغوية[*] . ولم يخل شكل من أشكال المثل القديم من ارتباطه بالسلطة الحاكمة فى نشأته الأولى أو فى تطوره أو فى الأمرين جميعا ، وقد يفسر لنا هذا لماذا دخلت بعض أقوال الكهان والأنبياء فى باب الأمثال ، فإن صفوة هاتين الطائفتين كانت من غير شك من أرباب السلطة الدينية والزمنية . ويرتبط اللغز أحيانا بتاريخ السلطة الحاكمة لدى الشعوب السامية . فقد كانت الألغاز مادة للمساجلة بين أفرادها كما حدث بين سليمان وحيرام الصورى ، وكان الأول يفوز على خصمه دائما حتى استعان خصمه بأحد السحرة . وكان الآلهة فيما زعموا يعقدون مساجلات فيتحدَّون الملوك بحل الألغاز ؛ كما فعل جوبتر مع الملك نوما[١٦] . ويروون أن ملكة سبأ قد برهنت على حكمتها بمسائل صعبة عويصة امتحنت بها سليمان ، فلما أخبرها سليمان بكل كلامها آمنت بحكمته (الملوك الأول ١٠ : ١ — ٤) . أما المثل القياسى فقد رأينا أنه نشأ

---

(١٤) بنتسن ١/١٦٨ .
(١٥) نفس المرجع والصفحة .
(*) راجع ص ٢ — ٣ من هذا البحث
(١٦) ERE ١٠ / ١٧٦٩ .

على أيدى معلمى الديانات الذين كانت فى أيديهم السلطة الدينية على الأقل . ومثل هذا يمكن أن يقال فى الكلمات الحكيمة الموجزة التى تجرى مجرى الأمثال ، والخرافات التعليمية التى تهدف إلى المغزى الخلقى .

والصلة بين التعليم الدينى والسلطة الحاكمة وثيقة من أقدم العصور فى تاريخ الشعوب السامية ، ففى بابل كان للكهنة كما كان فى مصر سلطان قوى على الملوك ، وكان للكهنة كنوز العلم التى كانت تنتقل إليهم بالوراثة[١٧] . وفى نقش بابلى أيضا يفتخر الملك أشور بانيبال بأنه تعلم الحكمة من آلهة الحكمة مثل نابو ومردوك ، وأنه عرف صنعة أدابا الحكيم وفهم أسرار الكتب والكتابة[١٨] . وكان الوزير الأشورى أحيقار يلقب بالحكيم والكاتب العلامة ومستشار أشور[١٩] . وفى إسرائيل دونت مجموعات من الحكم كان يوجهها الحكماء إلى أبنائهم أو كانوا يؤلفونها من أجل الملوك[٢٠] . وحظى سليمان بشهرة لانظير لها فى الحكمة وكان يجمع إليها الملك والنبوة ، وقد نسب إليه سفر الأمثال وكثير من الحكم الواردة فى التوراة . ومن المعلوم أن فن الكتابة كان من أهم برامج التعليم فى الشرق ، وربما كان الغرض من ذلك التمكن من توريث الحكمة للاحقين من الطلاب ، وكانت مادة الحكمة تتسع حتى تشمل الشئون الروحانية والزمنية ، وبذلك يصير الحكيم مؤهلا لتوجيه السلطة بمظهريها الدينى والزمنى ، فاقترنت الحكمة منذ أقدم عصورها بالشئون الدنيوية وبالغيبيات ، وعد الحكماء رؤساء السحر (إشعيا ٣ : ٣) ومفسرى أحلام (تكوين ٤١ : ٢٩) وشعراء (ملوك أول ٥ : ٩ — ١٤) . وعرف الحكماء فى مصر بأنهم قوم يوحى إليهم من الإله توت ، وعدت الحكمة هبة من الإله نابو فى بابل ، وللحكمة إله ورد اسمه فى نقوش رأس شمرا El Hokmôt . وفى إسرائيل ردوا مصدرها إلى « يهوه » وهو الذى خلق الحكمة أول ماخلق (أمثال : ٨ ، ابن سيراخ ١ : ٤٤) وامتدحت الأديان السماوية الحكمة وقرنتها بالكتب المقدسة .

---

(١٧) جوستاف ٧٥ .
(١٨) ديورانت ٢ / ٢٨٤ .
(١٩) بنتسن ١ / ١٧٠ .
(٢٠) لودز ٦٥٣ ، ٦٥٤ .

وارتبطت الحكمة فى أفهام العرب القدماء بالغيبيات كذلك ، فكان من الحكماء من اشتغل بالكهانة مثل زهير بن جناب القضاعى[٢١] . وكان منهم رجال دين مثل قس بن ساعدة . وعرفوا الصلة بين الحكمة والكتاب وسموا الرجل الذى يجيد الحكمة والكتاب بالكلمة وسموه الكامل أيضا ، ومن هذه الطبقة سويد بن الصامت وحضير الكتائب[٢٢] . كذلك كان الجانب الدنيوى الزمنى من اختصاص الحكماء فنسبت إليهم أقوال فى الفصل فى المنازعات ، وفى وسائل تصحيح الأبدان والعقول[٢٣] .

نفهم مما سبق كيف نشأ التعليم الدينى مرتبطا بالسلطة ، وكيف كانت السلطة الدينية مرتبطة بالسلطة الزمنية فى أكثر الأحيان فى تاريخ الشعوب السامية . وندرك كذلك أن الكتابة كانت ذات صلة وثيقة بالحكماء ومعلمى الديانات من أصحاب السلطة. فلا غرابة إذاً أن نرى الأمثال التى نشأت على أيدى الحكماء ومعلمى الديانات ، كالأمثال القياسية والأمثال الحكمية الموجزة والخرافات التعليمية قد ارتبطت منذ تكوينها الأول بالسلطة الحاكمة بمظهريها .

وعلى هذا النحو يمكن أن نفسر إطلاق المثل فى بعض النصوص العبرانية القديمة على الأنشودة والترنيمة وتسمية منشدى الملاحم بالموشليم : ذلك أن نظم الشعر فى مفهوم القدماء سواء أكان شعرا حماسيا أو هجائيا ، كان يرتبط ارتباطا وثيقا بسلطان السحر والسحرة . فالشاعر الهجاء كان يتقمصه ساحر ، وكان الهجاء لعنة فادحة تصيب من يوجه إليه ولم ينفصل الشاعر الهجّاء عن الساحر الآثم إلا فى عصور متأخرة بفضل المدنية . أما فى الأصل فكانا شيئا واحدا.[٢٤] أضف إلى ذلك أن الإنشاد والترنيم كانا من مقومات السحر . وللساميين وغيرهم أغانٍ وأناشيد تتخذ لأغراض سحرية. والغزل فيما يبدو كان ذا صلة وثيقة بالترنيم السحرى الخاص بالحب ، والملاحم قد ارتبطت كذلك بالأساطير وكان إلقاؤها محددا لمراحل الطقس السحرى ، ومشيرا إلى المأساة

---

(٢١) سجستانى ٢٥ . (٢٢) بلاذرى ٤٧٩

(٢٣) بنتسن ١ / ١٧٠ . يراجع عن حكماء العرب بلوغ الأرب ١ / ٣١١ — ٣١٢ ، ٣٣٨ ، سجستانى ٤٤ — ٤٥ ، ٤٧ — ٤٨ ، التمهيد إلى تاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرازق ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢٤) فندريس ص ٢٣٨ .

التى يعبر عنها هذا الطقس . ولكن هذه الصلات لم تلبث أن وهنت على مر العصور فانفصل السحر من الشعر .

بل إن الأمثال الشعبية التى نبعت من صميم الشعب — إذا تأملناها — نجد أنها كانت تمت إلى السلطة الحاكمة بسبب ما . فمنها ما شاع فى مجالس الحكام ووصل إلى أفنية الملوك ، ومنها ما يكون سخرية أو نقدا أو امتداحاً لفرد أو جماعة من أصحاب السلطة الحاكمة . وهذه وأشباهها اشتهرت حتى وصلت إلى مسامع الخاصة من الحكماء ورجال الدين وغيرهم من الزعماء ، فنقلوها فيما نقلوا من آثار وأخبار ، وظفرت بالتسجيل والتدوين . ويبدو أن احتكار فن الكتابة والتدوين فى العصور القديمة لم يتح لكثير من الأمثال الشعبية أن تظهر على مسرح التاريخ المدون المكتوب . فقد كانت الكتابة كما قلنا وقفا على طبقة خاصة من الناس ؛ لهذا كانت أصوات الشعب التى تعبر عنها الأمثال والتى وصلت إلينا من مصر وبابل والعبرانية القديمة قليلة قلة ظاهرة[٢٥] . ومع ذلك فإذا رجعنا إلى أمثال العرب التى ذكرها المفضل الضبى + ١٧٨ وهى من أقدم ما وصل إلينا منها ، نجد أن عددا كبيرا منها قد شاع فى مجالس ملوك الحيرة وشيوخ القبائل ؛ وهى تصور فى معظمها الأمثال العربية الشعبية القديمة . وتفسير ذلك أنها قد حظيت بالتدوين والظهور على مسرح التاريخ المكتوب بفضل اشتهارها على أيدى أصحاب السلطة وبفضل تشجيع أصحابها على إذاعة هذه الأمثال وتدوينها ، وكان ملوك الحيرة يسمحون فى مجالسهم باجتماعات شعبية تضم عددا من أفراد القبائل وشيوخها ، وكانوا يستمعون إلى أحاديثهم ويشتركون فيها أحيانا ، وكانت هذه الأحاديث موضع اهتمام العرب فى مجالسهم وأسمارهم يتلقفونها بشغف عظيم وتجرى فى أوساطهم مجرى الأمثال .

من ذلك كله نرى أن المثل بأشكاله المختلفة قد نشأ فى بادىء الأمر ليكون لقبا خاصا يخلع على بعض العبارات والصور المجازية التى صدرت عن الحكام أنفسهم أو لقيت قبولا أو شهرة فى مجالسهم .

---

(٢٥) بفايفر ٣٧ ، ٣٨ .

٤ — المثل العربى وخطوطه العامة

نصل إلى الأمثال العربية فهى موضوع بحثنا فى الفصول القادمة لنعرف ما يخص المثل العربى من تلك الفنون والأشكال التى سبقت الإشارة إليها . فقد عرفنا أن مدلول المثل فى السامية القديمة كان ينسحب على عدد من الفنون والأشكال . أما بالنسبة إلى العربية على وجه التحديد ، فإننا نشك فى أن العرب القدامى قد أطلقوا المثل على شكلين منها : أحدهما النبوءة والثانى الشعر . ومعنى هذا ، فيما نظن ، أن العبرانيين القدماء الذين استعملوا اللفظ فى هذين الشكلين فضلا عن الأشكال الأخرى ، فى نطاق تطور لغتهم الخاصة ، قد توسعوا فى استعمال اللفظ بما زاد على استعمال العربية ، حتى شمل عندهم النبوءة والشعر .

أما فيما عدا ذلك فإن العرب يتفقون مع إخوانهم فى اطلاق هذا الاصطلاح ؛ إذ أطلقوه على المثل الشعبى ، والمثل التعليمى ، والمثل القياسى ، والخرافة ، كما اقترن المثل باللغز عندهم اقترانهما عند إخوانهم .

غير أننا نلاحظ أن الخرافة واللغز يتجليان فى مراحل مختلفة فى تطور المثل بوجه عام ، يغلب عليهما الصبغة الشعبية حينا والكتابية حينا آخر . فهناك الخرافة الشعبية فى صورتها الفطرية البسيطة ، المرسلة على السجية النابعة من صميم البيئة ، وهناك الخرافة الكتابية التى دخلها التأنق وهذبتها الصنعة ، وظهرت عليها آثار التأمل البعيد . وهذا ما نجده فى اللغز ، بدأ مع طفولة الجنس البشرى وانتهى إلى صور راقية مهذبة .

وقد آثرنا أن نجعل هذه الأشكال فى بحثنا التالى فى مجموعتين ؛ الأولى تشتمل على المثل الشعبى فى مختلف صوره ، والثانية مجموعة أطلقنا عليها اسم المثل الكتابى ، وهى تشترك من حيث أن أسلوبها كتابى تظهر فيه صنعة التركيب ، وروية الكاتب ، وتأمل المفكر .

ومن الملاحظ أن المثل الشعبى القديم الذى يمثل الاتجاه العربى الخالص ، كان يرسم خطا واضحا فى الاستعمال العام فى تاريخ الأدب العربى إلى أن ضعف النفوذ العربى فى أواخر القرن الأول الهجرى .

أما مجموعة المثل الكتابى فهى تمثل خطا واضحا آخر تبدأ بواكيره فى الجاهلية ، ثم يزدهر بظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم ، وعناية المسلمين بالحكمة والتعليم الدينى والدنيوى . ويشق هذا الاتجاه طريقه فى خلال العصور .

ثم نجد خطا ثالثا فى تاريخ المثل العربى ، يبدأ حين يضعف النفوذ العربى ، وتطغى موجات أجنبية ولا سيما آرامية على العالم الإسلامى ، فتغير من أساليب الحياة والتفكير والتعبير جميعا ، ويأخذ المثل العربى القديم فى الانحلال ، ويحل محله أمثال مولدة . وذلك منذ القرن الثانى للهجرة . ويظل هـذا الاتجاه المولد فى طريقه إلى نهاية الفترة التى هى موضوع بحثنا وهى حوالى القرن الخامس الهجرى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثانى

المثل العـــربى القديم

١ ـ المراكز الثقافية فى شرق شبه الجزيرة

يمثل المثل العربى القديم فى مجموعه الاتجاه الشعبى القديم فى صوغ الأمثال وضربها . ولقد كان المثل العربى القديم أسعد حظا من نظيره البابلى والعبرانى القديم والحبشى ، إذ ظفر قدر كبير منه بالتدوين والتسجيل . وقد تضارع العبرية المتأخرة العربية فى هذه الناحية . فقد أتيح للمثل الآرامى واليهودى الشعبى أن يظفر على مسرح التاريخ المدون بفضل شراح الكتب المقدسة ووعاظ الديانات ومعلميهم .

وكذلك كان للعرب فى جاهليتهم مراكز ثقافية صدر عنها فيض زاخر من القصص والأخبار والأمثال ، وإلى هذه المراكز يرجع الفضل الأكبر فى نشر المثل الشعبى القديم . فإذا أردنا أن نعرف أهم هذه المراكز فلنتجه جهتين ؛ إحداهما : هذه الأسواق العربية التى كانت تتخذ محطات على خط دائرى يمر على مناطق ساحلية أو قريبة من الساحل . والجهة الأخرى مقرها فى العراق حيث مراكز ملوك الحيرة ومجالسهم .

وما أحوج الباحثين فى تاريخ الجاهلية العربية إلى دراسة أسواق العرب ومراكزها وألوان نشاطها ، حتى يستبينوا كثيرا من الظواهر الأدبية والاجتماعية ، كيف نشأت وكيف تطورت عندهم . (كان العرب ينزلون فى أول يوم من ربيع الأول فى دومة الجندل بقرى كلب[1] ، وهى النصف بين العراق والشام ، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء . وكان يعشرهم أكيدر دومة ، وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر ، ثم ينتقلون إلى سوق هجر ؛ وهو المشقر فى شهر ربيع الآخر ، فتقوم أسواقهم وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم ، ثم يرتحلون إلى عمان ، فتقوم سوقهم بدياردبا (وهى

---

(١) كان صاحب دومة الجندل عند ظهور الإسلام يدين بالنصرانية وكان فى طاعة الروم (البيزنطيين) تنبيه ٢١٥ .

مدينة قديمة مشهورة لها ذكر فى أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديما قصبة عمان) ، ثم بصحار (فى عمان على البحر) ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين ، ومن سوق عدن تشترى اللطائم وأنواع الطيب . . . ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تجلب آلة الخز والأدم والبرود . . . ثم يرتحلون إلى عكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون ...)[٢] . ومن المناطق التى يرتحلون إليها نطاة خيبر وهى قرية شمال المدينة وأهلها يهود وتنتهى الرحلة فى بصرى فى مشارف الشام وهى عاصمة حوران[٣] .

ومن هذه الرحلة السنوية ندرك أن العرب كانوا يبدأون أسواقهم من مركز وسط شمالى الجزيرة ، ثم يواصلون من الجهة الشرقية انتقالهم فى مراكز هذه الأسواق حتى ينتهوا إلى بصرى فى مشارف الشام . ومن الملاحظ أن مراكز النشاط الثقافى كانت تتبع هذه الأسواق . كانت المناطق التجارية مناطق للثقافة أيضا . وفيها كان يستوطن بعض الغرباء قياما بالتجارة أو طلبا للكسب عن أى طريق آخر[٤] . وإليها تنتقل عناصر عربية وغير عربية ، ويجد المعلمون والوعاظ والمبشرون مجالا للدعوة إلى تعاليمهم ، ويجد أصحاب القول مجالا للأحاديث والمساجلات والمنافرة والمفاخرة .

والأسواق العربية نماذج من الأسواق التقليدية التى كانت تنعقد فى العصور القديمة فى أماكن مختلفة ، فهى مجتمعات مختلطة لم تكن قاصرة على أعمال البيع

---

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان ١ / ٨٣ — ٨٥ (القاهرة ١٩٣٩) .

(٣) راجع حسن عون فى كتابه اللغة والنحو (الإسكندرية ١٩٥٢)ص ١٥٦ — ١٦٠ حيث يذكر أماكن أخرى للأسواق وهو يقول (اختلف العلماء فى عدد أسواق العرب فيعدها القلقشندى فى صبح الأعشى ٨ ويعدها اليعقوبي فى تاريخه والبغدادى فى خزانته ١٠ ويعدها المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة ١٧ ويعدها الألوسى فى بلوغ الأدب ١٤ ويعدها الهمذانى فى صفة جزيرة العرب ٥٠ ويعدها الأفغانى فى أسواق العرب ٢٠) .

(٤) حسن عون ١٥٨ .

والشراء ، وكانت الأسواق تتنافس فى تهيئة المغريات بأنواعها حتى يقبل عليها الناس ، ويكثر البائعون والمشترون . فخلقت الأسواق بذلك نشاطا ملحوظا ، ثقافيا واجتماعيا . كانت هذه الأسـواق ميدانا للألعاب والملاهى وقديما كان الليديون والبابليون يبيحون فى مواسم الأسواق اتصال الغرباء بنساء المدن[٥] . وفى أسواق العرب ، ولا سيما سوق دومة الجندل ، كان البغايا يقمن أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل[٦] . وكانت الأسواق فرصة للترفيه واللهو برواية القصص المضحكة والأسمار وطرائف الأخبار والاستماع إليها .

أضف إلى ذلك مراكز ملوك العرب . ولعل أشد هذه المراكز اتصالا ببحثنا هذا هو المنطقة التى كانت تقع تحت نفوذ المناذرة ملوك الحيرة . فهؤلاء قد أحدثوا فى منطقتهم نشاطا قويا ، نلحظه فى الحركة العلمية التى يحدثنا عنها المؤرخون والتى سنتحدث عنها بعد قليل .

كانت هذه المنطقة داخلة تحت النفوذ الآرامى — الفارسى بنوع خاص . ونحن نعلم أن الآراميين كانوا منتشرين قبل الإسلام ، بل قبل المسيحية ، فى منطقة الهلال الخصيب ،أعنى العراق وشماله وسوريا ولبنان وفلسطين ، وكان السكان يتكلمون لغة مشتركة هى الآرامية ، وهى — بخلاف العربية — لم يكن لها مطلقا لغة أدبية موحدة . فكل إقليم وكل دين كان له لهجته الخاصة وطريقة كتابته الخاصة[٧] .

وحسبنا أن نعرف أن الآرامية كانت يوما ما لغة رسمية وأداة للثقافة فى الامبراطورية الفارسية ؛ وأنها استولت على ماتبقى من نفوذ اللغة العبرانية فى فلسطين حتى كانت فى القرن الأول المسيحى هى اللغة الذائعة بين يهود فلسطين أنفسهم ، ولم تكن الكتابات المقدسة تقرأ أمام الملأ دون أن يصحبها شرح باللغة الآرامية

---

(٥) ERE ٨ / ٤٢٢ ب .
(٦) حسن عون ١٦١ .
(٧) غويطاين ١٧٤ .

أو تعليق يفسرها للذين يجهلون العبرانية ، وكانت هذه التعليقات والشروح نواة لأسفار الترجوم[٨] ؛ وأنها نفذت إلى بلاد العرب فاستخدمها الأنباط ، وتكلم بها قبيل الإسلام ، وفى وقت ظهوره ، فئات متفرقة فى شبه الجزيرة العربية وإن كانت آراميتهم فيما يظهر لم تكن صريحة خالصة ؛ فمن ذلك يهود المدينة وخيبر كانت لهم لغة خاصة هى خليط من العربية والآرامية تكثر فيها التعابير السريانية[٩] . ثم نجد آثار الآرامية تظهر فى ثقافة عبيد بن شرية ووهب بن منبه بعد الإسلام ، وكانت الثقافة الآرامية (الإسرائيليات) من مصادر العلم المفضلة ومنبعاً هاما فى تفسير القرآن منذ القرن الأول الهجرى (١٠) .

وهكذا استطاعت الآرامية أن تبسط سلطانها على مناطق كثيرة ، فأثرت فى لغات عدة ، وتأثرت بها ، كالفارسية والعبرية والرومانية واليونانية وغيرها ، ولم يكد يظهر الإسلام حتى كانت الآرامية تحمل أكبر نصيب من تراث الآداب السامية .

فإذا نظرنا إلى حضارة العراق وملوك الحيرة ، فينبغى ألا نغفل هذا التراث القيم الذى كانت تحمله الآرامية فى هذه البقاع ولا سيما إذا عرفنا أن ملك المناذرة كان يقع فى منطقة زاخرة بهذا التراث . ولعل من أشهر مراكز هذه الثقافة فى تلك المنطقة مدينة الحيرة ، فهى عاصمة المناذرة ، كان قد سكنتها قبائل عربية منذ القرن الثانى الميلادى . ويظهر من رواية منسوبة إلى ابن الكلبى أن العرب الذين نزلوا بالحيرة والأنبار هم قوم يمانون[١١] . وكان رواة الحيرة ذوى عناية بالغة بأخبار حمير وكهلان[١٢] . وكانت المؤثرات الفارسية فى الحيرة والأنبار قوية . وأخذت المسيحية

---

(٨) JNES ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ٨٩ .

(٩) جبور ص٤٣ (نظرات فى فلسفة العرب . بيروت ١٩٤٥) .

(١٠) مذاهب التفسير الإسلامى لاجنتس جولدتسيهر . ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٨٥ — ٨٨ .

(١١) جواد ٢/٢٨٢ .

(١٢) تنبيه ٧٢ .

تشق طريقها إلى بلاط الحيرة حول نهاية القرن السادس الميلادى . وعرفت الحيرة عند مؤرخى العرب بأنها معقل من معاقل الزندقة وقالوا إنها علمت بعض العرب الزندقة فى الجاهلية[١٣] . واتجه إليها النسابون والرواة الإخباريون من العرب . ويذكر الطبرى أن أهل الحيرة كانوا يعنون بتدوين أخبارهم وأنسابهم وأنساب ملوكهم وأعمار كل ملك منهم وكانوا يضعون ذلك فى بِيَع الحيرة[١٤] . وورد أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج ، وهى الكراريس ، فكتبت له ، ثم دفنها فى قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبى عُبيد قيل له أن تحت القصر كنزا ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[١٥] . « وذكروا أنه كان بين سكان الحيرة أناس يحسنون القراءة والكتابة واللغات الأعجمية كالفارسية والسريانية واليونانية . وقد ظهر من بينهم من ألف مباحث فى الكتاب المقدس وفى الموضوعات اللاهوتية والطبية واللغوية والتاريخية ، وكان بينهم من له وقوف على كتب التاريخ وأخبار الملوك . ومنهم تعلم النضر بن الحارث أخبار العجم ، فلما رجع إلى الحجاز قام يحدثهم عن رستم وعن اسفنديار وملوك فارس . وقد نقل غيره ممن اتصلوا بالحيرة — وكانوا يقصدون ملوك المناذرة أو الغساسنة — مثل هذه الأخبار إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة وهذا مما ساعد على حفظ تواريخ عرب الشمال[١٦] » .

وليس من شك فى أن ملوك غسان على حدود الشام ، كانوا كذلك للعرب مصدر نشاط ثقافى واجتماعى . ولكن هذا النشاط يبدو من خلال ما دونه المؤرخون قليلا ضئيلا إذا قورن بأثر ملوك الحيرة على الأدب العربى والحياة العربية . وليس من شك فى أن أقوى مظاهر النشاط الأدبى فى الجاهلية ، كان فى منطقة العراق وما يليها من مراكز الأسواق الشرقية والجنوبية الشرقية ، وأن أقلها كان موزعا

---

(١٣) لطائف المعارف للثعالبى (ط . بريل ١٨٦٧) ص ٦٤ .
(١٤) طبرى ٢/٣٧ . مطبعة الحسينية .
(١٥) جواد ١/٣٩ .
(١٦) نفسه ١/٤٠ .

على سائر المراكز من صنعاء جنوبا إلى بصرى فى مشارف الشام . ولعل من أسباب ذلك عناية المناذرة ، ويساندهم فى ذلك الفرس والآراميون واليونان والبيزنطيون ، بإنعاش هذه المنطقة من الجانبين الثقافى والاجتماعى وتزويد العرب بشتى وسائل التشجيع المادى والأدبى .

فالشعر العربى الجاهلى كان أقوى وأغزر فى الشرق منه فى الغرب ، وحسبنا دليلا أن إحصاء الشعراء ومساكنهم فى الجاهلية يدل على أن معظمهم كانوا يقيمون فى المنطقة الشرقية التى تمتد من أطراف نجد غربا إلى عمان والبحرين ومنطقة الفرات شرقا[١٧] . فإذا تتبعنا مساكن شعراء المعلقات ، وجدنا أن مساكنهم هناك فيما عدا النابغة الذبيانى ، فكان موطنه الحجاز ، ومع ذلك كان على صلة بسكان المنطقة الشرقية ، ورحل إلى ملوك الحيرة كما رحل إلى ملوك غسان . وأصحاب « المجمهرات » من الشعراء وهم حسب إحصاء جورجى زيدان ستة[١٨] ، كانت مساكنهم فى الشرق ما عدا أمية بن أبى الصلت فكان من الطائف وكان على صلة بأهل الكتاب .

كذلك الخطابة فى الجاهلية كانت تنبع تقريبا مواطن الشعر وكان « الغالب فى الشعراء أن يخطبوا ، والخطباء أن ينظموا فيكون الواحد شاعرا وخطيبا ، فإذا غلب عليه الشعر سموه شاعرا أو الخطابة سموه خطيبا ، والقبائل التى كثر خطباؤها هى غالبا التى كثر شعراؤها[١٩] .

كذلك العناية بجمع الأمثال العربية وتدوينها ، فقد كان العرب المشارقة بعد الإسلام هم السابقون فى هذا المضمار ، وكانت حركة التدوين فى العراق بعد الإسلام مباشرة امتدادا لآثار الحركة الجاهلية السابقة ، فيحدثنا الرواة أن صحار بن العياش — أو بن عياش ، أحد عبد القيس وكان فى أيام معاوية ، وضع كتابا فى الأمثال[٢٠] .

---

(١٧) زيدان ١/٧٥ — ٧٩ .
(١٨) نفسه ١/٧٥ .
(١٩) نفسه ١/١٦٨ .
(٢٠) فهرست ٩٠ (ليبسك) يصحح بن العباس بما ذكرنا (راجع بيان ١/٩٦ ط هارون) ولفظ عياش متداول فى أسماء عبد القيس .

وقد وصف معاوية صحارا هذا فى حديث معه بأنه أحمر أزرق ، أى أبيض الوجه أزرق العينين . وكان العرب يسمون العجمَ (الحمراء) لبياضهم ، ويسمون الموالى الحمراء . وقبيلة صحار ، وهى عبد القيس ، كانت قد تفرقت فى عدة جهات قبل الإسلام ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين[٢١] . وفى سنة ١٢ هـ غزوا العراق وخضع لهم (حمراء سياه) فى البصرة والديلم فى الكوفة وعقدوا معهم حلفا. وفى أول تقسيم لمعسكر الكوفة — وكان سبعة أقسام — استقر الحمراء فى نفس السُّبْع الذى وضع فيه بنو عبد القيس[٢٢] . وكان من بنى عبد القيس فى الإسلام زعماء ذوو صلة بالعراق وفارس[٢٣] . ويبدو أن عبد القيس حين انتقلوا قديما من باديتهم إلى المراكز الثقافية فى العراق وما حولها، برزت مواهبهم ، فعرف عدد منهم بالشعر والخطابة وفصاحة اللسان ولم يكونوا كذلك فى البادية ؛ وهذا ما أثار عجب الجاحظ حين وصفهم بقوله : (ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية وفى معدن الفصاحة وهذا عجب)[٢٤] .

وورد كذلك أن عُبيد بن شَرْيَة الجرهمى + ٧٠ هـ ألف كتابا فى الأمثال ، ويقول ابن النديم إنه رأى الكتاب وهو نحو خمسين ورقة[٢٥] . وعبيد هذا كان من جملة الرواة والنسابين والعلماء ، ويروى الجاحظ أنه من أهل الجاهلية[٢٦] . ويقول ابن النديم إنه أدرك النبى ولم يسمع منه ، وأنه وفد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس فى البلاد وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه إلى ما أمر[٢٧] . ويفهم من رواية أبى حاتم السجستانى أنه نشأ هو وأسرته بالشام[٢٨] . أما ياقوت ففى رواية له أنه لم يفد على معاوية ، ولكن معاوية لقيه بالحيرة لما توجه معاوية إلى العراق[٢٩] .

---

(٢١) بيان ١/ ٩٦ — ٩٧ .
(٢٢) ماسينيون ٢٧ — ٢٨ .
(٢٣) معارف ١٤٨ .
(٢٤) بيان ١/٩٧ .
(٢٥) فهرست ٨٩ (ليبسك).
(٢٦) بيان ١/٣٦١ (هارون) .
(٢٧) فهرست ٨٩ (ليبسك).
(٢٨) سجستانى ٧ — ٨ .
(٢٩) ياقوت ١٢/١٩٠ (معجم الأدباء . طبعة رفاعى . القاهرة ١٩٣٦ — ١٩٤٨) .

ومهما يكن من أمر فإن عَبيدا كما يبدو من الكتاب المنسوب إليه — وهو « أخبار عَبيد بن شَرية الجرهمىّ فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال ، والحمد لله على كل حال »[٢٨] — من المدرسة (الآرامية — اليمنية) التى ينتمى إليها ، وهب بن منبه + ١١٠ هـ . فى هذا الكتاب نزعة أخبارية تكثر من ذكر الغرائب وتمزج بين التاريخ والخيال ، وهذا من سِمات الطريقة السريانية فى كتابة التاريخ[٢٩] . وهو يتحيز للغة السريانية ويعدها أقدم اللغات إذ كانت لسان آدم ونوح وإدريس[٣٠] . وهذا يشبه كلام كتاب السريان عن لغتهم[٣١] . ويجعل بابل مجتمع البشر من بدء الخليقة ويمدحها بقوله : (هى سرة الأرض فى فضلها ، وأراد الله ذلك بها)[٣٢] . أضف إلى ذلك أن أسلوب الحِوار والمراجعة الذى اتخذه ابن شَرِيّة فى الكتاب يذكرنا بأسلوب السريان فى توضيح وجهات نظر المتناظرين والمتناقشين[٣٣] . ثم إن عددا من أسماء الأعلام المذكورة فى الكتاب يؤكد تأثيرا آراميا شرقيا[٣٤] .

فإذا صحت نسبة الكتاب إلى عبيد هذا ، فقد ثبت أنه قد تأثر فى كتابته بالآرامية الشرقية (السريانية) التى كان موطنها الثابت فى العراق ، وقد رأينا أن العصبية اليمنية فى العراق كانت قوية ظاهرة يحدثنا عنها المؤرخون . وهذا ما يجعلنى أميل إلى رواية ياقوت القائلة بأنه أقام بالعراق ، ولا مانع مطلقا من أنه كان ينتقل بين العراق والشام .

وكنا نود أن يحفظ التاريخ كتاب الأمثال لعبيد بن شرية ، ولكنه ضاع

---

(٢٨) فصل من فصول كتاب التيجان المطبوع فى حيدراباد بالهند ، وهو رواية ابن هشام + ٢١٨ هـ عن وهب بن منبه + ١١٠ هـ . ط ١٣٤٧ هـ (من ص ٣١١ — ٣٢٥) .

(٢٩) مراد وبكرى ١٧٣ .

(٣٠) عبيد ٣١٦ .

(٣١) مراد وبكرى ١٧٤ .

(٣٢) عبيد ٣١٦ .

(٣٣) مراد وبكرى ١٧٣ .

(٣٤) عبيد ٣١٢ ، ٣١٤ .

كما ضاع كتاب صُحار العبدىّ . و بذلك عَبَر القرن الأول الهجرى ولم يصل إلينا منه شىء من كتب الأمثال[٣٥] .

وفى القرن الثانى للهجرة استمرت الحركة الثقافية العراقية القديمة تدفع العرب المشارقة إلى الكتابة والتأليف فى الأمثال ، فرأينا الكوفة والبصرة تحملان لواء التأليف فى هذا الموضوع . فقد أخذت الكوفة سُنّة الحيرة منذ بدء إنشائها سنة ١٧ هـ ، فسارت على منوالها القديم ، وازدهرت وشيكا ، على حين تراجعت الحيرة إلى الوراء . وكما كان العنصر اليمنى هو الغالب على الحيرة ، كان كذلك هو الغالب على الكوفة[٣٦] . وسرت إلى الكوفة عَدْوى الحياة اللاهية التى خلفتها حضارة الفرس والآراميين فى الحيرة والمدائن[٣٧] ، فأصبحت ملاهى الكوفة تملأ أرجاءها[٣٨] . و بهذا كله تميزت الكوفة عن البصرة ، فقد كانت البصرة فى أول أمرها تضم عددا قليلا من العرب ، وساعدها مركزها الجغرافى على أن كانت محطا تجاريا هاما فصارت مجالا لحياة اقتصادية نشيطة[٣٩] ، أضف إلى ذلك أن الكوفيين فى اتجاههم العلمى كانوا أكثر رواية ، وأقل تأثرا بالتفكير المنطقى ، وأعظم حفظا لشواهد اللغة والأخبار[٤٠] .

ومع ذلك أسهم رواة المدينتين فى القرن الثانى فى جمع الأمثال وتدوينها و إن

---

(٣٥) ينسب ياقوت إلى علاقة بن كريم (أو كرسم) الكلابى كتابا فى الأمثال (١٢ / ١٩٠ دار المأمون) . وعلاقة هذا كان راوية لعبيد بن شرية . وبالمضاهاة بين ماذكره ياقوت وما أورده من قبله ابن النديم نجد أن الأول نقل عن الثانى ولكنه فهم من النص — خطأ — أن علاقة ألف كتاباً فى الأمثال ، ولكن الكتاب لعبيد وليس لعلاقة . وقد جارى بعض المحدثين ياقوتا فى هذا الخطأ (فجر الإسلام ٦١ . الطبعة الخامسة) .

(٣٦) بلاذرى ٢٨٦ .

(٣٧) راجع المدائن فى ماسينيون ٣ — ٤ .

(٣٨) راجع عن أديار الكوفة وما حولها : الديارات للشابشتى ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦

(٣٩) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى للدكتور صالح العلى (بغداد ١٩٥٣) ص ٦ .

(٤٠) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى تعليق ج فايل Weil (برين ١٩١٣) ص ٤٠ هامش ، ٤٥ هامش ، ٢٠٥ — ٢١٠ .

كان نصيب الكوفة فى ذلك أعظم وأزخر : فقامت المدرسة الكوفية الكلبية وعلى رأسها شَرْقيّ بن القُطَامِيّ وكان صاحب سمر[٤١] ، ولم ينج من اتهامه بالكذب والوضع[٤٢] : ويعد هشام بن الكلبى + ٢٠٦ من تلامذة شرقى هذا ، وعوانة الكلبى + ١٤٧ أو ١٥٨ . وكلهم عُرِفَتْ فيهم النزعة السَّمَرية ، واتهموا بالكذب[٤٣] . وكل هؤلاء من قبيلة كلب وسكنوا الكوفة وكانوا مرجع كثير من العلماء فى زمانهم فى رواية الأمثال وشرحها . ولكن يبدو أن ما اتهم عليه ابن الكلبى لم يكن كله صحيحاً ، فإن البحوث العلمية التى قام بها المستشرقون قد دلتهم على أن الحق كان فى جانبه فى كثير من المواضع التى اتهموه عليها[٤٤] .

وقامت المدرسة الكوفية الضبّيّة وعلى رأسها المفضل الضبى + ١٧٨ وهو ينتمى إلى قبيلة ضبة؛ إحدى قبائل المنطقة الشرقية . ألف كتابا فى أمثال العرب . وقد أفلت هذا الكتاب من عبث الزمن ، فوصل إلينا . ولعله أقدم كتاب فى أمثال العرب يتداوله الناس اليوم . والكتاب من رواية ربيب المفضل — أى ابن زوجته — محمد بن زياد الأعرابى الكوفى + ٢٣١ هـ . ويروى أن ابن الأعرابى هذا قد ألف كتابا فى الأمثال[٤٥] ، ولكننا لا نعرف عنه شيئا . وإلى هذه المدرسة ينتمى أيضاً أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم وكان من تلامذة ابن الأعرابى . وألف كتابا عنوانه (الفاخر فى لحن العامة) وهو مطبوع اليوم ، ويشتمل على قدر كبير من الأمثال : ويبدو أن المدرسة الضبية كانت فى نظر العلماء أوثق علما وأكثر دقة من المدرسة الكلبية.

فإذا التفتنا إلى البصرة ، فى القرن الثانى ، وجدنا أن عالماً ينتسب بالولاء إلى قبيلة ضبة نفسها ، وهو يونس بن حبيب + ١٨٢ يضع كتابا فى الأمثال[٤٦] ، ولكننا لا نعرف عنه شيئا .

---

(٤١) نزهة ٢٣ — ٢٤ .
(٤٢) سجستانى ٢٨ ، فهرست ٩٠ (ليبسك) ، زبيدى ٢١٠.
(٤٣) فهرست ٩١ (ليبسك) ، لسان الميزان ٣٨٦ .
(٤٤) جواد ١/ ٤٧ — ٤٨ .
(٤٥) بغية ٤٢ — ٤٣ (يسميه تغيير الأمثال) .
(٤٦) كشف الظنون ١/١٦٧ (ط . الآستانة) .

٢ – المثل الشرقى (١)

قلنا أن أمثال العرب للمفضل الضبى هو أقدم ما وصل إلينا من كتب الأمثال . ولاشك أنه ذو قيمة محققه ، لمن يريدون أن يبحثوا فى المثل العربى القديم . فبالرغم من أن مصنفه من أعيان القرن الثانى للهجرة ، قلما يعثر الباحث فيه على قصص أو أمثال تشير إلى واقعة إسلامية أو شخصية إسلامية، وأن قصة الحطيئة[١] — وهو مخضرم — حين حضرته الوفاة ، تعد من تلك الأمثلة القليلة . ثم إنه قد ورد فى الكتاب شعر إسلامى أورده المصنف فى بعض الأحيان شاهدا على ما جاء من القصص وأمثالها .

فالكتاب يعالج إلى حد ما أمثالا جاهلية ، أو بعبارة أدق ، أمثالا تصور فى صياغتها وموضوعها نزعة جاهلية .

يشتمل الكتاب على حوالى مائة وخمسين مثلا موجزا تندرج الكثرة الغالبة منها فى قصص . ويبلغ عدد هذه القصص قرابة المائة . وقد تتضمن القصة مثلا واحدا ، وقد تحتوى أكثر من مثل . فإذا عرض المثل فى سياق القصة وقف الراوى عنده ، وأشار إليه بقوله : « فذهب مثلا » أو « فأرسله مثلا » أو « فصار مثلا » .

وورد بعض هذه القصص ليس فى سياقها مثل ما ، كخرافة (الحية والفأس)[٢] ، كأن المصنف يعدها برمتها مثلا . وهذا يعود بنا إلى ذلك الإطلاق السامى الذى يسمى الخرافة مثلا . ولكن جامعى الأمثال من المتأخرين[٣] ، أخذوا من هذه الخرافة تلك العبارة : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » فاتخذوها مثل القصة ، وجعلوها عنواناً لها ، مع أن الضبى لم يشر إلى شىء من ذلك ، وإنما وردت هذه العبارة فى رواية الضبى كسائر عبارات القصة ، دون أن يشير إلى أنها مثل بمفردها .

وهذا قد يفسر لنا بعض الحالات التى ينشأ فيها المثل الموجز من القصة ، وذلك

---

(١) ضبى ٦٢ .
(٢) نفسه ٨٤ — ٨٥ .
(٣) ميدانى ٢/٩١ (١٣٥٢) .

حين تكون القصة هى الأصل ، والمثل هو الفرع . ولكن الوضع ليس كذلك دائما فى نشأة الأمثال التى تتضمن فى قصص . فلا شك أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال كانت هى الأصل ، ثم لُفِّقَت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها . كثير من الأمثال الموجزة التى يتمثل بها الناس فى مناسباتهم المختلفة ، كانت تنتهى إلى الأجيال المتأخرة مقطوعة عن أصولها . وهذا أمر لا نزال نلاحظه فى أمثالنا الدارجة اليوم ، ينطق بها لساننا فى المناسبات ، ونفهم مغزاها بالجملة ، فإذا دققنا عند تفصيلاتها فقد نعجز عن فهم بعض ألفاظها وتراكيبها وأصولها الأولى . فالأمر فيما نظن كان قريبا من هذا فى الشعوب العربية القديمة . كان الناس ينطقون بكثير من الأمثال بصورتها الموجزة يفهمونها جملة لا تفصيلا ، وتجرى على ألسنتهم سهلة طيعة سريعة . ومع ذلك كان هناك فئة من الرواة يتعقبون أصول هذه الأمثال ، يرون أن ذلك من كمال صناعتهم ، ومن موجبات حرفتهم . وفى هذا المجال كان « الاجتهاد » فى تفسير الأمثال يلعب دورا كبيرا فى أقوال الرواة ، فإذا نظرنا إلى القصص الواردة فى أمثال الضبى ، لا يسعنا إلا أن نسأل فى شىء من الدهش : كيف وصلت هذه الأمثال إلينا مقترنة هكذا بقصصها وموارداها ، كأن الناس كانوا لا ينطقون الأمثال إلا ومعها هذه القصص . والرأى أن كثيرا من هذه القصص إنما جاء بعد تعرف الأمثال ، وذلك حين بحث العلماء والرواة فى أصول الأمثال ومناسباتها . قد تكون موضوعة فى عهود جاهلية ، وقد تكون حادثة فى الإسلام ، ولكننا على كل حال لا نجزم بأن هذه القصص صحيحة كلها . ومع ذلك فإنه مما يخفف من تشكك الباحث فى أمثال الضبى ، أن الضبى نفسه قد حاز لدى معاصريه من العلماء سمعة طيبة ، حتى إن أحد ثقات البصرة وهو أبو زيد الأنصارى + ٢١٥ هـ كان يأخذ عنه لثقته فيه ، بالرغم مما كان بين البصرة والكوفة من منافسة علمية شديدة[٤] . فهذا قد يعيننا على افتراض أن الضبى نفسه — على الأقل — لم يُسْهم فى وضع تلك القصص التى رواها فى كتابه .

(٤) بغية ٣٩٦ ، نزهة ٢٨ ، ٥٥ — ٥٦ . على أنه قد أخذ على الضبى قلة تمكنه من فهم ما يرويه وضبطه (زبيدى ٢١٠) . وهذا راجع فى الغالب إلى أنه لم يكن عالما فى اللغة ، ولكنه كان راويا أخباريا .

أمامنا مائة قصة تقريباً فى كتاب الضبى ، تشير فى معظمها إلى وقائع وأعلام مستمدة من موارد شرقية ، من العراق والبحرين وما يليهما إلى حضرموت جنوبا .

وفى هذا الفصل نكتفى بالوقوف عند قصص معدودات ، ترجع فى اعتقادنا إلى الجاهلية البعيدة ، تلك الفترة الطويلة التى تنتهى فى حدود ٥٠٠ م . وهو زمن تقريبى تبدأ عنده الجاهلية القريبة من الإسلام .

نقف عند قصة : ابنة الزَّبّاء ، وقصة : الحية والفأس ، وقصص لقمان ، لنعرف موضوعاتها ، ومصادرها ، ومدى قيمتها التاريخية .

قصة ابنة الزباء :

تقع تَدْمُر Palmyra فى أواسط صحراء سُورية ، وقديما كان يسكنها شعب عربى ، اصطنعوا اللغة الآرامية كإخوانهم الأنباط ، واتخذوا اليونانية لغة ثانوية ، وأفادوا من لغة الرومان ، ألفاظاً ومصطلحات فى شئون الإدارة(٥) .

وتتلخص قصتنا هذه — كما وصفها الدارسون المحدثون — فى أن أَذِينة كان ملكا على تدمر ، وكانت زوجته تسمى عند اليونان زنوبيا(٦) . واستطاع أذينة بمساعدة الرومان أن يحرر الجزيرة من ملك الفرس ، ويقتحم معقله ، فى عاصمته طيسفون ، حتى أخذ شهرة واسعة ولقب بين قومه بملك الملوك ، ولكنه لم يلبث — لأسباب غامضة — أن قتل غيلة ٢٦٦ — ٢٦٧(٧) . ثم تولى بعده ابنه (وهب اللات) ويسميه اليونان Athenodòrus ، وكان قاصرا ، فصارت أمه زنوبيا وصية عليه ، وصار بيدها زمام الأمر(٨) .

وقد عثر العلماء على نقشين هامين باللغة التدمرية (الآرامية) كلاهما منقوش

---

(٥) ERE ٩/١٥٩٢ .

(٦) وهى زينب فى لغة العرب ومعناها باليونانية عائشة تقريبا (أسماء الأعلام عند بنى سام - بحث للأستاذ ليتمان فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — ديسمبر ١٩٤٨ . ص ٤٠) .

(٧) جواد ٣/٩٦ .

(٨) EBr ٢٨/٩٧٢ .

على تمثال ، وكلاهما دوّن فى زمن واحد (شهر آب من سنة ٥٨٢ من التاريخ السلوقى) وهو يوافق شهر أغسطس ٢٧١ م .

صنع التمثالين القائدان سبتميوس زَبْدا ، قائد الخيالة الأكبر (זבדא רב חילא רבא) ، زبّاى قائد خيالة تدمر (זבי רב חילא די תדמור) . والتمثال الأول مقدم من هذين القائدين إلى سيدهما سبتميوس أدينت (أذينة) « ملك الملوك مصلح المدينة كلها » . والتمثال الثانى مقدم منهما إلى سيدتهما (سبتميا بنت زباى الفاضلة والصديقة الملكة) ספתמיא בת זבי (נהרתא וזדקתא מצבתא)[٩] .

ومن هذين الأثرين ، ندرك أن لفظ زباى من الأسماء الشائعة لدى أهل تدمر ؛ فقائد خيالة تدمر اسمه زباى ، والملكة يطلق عليها (بت زباى) أى بنت زباى . وزباى هنا هو اسم والد الملكة ، وهو بطبيعة الحال شخص آخر غير زباى القائد ، وبت زباى هذه هى زنوبيا الملكة أو الوصية على تدمر .

ونأتى بعد إلى القصة العربية ، فنجد أن الخيال قد غير من صورتها حتى كادت تكون أسطورة . ومع ذلك فرواية الضبى[١٠] بالقياس إلى الروايات العربية الأخرى ، أقل تعرضا للعبث والتغيير . ومن المؤسف ألا يلتفت بعض الباحثين المحدثين إلا إلى روايات أخرى لهذه القصة ، وأن يهملوا رواية الضبى مع قدمها . ولو أنهم فعلوا ذلك لأيقنوا أن رواية الضبى بريئة من كثير من الخلط الذى وقعت فيه تلك الروايات . فرواية الضبى تسمى الملكة بنت الزباء أو ابنة الزباء فى حين تحذف هذه الروايات لفظ بنت أو ابنة ، وتسمى الملكة (الزباء) ، ورواية الضبى

---

(٩) جواد ٣/٩٨ ، ٩٩ ولفنسون ١٣١ ، ١٣٣ A Text - Book of North - Semitic Inscriptions, G. A. Cooke. Oxford 1903, p. 290, 291.

(١٠) ضبى ٦٤ — ٦٧ .

مطابقة للاسم الذى ورد فى النقوش التدمرية . وقد يكون هـذا دليلا على أن رواية الضبى فى بعض أجزائها — على الأقل — مأخوذة من مصادر آرامية .

فلما أطلقت روايات أخرى على الملـكة لفظ الزباء بحذف الصدر ، قام بعض الباحثين المحدثين ، واتهموا الروايات العربية بأنها خلطت بين اسم زنوبيا واسم قائدها زبای ، وأن اسم القائد ، لشهرته بين القبائل ، قد أصبح يمثل دور البطل الأول فى الرواية فى شخص الملـكة .(١١) ولـكن الواقع أن رواية الضبى مطابقة للفظ الآرامى ، وقد ورد فى شعر المخبَّل السعدىّ اسمها كذلك (ابنة الزبا)(١٢) .

وأخذ الباحثون على الروايات العربية كذلك أنها انحرفت عن الوقائع الصحيحة فى ثلاثة مزاعم أخرى على الأقل :

أحدها : أنها جعلت للزباء أختا اسمها زنوبيا أو زبيبة ، وأن الأولى أسست للثانية قصرا حصينا على شاطىء الفرات الغربى .

والثانى : أن الزباء صنعت نفقا يصل قصرها بقصر أختها على ضفتى نهر الفرات .

والثالث : أن الزباء قتلت جذيمة ملك الحيرة وهو فى ضيافتها ، والذى قتل حقيقة هو أذينة زوجها ، ولم يثبت أن لها ضلعا فى قتله .

ورواية الضبى بريئة من الزعمين الأولين . أما الزعم الأخير فهو أساس مشترك فى جميع الروايات العربية . ويبدو أن النزعة القومية التى تحدثنا عنها فيما سبق كانت هى الرائدة فى توجيه هذه القصة إلى هذه الوجهة التى انحرفت بها عن الخبر الصحيح .

---

(١١) ظن هذا الدكتور جواد على ١/٤٢ — ٤٣ .

(١٢) طلب ابنة الزبا وقد جعلت له دورا ومسربة لهـا أنفاق (ضبى ٦١)
يقول أبو عبيد البكرى (والزبى على وزن فعلى مقصور وقد رد العلماء فيه المد لأنه تأنيث زبان الاسم المستعمل — فأما زباء ممدودا فإنما هو تأنيث أزب ولم يستعمل اسما وإنما هو صفة للـكثير شعر البدن ، وإذا وصفت الداهية بالشدة قيل داهية زباء ، والشاهد لما قلناه قول عدى بن زيد :
فأضحت من مدائنها كأن لم تكن زبي لحامله جنينا (شرح البكرى ١٣٤)

فقد كانت هنالك صلات تاريخية بين الحيرة وتدمر[١٣]، ولكنها لم تكن ودية فى كثير من الأحيان ؛ فقد انحازت الحيرة بحكم وضعها السياسى إلى المعسكر الشرقى : معسكر الفرس ، وانحازت تدمر إلى المعسكر الغربىّ : معسكر الرومان . ولم تكن اللغة الآرامية المشتركة بين المدينتين مما يخفف من حدة المنافسة بينهما . ولما كانت الرواية العربية قد صدرت عن المعسكر الشرقى ، ظهرت فيها العصبية الشرقية التى تشيد بانتصار أهل الحيرة على أهل تدمر . زعمت القصة أن ملكة تدمر قد غدرت بملك الحيرة ، فلم يكن بد من أن ينتقم أهل الحيرة لكرامتهم شر انتقام ، فتنتهى الرواية بانتصار الحيريين على التدمريين . أما من أين أتى الأخباريون بفكرة قتل جذيمة على يد الملكة ، وهى ليست فى الأخبار التى ثبتت صحتها ، فهذا أمر قد يصعب تفسيره ، وربما خلطت أصول الرواية بين لفظى أذينة وجذيمة لتشابههما فى الجرس ، ولأن اللفظ الثانى أكثر ألفة لدى العرب المشارقة من اللفظ الأول ، وعلى أساس هذا الخلط نسج الرواة الأقدمون هذه القصة .

ونعود إلى رواية الضبى ، فنرى أنها — حتى فى هذا الخلط — ربما لم تكن المسئولة ، فقد يكون الضبى قد أخذها من مصادر آرامية شرقية مباشرة أو بطريق غير مباشر .

وقد توسعت المصنفات المتأخرة فى أمثال هذه القصة كذلك. فرواية الضبى مشتملة على ثلاثة عشر مثلا ، ثم نجدها فى الميدانى مشتملة على أكثر من عشرين مثلا[١٤] . وفى موضع آخر نجد أمثالا أخرى تنسب إلى القصة[١٥] .

---

(١٣) جواد ٣/١٠٢ .

(١٤) ميدانى ١/٢٤٣ — ٢٤٧ (١٣٥٢) .

(١٥) انظر المثل عسى الغوير أبؤسا (ميدانى ١/٤٧٧ — ١٣٥٢). وانظر هذا المثل فى الفصل الرابع من الباب الثانى من هذا الكتاب .

خرافة الحية والفأس :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبا منهما واد فيه حية قد حمته من كل أحد . فقال أحدهما للآخر : يافلان لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِىء فرعيت فيه إبلى وأصلحتها . فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته . قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادى ، فرعى إبله به زمانا . ثم إن الحية لدغته فقتلته . فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها ، أولأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادى فطلب الحية ليقتلها . فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت دينارا فى كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : فإنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضيرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ؛ فكثر ماله ونبتت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه . فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ، فعمد إلى فأس ، فأحدها ، ثم قعد لها ، فمرت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه ، فلما رأت مافعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، فلما رأى ذلك وتخوف شرها ندم . فقال لها: هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه . فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأنت فاجر لاتبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهورا من أمثال العرب[١٦]) .

وهذه هى الخرافة الوحيدة من نوعها من جملة ما أورده الضبى ، والمغزى الوعظى ظاهر فيها ، فهى من قصص الحيوان التى شاعت فى الأوساط التعليمية ، وندرة هذا النوع فيما رواه الضبى قد تدلنا على أنه لم يكن مألوفا كثيرا لدى الأمثال الشعبية الشرقية . ويذكر الباحثون أن فى الخرافات الهندية ، فى المهابهاراتا وبانجه تنترا ، وردت خرافة الزارع والحية ، ثم انتقلت إلى اليونانية واللاتينية ، فى صور مختلفة فى

(١٦) ضبى ٨٤ — ٨٥ .

قصص إيسوب Aesop وبابرياس Babrias وفيدروس Phaedrus [١٧] . ونحن نجدها فى خرافات إيسوب ترد فى صورتين مختلفتين ، إحداهما قريبة جدا من القصة العربية[١٨] .

وهذا يدعونا إلى ترجيح أن هذه الخرافة مجلوبة إلى العربية . وهنا نود أن نذكر أن التعبير العربى القديم الذى تنطق فى أسلوبه الشعبية والبداوة ، لا يكون دليلا على أصالة موضوع المثل الشعبية ، فها هنا أسلوب عربى قويم ، فيه الحوار الذى يرسله الراوى على السجية ، وفيه الروح البدوىّ البسيط ، ومع ذلك فليس هذا دليلا كافيا على أن المثل شعبى أصيل فى موضوعه واتجاهه . فالذين نقلوا هذه الأمثال وأشباهها إلى العربية فى الزمن الأول ، إنما كانوا يحذقون العربية حذقا ، ويجيدون مذاهب العرب فى التعبير ، وطرائق الأعراب فى صياغة الكلام .

فالمثل عندى ليس عربيا أصيلا وإن ظهرت على هيئته مسحة شعبية أو بدوية . ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق أى طريق سلكه المثل حتى وصل إلى العربية ، فقد يكون تسرب إليها من طريق فارس ، وقد يكون حمله اليونان إلى الشواطىء الشرقية ، فانتقل إلى العرب . وقد يكون انتقل من اليونان إلى الآراميين وهؤلاء جاءوا به إلى العرب . ومن المعروف أن خرافات إيسوب انتقلت إلى الشرق قبل الإسلام ، وتدارسها الآراميون اليهود فى كتبهم ومدارسهم[١٩] .

لقمان الجاهلىّ وقصصه :

لعله أشهر حكيم من حكماء الأمثال عرفه العرب قديما . وتاريخ هذه الشخصية يساير إلى حد كبير تطور المثل العربى فى مراحله الثلاث : المرحلة الجاهلية ، فالمرحلة الكتابية ، فمرحلة المولَّد . وآثار لقمان فى كل مرحلة من هذه المراحل تتميز عن

---

(١٧) ERE ٥/٦٧٦ ب ، ٦٧٧ أ

(١٨) راجع خرافات إيسوب ، ترجمة مصطفى السقا وسعيد جودة السحار (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٧ (الزارع والحية) ، ص ٦٩ (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) .

(١٩) JE ١/١٢٢١ ، ٥/١٣٢٤ .

الأخرى فى وضوح وجلاء ، الأمر الذى حدا بالمفسرين إلى اعتبار لقمان الجاهلى غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن[٢٠] ، وجعل بعض الفرنجة يعدون لقمان علما على شخصيتين أو ثلاثة[٢١] . وقد رأى برنارد هلر B. Heller فى مقالته القيمة فى دائرة المعارف الإسلامية ، أن قصة لقمان مرت بثلاث خطوات رئيسية ، أولاها لقمان فى الجاهلية ، يليها لقمان القرآنىّ ؛ وتنتهى بلقمان صانع الخرافة ، وهو الذى ظهر بعد عصر القرآن[٢٢] .

وفى هذا الفصل نبحث فى شخصية لقمان الجاهلىّ وآثاره ، مرجئين الحديث عن لقمان الكتابىّ ، ولقمان المولّد ، إلى موضع كل منهما فى التقسيم الذى رسمناه للبحث .

اختلف النسابون فى نسب لقمان ، فقيل هو لقمان بن عاد ، وابنه لقيم ، وابنته صُحْر . وورد هذا النسب فى شعر جاهلى[٢٣] . وفى رواية كتاب التيجان المنسوب إلى وهب ابن منبه + ١١٠ هـ[٢٤] ، وفى أمثال الضبى[٢٥] ، وفى ما رواه الجاحظ[٢٦] ، وفى المعمرين للسجستانى[٢٧] . ولكننا لم نلبث أن وجدنا ابن قتيبة + ٢٧٦ هـ والسهيلىّ + ٥٨١هـ يقولان فى نسبه (هو لقمان بن عنقا بن سرور فيما ذكروا ، وابنه الذى ذكر فى القرآن هو ناران فيما ذكر الزجاج وغيره)[٢٨] . والثعلبىّ يذكر نسبا آخر ، وهو « لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام »[٢٩] .

ومن هذا يبدو أن أقدم ما انتهى إلينا من نسب للقمان : هو لقمان بن عاد ، وأما ما ذكر من أنساب أخرى ، فلعلها جاءت متأخرة ، وكانت محاولات للتوفيق بين لقمان وشخصيات أخرى وردت فى الكتب والأخبار القديمة .

---

(٢٠) بيان ١/١٨٤ (نشر هارون) . (٢١) EBr (١٢٧/١٧) .
(٢٢) EI ٣/٣٥ وما يليها . (٢٣) حيوان ٣/٦٧ ، ٤٤٧ ، سجستانى ٤ ، ضبى ٧٦ .
(٢٤) كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٧٨ . (٢٥) ضبى ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ .
(٢٦) حيوان ٥ / ٣٣١ (يذكر عاديا بدل عاد) ولكن الأكثر نسبته إلى عاد (مثلا حيوان ٣/٦٧ ، ٤/٤٥٢) . (٢٧) سجستانى ٣ (ويذكره عاديا مرة)
(٢٨) الروض الأنف ١/٢٦٦ ، معارف ٥٢ . (٢٩) ثعلبى ٣٤٠ .

يتمثل لقمان فيما روى عنه بطلا أسطوريا ، فهو عملاق هائل له جسم ضخم ورأس عظيم يضرب به المثل[٣٠] . وهو شديد البنية يضرب بشدتها المثل فيقال (أشد من لقمان العادى)[٣١] ، وله بصر حاد خارق للعادة ، حتى إنه لما كبر وضعف بصره كان يميز بين الذكر والأنثى من ولد الذر ، ويبصر أثر الذرة السوداء على الصفا فى الليلة المظلمة[٣٢] . وجعلوا زرقاء اليمامة من بنات لقمان بن عاد[٣٣] . وهو فوق ذلك يجيد الرماية بالسهام والنبال إلى حد خارق للعادة[٣٤] . ثم هو أكول يزيد فى ذلك على الطاقة البشرية . ومن أمثالهم (تجشّأ لقمان من غير شِبَع) قالوا : تجشأ من غير شبع ، من عُلبتين وثمانٍ ورُبَع ، لم يعدها لقمان شيئاً لكثرة حاجته إلى الأكل ، وقد تجشأ تجشؤ غير الشبعان . مثل يضرب لمن يدعى ما ليس يملك[٣٥] . وزعموا أن لقمان كان يتغدى بجزور ، ويتعشى بجزور . قالوا : وهذا من أكاذيب العرب[٣٦] . ويدور عدد من قصصه حول الطعام وأكله[٣٧] . ثم هو بعد هذا كله طويل المعمر جدا ، بلغ خمسمائة سنة وستين سنة وهو فى الدرجة الثانية من المعمرين بعد الخِضْر . فالخضر هو أطول البشر عمرا ، ولقمان يليه من بعده[٣٨] . ثم زاد هذا الرقم فى قصص مختلفة فبلغ ألف سنة ، وثلاثة آلاف سنة ، وثلاثة آلاف وخمسمائه[٣٩] . وهو بعد ميال إلى البناء و إنشاء المدن[٤٠] .

هذه الصورة الأسطورية الجاهلية التى رسمها الشعر الجاهلّى وقدماء الأخباريين ، إنما تذكرنا بهؤلاء الأبطال الأسطوريين الذين كانوا موضع عبادة أو تقديس عند بعض الأمم ، كالجبارين أو العناقيم الذين ذكرتهم التوراة .

من أين جاءت هذه الصورة الأسطورية ؟ وما قيمتها الرمزية ؟ ولم سمى لقمان

---

(٣٠) حيوان ٣/٦٧ . (٣١) عسكرى ٢/٥٠ . (٣٢) عسكرى ١/٨٥ ضبى ٨٥ .
(٣٣) عسكرى ١/١٧١ ، حيوان ٥/٣٣١ . (٣٤) ضبى ٧٥ .
(٣٥) ميدانى ١/٨٣ (١٣١٠) . (٣٦) نفسه ١/٨٩ ، ضبى ٧٥ .
(٣٧) ضبى ٦٩ — ٧١ ، ٧٥ . (٣٨) سجستانى ٣ .
(٣٩) EI (Lukmàn) . (٤٠) حيوان ٤/٤٥٢ .

بهذا الاسم ؟ وقف الباحثون إزاء هذه الأسئلة لا يجيبون برأى جازم . ولم نجد أحدا قد استطاع أن يُجَلِّيَ غوامض هذه المسائل ، وأن يناقشها مناقشة شافية .

قالوا إن عادا الذين نسب إليهم لقمان كانوا يسكنون بالأحقاف . وورد ذلك فى القرآن الكريم « واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومَه بالأحقاف » ٤٦ : ٢١ . والأحقاف إذا أخذنا بعدد من الروايات — رمال بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشِّحْر[٤١] . ويذكر الضبى أن لقمان بن عاد كان يجاور حيا من العمالقة وهم عرب[٤٢] ، ويروى أن بعض البابليين ، بعد سقوط دولة حَمورابى — تفرقوا فى عدة جهات فى الجنوب ، وكان المعينيون فيما بعد من أقدم الشعوب التى كونت دولة فى جنوب بلاد العرب ، وهم فيما يقال ، من أصل بابلى ، وأطلق عليهم بعض الباحثين عمالقة العراق ، وكان مقرهم منطقة الجوف ، بين نجران وحضرموت[٤٣] ، وقيل إن فريقا من هؤلاء العمالقة النازحين كانوا ملوكا لطسم[٤٤] ثم هلكت طسم وجديس للحروب بينهما ، وبقيت اليمامة خالية ، فحل بها بنو حنيفة الذين كانوا بها عند ظهور الإسلام[٤٥] .

أرى أن نساير هذه الأخبار ، ونتجه إلى الجنوب والجنوب الشرقى فى هذه العصور الجاهلية الأولى ، حيث مساكن قوم عاد ، لعلنا نستطيع أن نهتدى إلى شىء يتعلق بهذه الشخصية .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا الرواية المنسوبة إلى وهب بن منبه فى كتاب التيجان ، وهى تجعل لقمان بن عاد بن المِلْطاط بن السكسك بن وائل بن حمير[٤٦] .

وللسكاسك أوطان فى اليمن ذكرها الهَمْدانى ، وهو يشير إلى جبل يدعى (جبل النسور) وهو الحد بين السكاسك والأصنعة من حمير ، ومما يخالط الوادى الذى ينتهى عند هذا الجبل من غربيه أوطان السكاسك[٤٧] .

---

(٤١) معجم البلدان ١/١٤٢ (أحقاف) .
(٤٢) ضبى ٧٤ .
(٤٣) جواد ١/٣٨٢ — ٣٨٣ ، زيدان ١/٢٥ .
(٤٤) جواد ١/٢٥٢ .
(٤٥) نفسه ١/٢٥٣ ، صفة ١٦١ — ١٦٣ .
(٤٦) عبيد ص ٧٨ .
(٤٧) صفة ٧٥ — ٧٦ ، ٧٧ .

ونتظر فى قصص لقمان وفى أمثاله ، فنجد آثارا لغوية تؤيد مصدرها العربى الجنوبى ، فمن أمثاله (اترك الشر كما يتركك) يقول أبو هلال (المثل للقمان بن عاد قاله لابنه ، وكما لغة فى كيما)[٤٨] ، وهذه لغة تذكرنا باللفظ kama ኀመ فى الحبشية القديمة ، وهى ترجع إلى أصل عربى جنوبى . وفى أخبار لقمان أنه بنى سد مأرب[٤٩] . وسميت امرأة لقمان (براقش) وهذا لفظ كثير الورود بين أعلام فى منطقة الجوف باليمن[٥٠] . وفى إحدى روايتى ياقوت فى معجم البلدان أن قبر لقمان وابنه فى اليمن ، وفى الرواية الأخرى فى شرق بحيرة طبرية ، ويقول (والله أعلم بالصحيح منهما)[٥١] .

وكان للدول اليمنية القديمة أبطال أسطوريون ، يضعونهم موضع تقديس وعبادة . فكان (ود) أحد آلهة ثلاثة عبدتها مَعين ، وهى (عثتر — ود — نكرح) . وللسبئيين ثالوث آخر يعبدونه وهو (المقاه — عثتر — شمس) ، وهم يسمون أنفسهم (أبناء المقاه) كما سمى المعينيون أنفسهم (أبناء ود)[٥٢] ، ولعل وداً مشتق من (ودد) فمعناه المودة أو إله المودة أو إله الرغبة والتمنى و(المقاه) معناه فى الغالب إله المحبة . أما ود فقد وصفه ابن الكلبى فى كتابه الأصنام فقال : (كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال قد ذُبِر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووَفْضة فيها نبل)[٥٣] ، ونلمح فى هذا الوصف أمرين عرفناهما فى لقمان ، هما ضخامة البنية ، والرمى بالسهام والنبال .

ثم ننظر فى عدد من قصص لقمان ، فنلحظ ترديدا مُلِحا للعلاقة بين الرجل والمرأة ، وهذه القصص فى مجموعها تدلنا على أن المرأة فى نظره لا تحفظ آصرة المودة التى تربط بينها وبين الرجل . وهو فى هذه القصص حريص على هذه الآصرة ، يعاقب من يقطعها بالخيانة أشد العقاب ، تزوج عدة نساء كلهن خُنَّه فى أنفسهن ، فلما قتل

---

(٤٨) عسكرى ١/١٢٤ ، ميدانى ١/١٤٥ . (٤٩) معجم البلدان ٧/٣٥٤ .
(٥٠) جواد ١/٣٨٤ . (٥١) معجم البلدان ٦/٢٦ (طبرية) .
(٥٢) جمعه ١٢٥ (ورد ذكر ود فى القرآن «٧١ : ٢٣») .
(٥٣) أصنام ٥٦ (نشر أحمد زكى باشا) .

أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه صُحْر ابنته ، فوثب عليها فقتلها وقال : وأنت أيضا امرأة ، وكان له أخت مُحمِّقة : تلد الحمقى ، وكان قمان منجبا ، فاحتالت حتى واقعها دون أن يعلم ، فحبلت بلقيم ، فهو ابنه وابن أخته[٥٤] . وفى مثل آخر (الخلاء بلاء) قصة طويلة للقمان فيها تقريع لامرأة وجدها مع رجل فى غياب زوجها ، وفى مثل[٥٥] آخر (إحدى بنات طَبَق) شبه لقمان امرأة خانت زوجها ببنت طبق وهى السلحفاة ، وقد دفنها حية عقابا لها[٥٦] . فلعل موضوع هذه الأمثال مما يقرب الصلة بين لقمان وبين وَدٍّ إله الحب والرغبة ، الذى يقارن بعض الباحثين بينه وبين المعبود اليونانى القديم Eros[٥٧] .

ثم نُنعم النظر فى قصة استسقاء وفد عاد فى مكة ومعهم لقمان ، حين ارتكبت عاد خطيئة ، فنجد أنهم جعلوا على رأس وفد عاد ثلاثة ، هم قيل بن عنق ، ولقيم بن هزال ، ولقمان بن عاد . ألا ترى أن العدد ثلاثة هنا ، وهو جدير بأن يذكرنا بهذا الثالوث المعبود تعبده هذه الشعوب العربية الجنوبية . أليس مما يلفت النظر أن يكون رؤساء الوفد فى هذه المهمة المقدسة ثالوثا . هذه القصص وأشباهها وإن غلبت عليها الأسطورة فلها قيمتها الرمزية . قد تكون أسماؤها مخترعة ، وحوادثها ملفقة ، ولكن لابد فى أية قصة من عناصر تشير إلى عادات وعقائد رسبت فى جذور العقلية الجمعية التى صدرت عنها ، لا تنفك عنها حتى حين تخترع الأكاذيب .

و بعد فما ذلك اللفظ « لقمان » ؟ نفترض أن هنالك صلة بين أصل هذه التسمية و بين ما نسب إليه من كثرة الأكل ، بمعنى أن لقمان فى ظننا لفظ مشتق من لَقِم يَلْقَم إذا أسرع فى الأكل . ونزعم أن النون النهائية فى الكلمة ربما كانت هى نون التعريف المعينية أو السبئية التى تقوم مقام لام التعريف فى العربية الشمالية ، فيقال فى المعينية

---

(٥٤) حيوان ١/٢١ — ٢٢ .
(٥٥) عسكرى ١/٢٨٢ — ٤ .
(٥٦) نفسه ١/١٣٠ .
(٥٧) ERE ١/١٦٦٢ — ب ،
H. J. Rose, Ancient Greek Religion, G. B. 1946, pp. 22,53, 140

(كاهلان) أى الكاهل ، ومعناه القدير أو المقتدر ، صفة من صفات الإله « وَدّ » الذى سبقت الإشارة إليه . وقياسا على هذا فلقمان معناه (اللاقم) أى السريع الأكل ، فهو فى الأصل صفة نُعت بها هذا الشخص ، ثم اشتهر بها . وتمشيا مع فرضنا السابق ، نحسب أن لقمان صفة من صفات معبود قديم من معبودات اليمن الغابرة . وكثيرا ما اختلفت نعوت المعبود وألقابه ، بحسب جوانب قدرته وسلطانه .

ولكن الزمن البعيد السحيق ، والتفاف القوميات المختلفة حول هذه الشخصية على مر العصور ، والاعتماد على الرواية الشفوية فى كثير من الأحيان — كل ذلك قد عرض هذه الشخصية لكثير من المسخ والتشويه والتطور العميق ، حتى وصل إلينا فى تلك الصورة .

وقبل الإسلام كان اليهود يسعون إلى خلق قومية حميرية مصبوغة بصبغتهم ، وكان منهم جماعات أقاموا فى موطن عاد القديم فى الأحقاف[٥٨] . وكانت حمير قد تهودت على يدذى نواس[٥٩] . ويبدو أن شخصية لقمان كانت من ذلك التراث الذى تناولوه بالتغيير حرصا على ضمه إليهم ، وتغذيته بعناصر كتابية . فنلمح فى بعض ما ورد عنه فى الجاهلية شيئا من تلك العناصر ، كقصة النسور السبعة ، وقصة الاستسقاء ، وهما مرتبطتان عادة فى رواية الأخباريين . يقول السجستانى : (عاش لقمان عمر سبعة أنسر ، فجعل يأخذ فرخ النسر الذكر فيجعله فى الجبل الذى هو أصله فيعيش منها ما عاش . فإذا مات أخذ آخر فرماه حتى كان آخرها لُبَد . وكان أطول عمرا فقيل (طال الأبد على لبد)[٦٠] ولفظ لبَد غريب على العربية . يقول الطبرى (إن لبد بلسانهم هو الدهر)[٦١] . وفى العبرانية يقال ébad! أى منفردا ، وهى عبارة عن لام الجر مع اللفظ (بد) أو (بدد) بمعنى توحد وانفرد . وفى المزمور (١٠٢) وصف الرجل المتضرع إلى الله بأنه كعصفور منفرد . واستخدم هذا اللفظ

---

(٥٨) جواد ١/٢٣٨ .
(٥٩) معجم البلدان ٨/٢٨٦ .
(٦٠) سجستاني ٣ — ٤ .
(٦١) طبرى ١/٢٤٠ .

bodéd . ثم نجد فى المزمور الذى يليه (١٠٣ : ٤) «باركى يا نفسى الرب ... الذى يُشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك) . ويقارن رينيه باسّيه بين هذه القصة وقصة رومانية قديمة[٦٢] . وفى قصة النسور التى أوردها السجستانى نجد لفظ (عاد) يتحول إلى (عاديا) وربما كان تحريفا قصده اليهود أو الآراميون منهم حتى يكون فى الاسم رائحة يهودية . ولعل من الممكن أن ننظر إلى فكرة النسر وتربيته فى هذه القصة باعتبارها رمزا إلى (نسر) المعبود العربى والآرامى القديم[٦٣] .

ويرتبط بهذه القصة قصة أخرى هى استسقاء وفد عاد فى مكة ومعهم لقمان ، فقد ارتكبت عاد خطيئة إذ كذبت هودا عليه السلام ، فتوالت عليهم ثلاث سنوات لم يروا فيها مطرا ، فبعثوا من قومهم وفدا إلى مكة ليستسقوا لهم ورأسوا عليهم قيل ابن عنق ، ولقيم ابن هزال ، ولقمان بن عاد ، وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق ، وكان سيدهم بمكة معاوية بن بكر ، فلما نزلوا مكة أقاموا شهرا وكان يكرمهم والجرادتان تغنيانهم ، فنسوا قومهم ، فلما اذكروا دعوا ربهم واستسقوا لقومهم ، فجلب أحدهم سحابة بيضاء فأمطرت عادا وابلا خرب بلادهم . ثم نودى لقمان : سل ، فسأل عُمر سبعة أنسر . . . الخ[٦٤] . فيبدو لى أن عناصر هذه القصة وثنية قديمة ، كما أشرنا ومن قبل ، لكن اختلطت فيما بعد بعناصر كتابية وذلك فى الجاهلية القريبة من الإسلام .

ولم يلبث أن أصبح لقمان قد اشتهر بالحكمة الكتابية قبيل الإسلام ، بعد أن كان صانع أمثال شعبية ، تكاد تكون خالية من النغمة الكتابية الظاهرة ، قِوامها الألغاز ، ويكثر فيها المجاز والإيماء والإشارة ومعاريض الكلام[٦٥] . ولم يكد يظهر الإسلام فى شبه الجزيرة ، حتى كان عرب اليمن الذين سكنوا فى الحجاز أو اتصلوا

---

(٦٢) EI (Lukmàn) . (٦٣) ERE ١/٦٦٢ ب — ٦٦٣ أ .

(٦٤) مع اختلاف فى الروايات (سجستانى ٣ — ٤ ، الفاخر ٦٧ — ٦٨ ، ميدانى ١/١٣٨ — ١٣٩) .

(٦٥) عسكرى ١/٢٨٢ — ٤ .

بالجانب الغربى من شبه الجزيرة ، قد مهدوا لظهور لقمان الجديد : لقمان القرآنى . فرأينا كعب الأحبار ، وأصله من يهود المدينة وثم أسلم ، قد أذاع عددا من أخبار لقمان[٦٦] . ورأينا سُويد بن الصامت يقدم إلى مكة ، ويعرض على الرسول مَجَلة لُقمان . ونكاد نرجح أن هذه المجلة كانت تتضمن شيئا عن لقمان فى صورته الكتابية . يدلنا على ذلك أن سويداً كان ممن قرءوا الكتب فى الجاهلية ، وأنه كان من أهل المدينة ، وأن لفظ (مجلة) عبرى أو آرامى الأصل ، كما سنشير إلى ذلك عند الكلام على لقمان فى المثل الكتابىّ[٦٧] .

---

(٦٦) جولد ١/٣٤٢ .

(٦٧) وليس لفظ « مجلة » مشتقا من الجلال أو الجلالة كما زعم السهيلى (الروض ١/٢٦٦)

٣ – المثل الشرقيّ (٢)

يستغرق نصف صفحات كتاب الضبيّ ، تقريبا ، الحديث عن وقائع وقصص وأمثال مستمدة من منطقة (تميم) بقبائلها المختلفة . وكانت تميم منذ أواسط القرن الثانى قبل الهجرة مستقرة فى بادية العراق وما يليها جنوبا[٥] فنزلت جانبا كبيرا من الساحل الشرقى ، فاحتلت بلاد نجد بأسرها تقريبا ، وجزءا من البحرين ، وقسما من اليمامة ، وامتدت منازلهم جنوبا حتى فيافى الدهناء ، كما امتدت فى الشمال الشرقى إلى ضفاف الفرات ويجاورهم فى الشمال أسد ، وفى الجنوب الغربى باهلة وغطفان ، وامتزجت تميم فى منازلها ببطون من عبد القيس وحنيفة كما امتزجت ببكر وتغلب فى الشمال[٦] . وكان المناذرة يعدون قبائل بكر وتميم وحنيفة خاضعة لنفوذهم[٧] . واقترنت حوادث بعض قصص تميم — فى كتاب الضبيّ — بذكر المناذرة[٨] . وهناك عدد من القصص يروى ما كان بين اليمامة والمناذرة[٩] . وقصص عن أمرئ القيس[١٠] ، وكانت قبيلته كندة قد نزحت إلى نجد فى أوائل القرن الخامس الميلادى وكانت بينهم وبين المناذرة صلات تاريخية[١١] ، وروايات عن ربيعة ورؤسائها ، وكانت أخيرا تسكن فى بادية العراق وفيما بين النهرين[١٢] . وعدد من القصص يشير إلى أهل هَجَرَ (البحرين) ومنه ما روى عن طرفة والمتلمس[١٣] .

وإذا تجاوزنا عددا من الأخبار ليس فيه إشارة واضحة إلى أسماء ووقائع معينة ؛ وهذه لا تزيد على بضعة عشر خبرا — وجدنا عددا آخر يتحدث عن الغساسنة والحجازيين من سكان الجانب الغربى . وفى أخبار الغساسنة ، وهى حوالى سبعة[١٤]

---

(٥) زيدان ١/٧٠ .
(٦) حمودة ٣٥ .
(٧) جبور ١٨ .
(٨) ضبى ٥ ، ٨ — ٩ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٤٦ .
(٩) نفسه ٥٢ — ٥٣ ، ٦٨ ، ٧٨ .
(١٠) نفسه ٥٢ ، ٥٤ .
(١١) زيدان ١/١٠٠ .
(١٢) نفسه ١/٦٩ .
(١٣) ضبى ٤٧ ، ٧٦ ، ٨٢ .
(١٤) ضبى ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٩ (قصتان) .

إشارة إلى الخصومة التى نشبت بينهم و بين المناذرة ، أو بين بعض عشائر قضاعة . وظاهر أن هذه الأخبار مستمدة من مصادر شرقية أيضا ، لأنها تسجيل لحوادث تهم المناذرة بنوع خاص . والأخبار الحجازية لاتتجاوز الخمسة ، وأكثرها فكاهات، ولبعضها صلة بأهل الحيرة والنزعات الدينية التى يهمهم أن يعرفوها عن الحجاز[١٥] . أضف إلى ذلك أن هذه الأخبار الغسانية فى مجموعها ليست فى صالح الحجازيين والغساسنة .

مصدر هذه القصص إذن هو الشرق ، أو إذا أردنا التحديد فهو منطقة المناذرة ، وجهات القبائل التى تقع تحت سلطانهم . وليس ببعيد أن يكون المناذرة أنفسهم قد أمروا بتدوين هذه القصص والأخبار وحرصوا على جمعها، وتداولها الرواة فى الجاهلية حتى وصلت إلى الضبى فى القرن الثانى للهجرة . فهى فى مجموعها سجل لمفاخرهم وأحوالهم الاجتماعية والأدبية ، ملوكا ورعية . ففيها تصوير لمواقف البطولة والمغامرة فى الحرب والإغارة وقطع الطريق ، وفى إصلاح ذات البين بين الأفراد والجماعات ، والإيثار على النفس ، وتحمل المشقة ، والفخر والمنافرة . وفيها وصف لأحوال الأسرة اليومية ومشاكلها ، كالزواج والطلاق والأبوة والبنوة والتبنّى والخِطبة والرقّ . وفيها تسجيل لبعض النوادر والطرائف التى لا شك أنها كانت مادة لسمرهم وفكاهتهم فى مجالسهم وأسواقهم . وقد وردت فى هذه القصص إشارات تدل على أن المناذرة كانوا يجلبون إلى مجالسهم أفرادا من العرب مشهورين بالظرف والتفكهة ، فيسمعون منهم كثيرا من المضاحك والنوادر . ومن هذه المضاحك ما ذهب فى العرب أمثالا . فكان من ضبّةَ العيار بن عبد الله ، كان يقول الشعر ويضحك الملوك[١٦] . يضحك النعمان ويعجبه ، وقد روى له الضبى فى أمثاله قصة[١٧] . وكان إلى جانب المضحكين طائفة من الأخباريين والرواة يحفظون الروايات الوطنية ويروونها فى مجالس ملوك العرب ورؤسائهم ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هذه العادة وجدت عند العبرانيين القدامى

(١٥) نفسه ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٧٧ .
(١٦) ضبى ١٥ . (١٧) ضبى ٤٧ .

وكان رواة الملاحم الوطنية يسمون عندهم الموشليم (أصحاب الأمثال) (عدد ٢١ : ٢٧). يقول بنتسن : « كان لإسرائيل كما كان للعرب ولأمم أخرى كثيرة ، رواة أخباريون يطوفون البلاد ، ويجتمعون فى المحافل الشعبية[١٨] » . والراجح عندى أن مدارس الرواية الأخبارية فى العراق كالمدرسة الكلبية والمدرسة الضبية التى ظهرت فى الإسلام كانت امتدادا لهذه الطبقة التى اصطنعها المناذرة وشجعوا أفرادها . وقد عرفنا كيف أن معاوية أراد أن يصطنع هذه الطريقة ، فجلب إليه عددا من الرواة الأخباريين . وكان للسُّمار والندماء ترتيب خاص فى مجالس خلفاء بنى أمية[١٩] .

اصطبغت هذه القصص والأمثال بصبغة « وطنية » حكت مفاخرهم وأحوالهم فى الجد والهزل . ولكن هذه الأمثال ، وإن عبرت عن النزعة الوطنية فى هذا الجزء من شبه الجزيرة ، فقد كانت فى معظمها بحيث تلائم أذواق الطبقة الحاكمة إلى حد كبير . فقد التف الرواة الأخباريون ، والسمار المضحكون حول هؤلاء الكبراء ، وتفانوا فى خدمتهم ونقلوا إليهم ما يتناسب مع مستواهم الحضارى والثقافى . ثم لا نتوقع أن ما رواه الضبى من هذه الأمثال كان شاملا لكل مناحى الحياة الشعبية الأصيلة عند العرب المشارقة ، ولا سيما حياة الصحراء الحقيقية المغربة فى عاداتها وخرافاتها وتراكيب لغتها . قد نجد عددا من الأمثال للضبى مصورا للحياة البدوية ، ولكنه أقل مما قد يتوقع الباحث من مثل هذه المجموعة . فلنأخذ طائفة من أمثال الضبى نسردها بحسب ترتيبها الوارد فى الكتاب لننظر فى مدى تمثيلها للحياة البدوية :

أسعد أم سُعَيد ؟

إن الحديث لذو شجون .

سبق السيفُ العَذَل .

ذهب الشِّغَار بالفخار .

---

(١٨) بنتسن ١/٢٤٩ .

(١٩) عبيد ٣١٢ — ٣١٣ ، التاج المنسوب إلى الجاحظ . نشر أحمد زكى باشا (١٩١٤) ص ٢٣ — ٣٢ .

لعلنى مُضِلُّك كعامر .
إن المعافَى غير مخدوع .
أينما أوجهْ ألق سعدا .
أتبع الفرس لجامها .
الصيفَ ضيعتِ اللبن .
هذا وَمذْقَة خير .
الأبلق العَقوق .
ولى الثكلَ بنت غيرك .
تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .
إنما يعيش المرء بأصغريه .

لا أكاد أرى فى معانى هذه الأمثال ، شيئا يميز الحياة البدوية الصميمة ، اللهم إلا ما كان شائعا على ألسنة البدو والحضر جميعا ، من إشارة إلى الإبل والخيل والكلاب ، وإلا أقوالا عامة عن حَلِّ أفراد من القبائل وترحالهم ، ومثلا كلَ مشتركة بين الناس تختص بالأسرة ، وسردا عاما لأخبار البطولة والمغامرة وغير ذلك مما كان معروفا مشتركا بين البدو والحضر على سواء ، ولكن لا يخفى أن هنالك ظواهر لحياة البادية إذا عرفها الحَضَرىّ أنكرها وربما تنكّر لها ، وفى هذه الظواهر تكمن خصائص البادية ومميزاتها .

نأخذ عنصرا هاما يميز الحياة البدوية وهو الحيوان . فلعل أول ما يتبادر إلى الذهن فى هذا الصدد الإبل والخيل والكلاب والمِعْزَى ، فهذه أنواع عرفها أهل البادية وتحدثوا عنها ، ولكنها لم تكن ظواهر مميزة للبوادى دون غيرها ، فقد كان الجَمَل وسيلة أساسية من وسائل النقل التجارى ، عرفه الحضر ، وأدركوا منافعه ومزاياه ، كما عرفه البدو تماما . وكذلك كانت الخيل والكلاب والمعزى مشتركة بين البدو والحضر . وقد أشار الضبىّ إلى هذه الأنواع . ولكننا لم نجد فى أمثاله وقصصه

إشارة إلى حيوان صحراوىّ كان يميز الطبقات الدنيا من الأعراب ؛ كحيوان الضب . ولقد عير أهل الحضر أهل البادية به فسموهم حَرَشَة الضِّباب[٢٠] . وسخِر أهل المدينة من الأعراب لأكلهم الضِّبابَ[٢١] . وعيّر الشعراء بعض أهل البادية بأنهم أكلة الضباب[٢٢] . ويذكر شاعر منهم أن كسرى (لعله يقصد ملك الحيرة) كان أعقل من تميم عندما فرّ بأهله من أرض الضباب ، ونزل ببلاد الريف والأشجار والأنهار العذاب[٢٣] . ومن الملاحظ أن الشعر الجاهلىّ — وكان معظمه شرقيا كما قلنا — كان قليل الإشارة إلى الضب إذا قورن بما ورد فيه عن الحمار الوحشى والثور الوحشى والنعام وغيرها من الحيوان[٢٤] .

ولم يمض قرن من الزمان ، بعد زمن الضبى ، حتى رأينا المصنفات التى دونها المدارس العراقية نفسها ، تضم إلى الأمثال القديمة أمثالا تضرب فى جذور الحياة البدوية الصميمة ، ومنها طائفة تتحدث عن الضب أو تستمد صورها البيانية من بيئته . فأورد قليلا منها أبو عبيد القاسم ابن سلام فى أمثاله[*] ، وذكر بعضها المفضل بن سلمة + ٢٨٠ أو ٢٩٠ هـ[٢٥] فى كتابه الفاخر ، وأورد عددا كبيرا منها أبو عثمان الجاحظ + ٢٥٥ هـ فى كتابه الحيوان وهو يتحدث حديثا طويلا عن الضب . وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض هذه الأمثال[٢٦] :

---

(٢٠) حيوان ٦/١٠٣ .

(٢١) نفسه ٦/١٤٣ ، ٣٨٥ .

(٢٢) نفسه ٦/١٠١ .

(٢٣) نفسه ١/٢٥٦ .

(٢٤) الحيوان فى الشعر العربى القديم (رسالة للدكتور محمد النويهى قدمها إلى جامعة لندن للدكتوراه سنة ١٩٤٢) .

(*) شرح البكرى ٤٣ ب .

(٢٥) تحقيق ستورى ناشر كتاب الفاخر (مقدمته) ، فاخر ١٨٣ .

(٢٦) راجع الحيوان — الجزء السادس ، الميدانى ١/٩١ ، ٦٥ ، ١٣٢ ، ٢/٧٩ ، ٢٢٥ . وراجع شرح البكرى ٤٣ ب .

إن تك ضَبًّا فإني حِسْلُه : يضرب للرجل يلقى مثله فى العلم والدهاء .

أخذه أخذَ الضبِّ ولَدَه : أى أخذه أخذة شديدة أراد بها هلكته ، وذلك أن الضب يحرس بيضه من الهوام فإذا خرجت أولاده من البيض ظنها بعض أحناش الأرض ، فجعل يأخذ ولده واحدا بعد واحد ويقتله ، فلا ينجو منه إلا الشديد .

أولَ ما أطلع ضبٌّ ذَنَبه : للرجل يصنع الخير ولم يكن صنعه قبل ذلك .

ما هو إلا ضبّ كَلَدَة : أو (كُدْية) أى الصلب من الأرض يضرب لمن لا يقدر عليه .

تُعلِّمنى بضبٍّ أنا حَرَشته : لمعرفة الشىء من وجهه . والحَرْش الإثارة ، أى إثارة الضب فى جحره لاستخراجه ، وقيل الحرش الصيد .

أعط أخاك من عقنقل الضبّ : أعطه الشىء مهما يكن صغيرا تافها .

واشتقّوا أمثالا على وزن أفعل ، فقالوا أحيا من ضبّ ، وأروى من ضبّ ، وأعق من ضبّ ، وأخَب من ضبّ ، وأضلّ من ضبّ ، وأطول ذَماءً من الضبّ ، وأخدع من ضبّ . . . واستمدوا صورهم البيانية من حياة الضبّ ، فقالوا (فى صدره ضبّ) أى حقد ، كما قالوا للسنة المجدبة التى تأكل المال : الضَّبُع ، لأن الضبع إذا وقعت فى الغنم كانت كثيرة العَيث[٢٧] .

نُقلت هذه الأمثال وأشباهها إلى المصنفات العربية ، منذ أواخر القرن الثانى ، على أثر حركة جديدة قامت بها فئة أخرى غير الرواة الأخباريين ، هى فئة معلمى اللغة ورواتها ؛ فقد نشطت حركتهم فى ارتياد بقاع شبه الجزيرة العربية ، يتلقفون الشواهد اللغوية ، من شعر وأخبار وقصص وأمثال ، من أفواه العرب والأعراب ، وعُنوا عناية خاصة بلغة البادية ، لاعتقادهم أن لغة البداوة أنقى وأصفى وأبعد تأثرا باللغات الطارئة على مواطن الحضر ، وكانت هذه العناية نعمة على الأدب الشعبىّ الأصيل ،

(٢٧) عسكرى ١/٢٧٥ .

إذ تمكنوا من تصيد كثير من الأمثال والعبارات التى شاعت بين أهل البادية ، والتى تنطق بحياتهم الشعبية الصميمة ، ومن هنا ، فيما نظن ، ظهرت أمثال الصحراء ، كتلك التى تشير إلى الضباب ، فى المصنفات المتأخرة .

وكان من نتائج هذه الحركة أيضا ، أن برزت طائفة من الأمثال عليها طابع الإغراب ، اتخذها علماء اللغة ورواتها نماذج من أساليب العرب التقليدية ، تزيد من ثروة اللغة ، وترشد طلاب العربية إلى نهج العرب القديم فى التعبير وصوغ التركيب. كانت غاية اللغويين من روايتها لغوية أولا وقبل كل شىء ، وكان فيها مجال كبير للألغاز والأحاجى .

وقبل أن أبسط هذا المعنى ، أبادر فأقول إن أمثال الضبىّ تحتوى عدداً من الأمثال الملغِزة ، إذا انتزعت من مناسباتها بدت للقارئ أو السامع كلاما مستغلقا مبهما فى حاجة شديدة إلى الإيضاح والبيان ، فإذا قيل « أسَعْد أم سُعَيد » تساءل المرء : ماذا يراد بهذا الاستفهام ، وما مناسبته وما مغزاه ، ولكن سرعان ما يزول هذا الإبهام ، وتنجاب هذه الغرابة ، حين نعلم أن سعدا وسعيدا هما ولدا ضَبة بن أُدّ ، نفرت إبل ضبة تحت الليل وهما معها ، فخرجا يطلبانها ، فتفرقا فى طلبها ، فوجدها سعد ، فجاء بها ، وأما سُعيد فذهب ولم يرجع ؛ فجعل ضبة يقول ذلك إذا رأى تحت الليل سوادا مقبلا : «أسعد أم سعيد» ، وذهب قوله مثلا[٢٨] . وهو يُضْرب فى العناية بذى الرحم ، وفى الاستخبار أيضا عن الأمرين الخير والشر أيُّهما وقع . ومنه قول الحجاج لقتيبة بن مسلم وقد تزوج : « أسعد أم سعيد » ؟ أراد : أحسناء أم شوهاء ، جعل التصغير مثلا للقبح والتكبير مثلا للحسن[٢٩] . وإذا قيل : ذهب الشغار بالفخار ، وجدنا أنفسنا إزاء لغز مبهم فى صورته ومعناه . فالإبهام ناشىء هنا من التركيب والقصة جميعا ، ولكن حلّ هذا اللغز يتبين إذا عرفنا أن امرأة افتخرت على زوجها ، فقال لها هذا المثل . يقال شغَر الكلب رِجلَه إذا رفعها ليبول[٣٠] .

---

(٢٨) ضبى ٤ .

(٢٩) ميدانى ١/٣٤٢ (١٣٥٢) .

(٣٠) ضبى ٥ .

ولقد طرح الضبيّ كثيرا من هذه الأمثال وجعل معها الحلّ والتفسير ، فأراحنا من تكلف البحث والاستيضاح ، ولكن لا نزال نجد فى كتب الأمثال ، طائفة عجز الرواة عن حلها ، فظلت ألغازاً إلى اليوم ، فمن ذلك قولهم (بعَينٍ ما أُرَيَنَّك) ، ومعناه اعجل . يقول أبو هلال : (وهو من الكلام الذى قد عرف معناه سماعا ، من غير أن يدل عليه لفظه ، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد إلينا بكمالها ، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء[٣١]) . وقالوا (شيئا ما يريد السوط إلى الشقراء) قال الأصمعى : (إنك لتبتغى شيئا ، وما ههنا زائدة ، ولم يذكر أصله) . وقالوا : (أغزل من قرعل) ولم يعرف معنى قولهم غزل القرعل ، والقرعل ولد الضبع . وقالوا : (بسالم كانت الوقعة) ، ولا يعرف الرواة سالما هذا[٣٢] .

ولكن المثل العربىّ القديم عرف ألوانا أخرى من الألغاز غير التى أشرنا إليها . وكان للحركة اللغوية التعليمية ، كما قلنا ، أثر فى نقلها وتوسيعها وترقيتها . يساعدهم الأخباريون وأصحاب السمَر . فصنعوا لطلاب العربية شواهد عليها طابع الإغراب ، لا تدل ظواهر تركيباتها وألفاظها على معانيها ، ولا يهتدى الناظر فيها إلى المقصود منها فى سهولة ويسر . يتجلّى فى صنعها الحيلة ، ويتعمد الصانع فيها كثيرا من المداورة والمواربة والرمز ، يلعب باللفظ حينا وبالمعنى حينا . ولقيت هذه الشواهد رواجا بين معلمى اللغة وأصحاب السمر والأخباريين ، فقد جعلوها مادة لتسلية الناس فى مجتمعاتهم وإطرافهم بما فيها من غرائب ، وتفننوا فى استخدامها ، ونقلوها أحيانا من بساطة البداوة والفطرة إلى تعقد الحضارة والثقافة . وعنى بها الأدباء فجعلوها مادة لرسائلهم وكتاباتهم الأدبية .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن طلائع العناية بتقييد اللغة وتعليمها بدأت فى الشرق . فإذا تجاوزنا ما كان فى البصرة والكوفة — ثم بغداد — من حركة لغوية ناهضة ، واتجهنا جنوبا إلى عمان حيث كان يقيم الأزْد ، رأينا عالمين من أكبر علماء اللغة

---

(٣١) عسكرى ١٦٨/١ . (٣٢) نفسه ١٧/٢ ، ١٠٠ — ١٠١ ، ١٦٠/١ على الترتيب

ينتميان إلى أزد عمان ، وكل منهما تنقل فى الجهات الشرقية : هما الخليل بن أحمد الفراهيدى +١٧٥[٣٣] وأبو بكر بن دريد + ٣٢١ هـ[٣٤] .

أما ابن دريد فكان من تآليفه كتاب سماه (الملاحن)[٣٥] . وهو عبارة عن ألغاز لفظية يظهر فيها الطابع اللغوى التعليمىّ ، وغرضه من وضع هذا الكتاب إفهام الناس جملة من الألفاظ العربية (ذكر حوالى ٤٠٠ لفظ) أريد بها غير ظاهر اللفظ ، لكى يفزعوا إليها عند الحاجة رغبةً فى التخلص من المآزق ونحوها[٣٦] . واشتق ابن دريد لهذه الألغاز اسم (الملاحن) ، وهى فى معظمها تقوم على التورية وتقترب مما يسميه الفرنجة Wortrætsel, Calembour, Logogriph[٣٧] . على أن معظم ما أورده ابن دريد هو من صنع أئمة اللغة غالبا ، فمن ذلك قوله : (تقول والله ما رأيت لفلان حصيراً ولا جلست عليه . فالحصير اللحمة المعترضة فى جنب الفرس ترى حجمها إذا هزل ، والحصير أيضا الملك . . . وتقول والله ما أخبرت فلانا ولا أخبرت هؤلاء بشىء قط ، معنى أخبرت أى ما ذبحت له خُبرة ، شاة يشتريها قوم يقسمونها بينهم .. وتقول والله ما كنت قائدا قط ولا أصلح لذلك ، فالقائد الجدول يسقى الأرض بطوارها وتقول والله ما رأيت سعدا ولا سعيدا فالسعد من سعود النجوم ، والسعيد النهر الذى يسقى الأرض منفردا بها . تقول هذا سعيد هذه الأرض ، أى نهرها الخ) . . .

على أنه ورد أن الأعراب كانوا يعنون بسرد ألغاز لفظية ، وأكثرها شعر ، وتسمى (فتيا الأعراب) . فيحدثنا الجاحظ عن ألغاز شعرية كان يصنعها الحكم بن عمرو البهرانى ، ويقول الجاحظ إنه (كان يتفقه ويفتى فتيا الأعراب)[٣٨] .

---

(٣٣) الزبيدى (طبقات النحويين واللغويين تحقيق أبو الفضل ابراهيم . مصر ١٩٥٤) ص ٤٧

(٣٤) مقدمة بدر الدين العلوى (ديوان شعر الإمام أبى بكر بن دريد الأزدى . مصر ١٩٤٦)

(٣٥) طبع الكتاب مرتين مرة فى أوروبا ومرة فى مصر ١٣٤٧ هـ والأخيرة صححها وعلق عليها إبراهيم إطفيش الجزائرى .

(٣٦) ملاحن ٣

(٣٧) ERE ١٠/٧٦٥ .

(٣٨) حيوان ٦/٨٠ ، مزهر ١/٦٢٢ .

ويبدو أن الحارث بن كَلَدة كان يجيد هذا الضرب من الألغاز، حتى أطلق عليه بعضهم فقيه العرب[٤١]. وكان الحارث قد رحل من وطنه الطائف إلى أرض فارس، وتعلم فى مدرسة جند يسابور ثم رجع إلى بلاده وتوفى سنة ١٣ هـ[٤٢].

واتخذ أدباء العربية وكتابها هذا الضرب من الألغاز مادة للكتابة. ولعل من أشهرهم أبو القاسم الحريرىّ إذ أورد فى عدد من مقاماته (٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٤) كثيرا من هذه الألغاز.

ومهما يكن فإن من التجوز أن نسمى هذه الألغاز كلها أمثالا. والعرب أنفسهم سموها الفُتيا والملاحن، وإن كان بعض النقاد كابن الأثير قد عد لغزاً من هذا النوع داخلا فيما سماه (المغالطة المثلية)[٤٣].

ويروى ابن دريد حكاية العنبرىّ الأسير (وعنبر من تميم) الذى أسره بكر بن وائل، فسألهم رسولا إلى قومه، فقالوا له: لا نرسل إلا بحضرتنا، لأنهم كانوا قد أزمعوا غزو قومه، فخافوا أن يَنْذَر عليهم، فجىء بعبد أسود فقال له: أتعقل؟ قال: نعم إنى لعاقل. قال: ما أراك كذلك. فقال: بلى، فقال ما هذا؟ وأشار بيده إلى الليل، فقال: هذا الليل، قال: ما أراك عاقلا، ثم ملأ كفيه من الرمل، فقال: كم هذا. فقال لا أدرى وإنه لكثير، قال: أيما أكثر النجوم أم التراب؟ قال: كل كثير. قال: أبلغ قومى التحية، وقل لهم ليكرموا فلانا، يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لى مكرمون، وقل لهم إن العَرْفج قد أدبىَ، وقد شكّت النساء، وأمُرهم أن يُعْرُوا ناقتى الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملىَ الأصهب، بآية ما أكلت معهم حَيْسا، واسألوا الحارث عن خبرى. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جُن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملا أصهب، ثم سرحوا

---

(٤١) مزهر ١/٦٣٨ (٤٢) زيدان ١/١٧٨

(٤٣) المثل السائر ٢/٢١٨ فى تعليق له على حديث نبوى يتضمن لغزا لفظيا. وهناك أسماء أخرى أطلقت على اللغز ليس من بينها لفظ المثل (راجع عيون المسائل ١٠٨ — ١١٢، ١٢٣، المثل السائر ٢/٢٢٣).

العبد ، ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة ، فقال : قد أنذركم . أما قوله أدبى العرفج فيريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح ، وقوله قد شكت النساء أى اتخذن الشكاء للسفر . وقوله الناقة الحمراء أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمل ، الأصهب . وقوله : بآية ما أكلت معهم حيسا يريد أخلاطا من الناس قد غزوكم ، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط . فامتثلوا ما قال ، وعرفوا لَحْن كلامه[٤٤] .

وهذا من ألغاز الرمز Rebus وله نظائر فى الأدب الغربى القديم[٤٥] .

ثم نجد ضربا آخر من الألغاز ومثاله ما يروى عن امرىء القيس من أنه امتحن زوجته قبل أن يتزوجها فقال لها : ما اثنان وأربعة وثمانية . فقالت : أما الاثنان فثديا المرأة ، وأما الأربعة فأخلاف الناقة ، وأما الثمانية فأطباء الكلبة[٤٦] . وهذا مثال بسيط من اللغز العددى Arithmetic riddle وله نظائر فى الأدب اللاتينى[٤٧] ، وله كذلك نظائر فى العبرانية القديمة ،فورد فى التوراة فى سفر الأمثال ٣٠ : ١٥ (ثلاثة لا تشبع . أربعة لا تقول كفى) وفى الآية التالية يورد الجواب (الهاوية ، والرحم العقيم ، وأرض لا تشبع ماء ، والنار لا تقول كفى) . ونجد فى الإنجيل لغزا عدديا واحدا ورد فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٣ : ١٨ (هنا الحكمة . من له فَهْمٌ فليحسب عددَ الوحش فإنه عدد إنسان . وعدده ست مئة وستة وستون) .

وقد تعهد الحكماء الكتابيون هذا اللغز حتى نقلوه من طور الشعبية إلى الطور الكتابى وقد زخرت الأمثال الكتابية بتلك الأمثال التى تحصى أنواع المشاهدات والتجارب وأعمال الفرد وصفاته فى صورة عددية وسنشير إليها فى موضعها من المثل الكتابى .

---

(٤٤) ملاحن ٤ — ٦ ، راجع مثالا آخر . مزهر ١/٥٦٧ .

(٤٥) ERE ١٠/٧٦٦ ب .

(٤٦) المثل السائر ٢/٢٣١ .

(٤٧) ERE ١٠/٧٦٦ .

٤ – المثل الغربيّ (١)

ندع الشرق وأمثاله ، ونطوف طوفتنا الأخرى حول المراكز الغربية ، وهى تلتقى بالأسواق فى الأغلب الأعم ، من صنعاء جنوبا إلى بُصْرى شمالا ، نبحث عن تراث المثل العربى القديم ، الذى خلفه أهل هذه المنطقة منذ الجاهلية .

كانت الثقافة فى الشرق ناشطة بفعل الآراميين الشرقيين والفرس ، فبعثوا فى قبائل هذا الجانب حياة أدبية ، شجعتهم على إنتاج هذا التراث . ولكن الأمر فى الجانب الغربى كان يختلف إلى حد كبير . فلم يعن البيزنطيون بتشجيع عرب الغرب على إحياء مجدهم الأدبى ، عناية الشرقيين بالعرب الذين ينتمون إلى منطقتهم ، ربما اشتغل الروم (البيزنطيون) بالناحية الإدارية والاقتصادية ، وربما كانت سياسة الروم تقوم على أسلوب فى الحكم أقام حاجزا بينهم وبين التراث الشعبى لدى رعاياهم فى الجانب الغربى[1] . وربما كانت الثقافة البيزنطية فى ذاتها من الفتور والقلة بحيث لم تستطع أن تدفع حركة أدبية فى هذا الجانب إلى الأمام .

ومع هذا كانت هنالك تيارات قوية من الثقافة الآرامية ، قد تدفقت فى بعض مناطق من الجانب الغربى بفضل تلك الدورة السنوية التى قامت بها القبائل العربية ومعهم التجار من مختلف الأجناس ، فى خلال المدن التجارية فى الغرب ، من صنعاء إلى بصرى ؛ ثم بفضل تلك الجاليات الآرامية وغير الآرامية فى هذه المنطقة . وقد كانت تتكلم عربية أو لغات مشوبة مختلطة . استقر بعض هذه الجاليات فى عدة مناطق

---

(١) لم يكن الوفاق والتفاهم أساسا للمعاملة بين الغساسنة والبيزنطيين ولا سيما وقد اعتنق الغساسنة المذهب اليعقوبى على غير رغبة سادتهم الملكانيين (نلدكة — أمراء غسان . ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين زريق . بيروت ١٩٣٣ (ص ٢١ — ٣١) . أضف إلى ذلك أن البيزنطيين اتخذوا سياسة رومة القديمة وهى سياسة نفعية تقوم على الاستغلال المادى أولا وقبل كل شىء (نفس المرجع ٣١ - ٣٢) .

من الحجاز ، فى أخصب البقاع حول المدينة وأخصب الواحات بين الحجاز وسورية[٢] ، وسكن بعضها فى اليمن ، و بشر باليهودية بينهم ، وأذاع فيهم قصصا من التوراة ، واقتنع بعض حكام اليمن أخيرا بالتهود[٣] . ووجدت النصرانية سبيلها إلى اليمن من البحر والبر ، وسعت كاليهودية إلى تثبيت أقدامها ، ولقيت من لبى دعوتها بينهم ، فتنصرت قبائل وشايعتها بعض المقاطعات والمدن[٤] . وكان من أثر هذه الدعوات الكتابية ، أن ضعف نفوذ الوثنية بين القبائل ولا سيما إذا عرفنا أن هذه الدعوات قد اتجهت إلى قطع صلات القبائل بتراثهم الماضى ، و إضعاف الروابط التى كانت تجمع بين شتات القبائل الوثنية فى هذا الجانب . ولقد لاحظ الباحثون قلة المدونات التى تعود إلى الفترة الوثنية وخفاء أسماء الأوثان القديمة منها خفاء تاما و بروز فكرة التوحيد ، فظهرت مصطلحات جديدة فى هذا العهد مثل عبادة (الرحمن) على أنه إله واحد عام ، وعبادة (ذو سماوى) أى صاحب السماء أو إله السماء[٥] .

لا شك أنه كان للحجازيين فى جاهليتهم الأولى أمثال ، وكان لليمانية كذلك ، فليس من اليسير أن نتصور شعبا كهؤلاء أو أولئك ، لم يكن يتمثل الأمثال كما تمثل بها إخوانهم الساميون . ولكن أين هى ؟ وماذا كان مصيرها ؟ أعفى عليها الزمن شكلا وموضوعا . أم بقيت آثار من معانيها وصيغها فى تلك الأمثال الحجازية واليمنية التى وصلت إلينا باللغة العربية الفصحى منذ الجاهلية القريبة من الإسلام ؟

الأمر الذى لاشك فيه أن الأمثال الجاهلية الأولى لم تظفر من العناية فى هذه المنطقة بما ظفرت به لدى المشارقة ، للأسباب التى ذكرنا . فقد عفى الزمن على أكثر هذه الأمثال الحجازية واليمنية القديمة ، ولم تجد من السلطة القائمة فى تلك العهود سندا يرعاها أو حارسا يحميها . بل نراها بعد ذلك لاتستطيع الصمود أمام تيارات الدعوات

---

(٢) جبور ٤٢ — ٤٣ .
(٣) جواد ١/٦٧ .
(٤) نفسه ١/٦٧ .
(٥) نفسه ١/٦٨ ومرجوليوث فى كتابه :
The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam (London 1924) p. 68.

الكتابية التى سعت جاهدة — فيما يبدو — إلى إزالتها ومحوها ، باعتبارها مظهرا من مظاهر المجد القومى الوثنى ، ولا سيما إذا عرفنا أن المسيحية كانت تجد مساندة وتأييدا من جانب الغساسنة والروم .

والذى نلاحظه أن نصيب الشق الغربى من الأمثال كان يعتمد بوجه عام على ثلاثة موارد : الأول هو هذه الأمثال التى نطق بها الحجازيون أو اليمانية ، قبيل الإسلام أو بعده ، وعليها طابع محلى ، يبدو فيما تشير إليه من حادثة أو فيما تدل عليه من لهجة ، أو فيما تعبر عنه من أفكار ونزعات . وقد اقترن هذا الطابع بأمثال الحجازيين واليمانية التى حدثت فى الإسلام إلى ما يقرب من نهاية القرن الأول الهجرى ، ولهذا نعد هذه الأمثال الحادثة فى الإسلام امتدادا للمثل الغربى القديم .

المورد الثانى:هو تلك الأمثال الشرقية التى انتقلت إلى المنطقة الغربية ولا سيما بعد أن وحد الإسلام بين العرب ، واختلط التراث شرقيه بغربيه ، وخفتت أصوات العصبيات ، فتلقى الحجازيون أمثال الشرق واتخذوها جزءا من تراثهم ولكنهم تناولوها أحيانا بالتغيير الذى يتناسب مع لغتهم وأمياهم ، ثم توسعوا فى استخدامها فقاسوا عليها واقتبسوا منها .

المورد الثالث : هو تلك الأمثال التى راجت فى هذه المنطقة . ومصدرها كتابىّ تعليمى ، ولم تكن لها — دائما — الصبغة التى تتوفر فى المثل الكتابى ، فقد أخذت أفكارها من كتب قديمة أو تعاليم قديمة ثم صيغت فى صورة المثل الشعبى .

ليس من اليسير دائما أن نميز المثل اليمنىّ عن الحجازىّ ، فقد لبس كل منهما ثوبا من العربية الفصحى يكاد يتشابه فى خصائصه . غير أننا نلاحظ أن بعض الصيغ قد ترد فى المثل فتشير إلى أصله اليمنى . ومن ذلك فيما نظن صيغة «فَعَالِ» الاسم المؤنث المبنى على الكسر ، ولدينا عدد من الأمثال وردت فيه هذه الصيغة . وقد جمع الباحث لـ . فولرز Vollers طائفة من أسماء الأماكن الواردة على وزن فعال المنتهية

بالكسر ، ورأى أن معظمها يرجع إلى اليمن وما جاورها[٦] . وإذا رجعنا إلى الحبشية القديمة وجدنا أن فَعَالْ faal هى صيغة المؤنث لوزن فعيل ، فيقال حديس (جديد) ومؤنثه حَدَاس (جديدة) ، ويقال طبيب (حكيم) ومؤنثه طباب ، عِبِّ (عظيم) ومؤنثه عَبَاى . أما الكسرة النهائية فى الصيغة العربية فلعلها بقية علامة تأنيث قديمة وهى t [٧] أضيفت إلى فعال التى نجد نظيرها فى الحبشية ، لتأكيد التأنيث فى الاسم أو الصفة . فلعل هذه الصيغة من أصل عربى جنوبى . وفى أمثالهم (من دخل ظَفَارِ حمر — أو تحمر)[٨] وظفار بلد باليمن وحمر تكلم بالحميرية . وقالوا : (روغى جَعَارِ وانظرى أين المفر) جعار الضبع ، وهو مثل يضرب للذى يهرب ولا يقدر أن يغلب صاحبه[٩] . وقالوا : (تيسى جعار) يضرب للاستكذاب ولم يعرف أصل هذه الكلمة . والتيس جبل باليمن ويقال فلان يتكلم بالتيسية أى بكلام أهل ذلك الجبل[١٠] وقالوا (اسق رقاش إنها سقاية) أى أحسن إليها كإحسانها إليك[١١] . ولاحظ أيضا قوله سقاية بدل سقاءة وهى لغة المنطقة الغربية فى تخفيف الهمزة[١٢] . وقالوا (أجرأ من فارس خَصَافِ) وهو اسم فرس لرجل من غسان[١٣] .

وفى الحجاز يبرز عدد من الأمثال على ألسنة أهله ، عليه طابع الإغراب ، ويذكرنا بتلك الألغاز التى رأيناها من قبل ، تستعصى على الفهم لتعقد تركيبها ولحاجتها إلى أصل يفسرها . من ذلك قول الحجاج بن يوسف الثقفى : « دُه درين سعد القين » ويروى « دهدرين وطرطبين » قاله الحجاج لقوم من الفرس فلم يفهموه ففُسر لهم ، وهو مثل يقال لمن يأتى الباطل استهزاء به . ويقول أبو هلال إنه كلمة لا معنى لها ،

---

(٦) رابين ١٥٦ .

(٧) برجشتراسر ٧٥ (وعلامة التأنيث أ ربما كانت هى الموجودة فى نحو كراهية وعفريت بالحاق تاء التأنيث بالياء) .

(٨) رابين ٤٩ . (٩) مزهر ١/٤٩٠ .

(١٠) ميدانى ١/١٤٧ (١٣٥٢) ، صفة جزيرة العرب ٧٢ (جبل تيس) وذكرها الهمدانى فى الاكليل (العاشر) اسما لبعض أولاد همدان أو حمير (إكليل ١٠٦ ، ١٠٧) .

(١١) عسكرى ١/٣٦ . (١٢) رابين ١٢١ وما يليها .

(١٣) ميدانى ١/١٩٠ (١٣٥٢)

والأصمعيّ لا يعرف أصله . وقال ابن الأعرابيّ : « وتركوا تنوين سعد استخفافا ونصبوا دهدرين على ضمير فعل »[١٤] . ولا ندرى بم نفسر هذا المثل ، ولعله بقية من لهجة حجازية بائدة ، وكان للحجاز لهجات ضاعت لا نعرف عنها شيئا يذكر ، وهى تمثل مرحلة سابقة على الطور الأدبى[١٥] .

وورد أن عمر بن الخطاب جاءه رجل يحمل لقيطا ، فقال عمر : « عسى الغوير أبؤسا » والغوير تصغير غار ، والأبؤس الشدائد جمع بؤس ، و إنما عرّض عمر بالرجل ، أى لعلك صاحب هذا اللقيط . وفى شرح « عسى » يختلف اللغويون لأن وضعها فى الجملة غريب عما ألفوه . قالوا معناها : « لعلّ الغويرَ يصير أبؤسا » وقالوا عسى بمعنى كان[١٦] . ولم يرد هذا الاستعمال فى القرآن الكريم ، و إنما وردت الكلمة مقرونة بأن والفعل . فالتركيب فى هذا المثل غريب فى بابه ، مما يجعلنا نميل إلى عده بقية لهجة قديمة لا نعرف مصدرها على وجه التحديد . ربما كانت لهجة حجازية من تلك اللهجات التى كانت سائدة قبل طور العربية الفصحى . ويخيل إلى أن عسى فى ذلك المثل تقابل فى الاستعمال الكلمة العبرية עָשָׂה àsàh أى « صنع » ويكون معنى المثل « صنع الغوير أبؤسا أى شدائد ونكبات » والمثل و إن تمثل به عمر فهو قديم كما قال أبو هلال[١٧] . أما رواية الميدانى القائلة بأن أصل المثل من قول الزباء ، قالته لقومها عند رجوع قصير من العراق ومعه الرجال وبات بالغوير على طريقه[١٨] ، فلا أظنها صحيحة ، وهى لا تنطبق على ما ورد فى أقدم نص لقصة الزباء ، فى كتاب الضبى[١٩] .

والمثل النابع من صميم البيئة هو مرآة لها ، شأنه فى ذلك شأن سائر فنون الأدب الشعبى ، يصور نزعات الناس وعاداتهم فى التفكير والتعبير والجد واللهو جميعا .

---

(١٤) عسكرى ١/٢٩٥ — ٦ .
(١٥) رابين ١ (١٦) ميدانى ١/ ٤٧٧ (١٣٥٢) .
(١٧) عسكرى ٢/٧٣ — ٧٤ .
(١٨) ميداني ١/٤٧٧ (١٣٥٢) .
(١٩) ضبى ٦٤ — ٦٨ .

رأينا هذا فى الأمثال العربية الشرقية . ونراه هنا كذلك فى الأمثال الغربية ، وماذا نتوقع من بيئات ، اشتغل أهلها بالزرع والرعى والتجارة ، واقتنوا الثروات ، وامتلأت ديارهم بالقوافل والمصارف والمراعى والنخيل ، ولهم فوق ذلك مراكز زاخرة فى المواسم والمجتمعات ، يلتقى فيها الغرباء والمواطنون ، للتجارة أحيانا ، ولأداء الشعائر الدينية أحيانا أخرى ، قد تهيأوا لتصورات دينية تعليمية قوامها العبادة والسلوك ، وامتلأت نفوسهم بما زخرت به هذه الحياة ، من مفارقات ومشاهدات وملاءٍ تبعث أحيانا على التسلية والفكاهة . تلك البيئات بجوانبها الاقتصادية والسلوكية ، لا بد أن تتجلى فى تلك الأمثال الحجازية النابعة من صميمها . وفيما يلى نذكر طائفة من الأمثال الناطقة بحجازيتها :

التمر فى البئر : يراد به من عمل عملا كان له مرجوعه ، وأصله أن مناديا كان يقوم فى الجاهلية على أطم من آطام المدينة حين يدرك البسر ، فينادى التمر فى البئر أى أكثروا من سقى نخلكم ، فإن من سقى وجد عاقبة سقيه فى تمره[٢٠] .

أقرى من حاسى الذهب : وهو عبد الله بن جُدْعان سيد مكة فى الجاهلية ، وكان يشرب فى إناء من الذهب[٢١] .

أصحّ من عَير أبى سيارة : وهو رجل من عدوان ، كان له حمار أسود ، أجاز الناس عليه من مزدلفة إلى منى أربعين سنة . وهو أول من سن الدية مائة من الإبل[٢٢] .

أقرش من الحبرّين : وهم هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب بنو عبد مناف ، ساروا بعد أبيهم فجبر الله بهم قريشا[٢٣] .

شاهدُ الثعلب ذنَبهُ : مثل مبتذل فى العامة ، جاء فى خبر لأبى بكر الصديق رضى الله عنه[٢٤] .

---

(٢٠) عسكرى ١/١٨٥ .
(٢١) عسكرى ٢/١٢٩ .
(٢٢) نفسه ٢/٤٠ .
(٢٣) نفسه ٢/١٢٨ — ٩ .
(٢٤) نفسه ٢/١٨ .

إن البيع مرتخص وغال : أول من قاله أُحَيحة بن الجُلاح سيد يثرب[٢٥] .

كل الصيد فى جوف الفَرَا : وأصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين . فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبيا ، والثالث حمارا . فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبى بما نالاه ، وتطاولا عليه . فقال الثالث : كل الصيد فى جوف الفرا أى هذا الذى رزقتُ وظفرتُ به يشتمل على ما عندكما . وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشى . قاله النبى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان يتألفه[٢٦] . ويبدو أن المثل قديم .

حتفَها تحمل ضأنٌ بأظلافها : يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة . وأصله أن رجلا وجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به ، فضربت بأظلافها الأرض فظهر سكين ، فذبحها به . وقد تمثل به حُرَيث بن حسان الشيبانى بين يدى النبى . والمثل قديم كما يفهم من قول حريث نفسه[٢٧] .

حَبْقَه حَبْقَه ، تَرْقَ عينَ بَقَّه : أول ما سمع كان من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قاله وهو يصعد المنبر يأمر نفسه بالتواضع . وتَرْقَ مشتقة من الرقى كما زعم أبو هلال[٢٨] . وربما كان من رقأ الدمع أو أرقأ الدمع إذا سكنه وحقنه ، وجاء مخففا على لغة الحجازيين[٢٩] . والمثل يضرب للرجل إذ تكبر وأعجبته نفسه .

وطائفة أخرى حظيت بالألفة الشعبية فى الحجاز ، يطالعنا منها روح فكه عذب ، وتصور ما عرف به الحجازيون فى كتب الأولين من ظَرْف ودُعابة[٣٠] . وللرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة أقوال ذهبت فى الناس أمثالا ، منها ما هو أدخل فى باب المثل الكتابىّ ، وهذه لها موضعها فيما بعد ، ومنها ما نراه أقرب إلى المثل الشعبىّ فى معناه ومبناه ، كانوا يرسلونها فى ساعات الاسترواح ، على سبيل التسلية والفكاهة .

---

(٢٥) ميدانى ١/٢١ (١٣٥٢) .
(٢٦) ميدانى ٢/٨٢ (١٣٥٢) ، شرح البكرى ١٤ .
(٢٧) نفسه ١/٢٠١ (١٣٥٢) .
(٢٨) عسكرى ١/٢٤٣ .
(٢٩) رابين ١٣١ وما يليها .
(٣٠) أغانى ١/١١٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦/٤٤ .

فللرسول صلى الله عليه وسلم عدد من الأحاديث يذكرنا بالألغاز اللفظية التى رأينا شواهد منها فى الشرق . وقد ذكر الغزى + ٩٨٤هـ طائفة منها فى كتابه المراح فى المزاح[٣١] ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان سائراً بأصحابه يقصد بدرا ، فلقيهم رجل من العرب ، فقال ممن القوم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم من ماء . فأخذ ذلك الرجل يفكر . من ماء ، من ماء ، لينظر أى بطون العرب يقال لها ماء . فسار النبى صلى الله عليه وسلم لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره . وفى ذلك يقول ابن الأثير (وهذا من المغالطة المَثَلِيّة ، لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب من ماء . ويجوز أن يكون المراد أن خلقهم من ماء[٣٢] .) ومن أمثال النبى قوله : (حولها ندندن) قالها لأعرابى ، وكان هذا الأعرابى قد سمع النبى ومعاذا يدندنان بالقراءة فقال الأعرابى : لا أعرف ما دندنتك ودندنة معاذ . أنا أريد الجنة أو كلاما هذا معناه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (حولها ندندن) أى إياها نطلب بهذه الدندنة[٣٣] . كذلك كان الذين عاصروا النبى ، فهذا أحد أصحابه يسخر بأبى جهل ، حين سمع أبو جهل قوله تعالى (عليها تسعةَ عشر) أى تسعة عشر ملكا من الملائكة ، فظن أبو جهل أنهم تسعة عشر رجلا . فقال له الصحابىّ (تقيس الملائكة بالحدادين) أى بالسجانين[٣٤] . وهذا عامر بن الطفيل ، أصيب بطاعون الإبل ، وهو يسمى عندهم بالغُدّة ، فأعياه السير ، فالتمس الراحة فى الطريق ، فمال إلى بيت امرأة سَلولية ، وكانت قبيلة سلول مضرب المثل فى الذل عند العرب ، وخشى عامر أن يموت فى بيت السلولية ، فقال (أغدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية) يضرب لاجتماع نوعين من الشر[٣٥] .

ولم يلبث أن خرج الحجازيون من بلادهم إلى حيث ميادين السياسة والحرب ، وما يتطلبانه من دهاء وتدبير ، وانعكست هذه الحياة الجديدة على طائفة من الأمثال نذكر منها :

---

(٣١) راجع كتاب المراح فى المزاح لبدر الدين الغزى + ٩٨٤ هـ (دمشق ١٣٤٩ هـ) ص ١٤ — ١٦ .

(٣٢) المثل السائر ٢/٢١٨ .

(٣٣) عسكرى ١/٢٥٨ .

(٣٤) نفسه ١/١٨٨ .

(٣٥) عسكرى ١/٦٧ ، ٦٩ .

من يردّ الفرات عن دِرَاجِه : قاله زيد بن صُوحان بعد أن أرسلت إليه عائشة كتابا تدعوه إلى تثبيط أهل الكوفة عن المسارعة إلى علىّ . يعنى أن الأمر خرج من يده فلا يقدر أن يردهم[٣٦] .

إن لله جنودا منها العسل : قاله معاوية حين قُتل عدوُّه « الأشتر » بعسل مسموم[٣٧] .

أفلت وانحصّ الذنَبُ : قاله معاوية ، وهو يضرب للرجل يفلت من الهلاك بعد الإشفاء عليه[٣٨] .

حرّك لها حُوارها تحنّ : أى ذكر الرجل ببعض أشجانه فيهتاج . قاله معاوية[٣٩] .

إذا حككتُ قُرحةً أدميتُها : يضرب للرجل المصيب بالظنون ، وإذا ظن فكأنه قد رأى . قاله عمرو بن العاص حين قتل عثمان ، وكان ممن اعتزل الفتنة فيه[٤٠] .

استراح من لاعقل له : قاله عمرو[٤١] .

أمكرا وأنت فى الحديد : قاله عبد الملك بن مروان لسعيد بن عمرو بن العاص وكان مكبلا ، فلما أراد قتله قال يا أمير المؤمنين : إن رأيت ألا تفضحنى ، بأن تخرجنى للناس فتقتلنى بحضرتهم فافعل . وإنما أراد سعيد بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك فيما أراد فيخرجه ، فإذا أظهره منعه أصحابه ، وحالوا بينه وبين قتله . فقال عبد الملك يا أبا أمية (أمكرا وأنت فى الحديد) يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور[٤٢] .

النبع يقرع بعضه بعضا : قاله زياد وكان على البصرة ، وكان المغيرة بن شعبة على الكوفة ، فتوفى المغيرة بها ، فخشى زياد أن يتولى مكانه عبد الله بن عامر ، وكان زياد يبغضه ، فكتب إلى معاوية يخبره بوفاة المغيرة ، ويشير عليه بتولية الضحاك بن

---

(٣٦) ميداني ٢/٢٧١ .
(٣٧) نفسه ١/١٤ .
(٣٨) عسكرى ١/٧٦ .
(٣٩) نفسه ١/٦٥ — ٦٦ .
(٤٠) نفسه ١/١٠٠ .
(٤١) نفسه / ١٠٣ .
(٤٢) عسكرى ١/٢٠ ، ميدانى ٢/٢٦٥ (١٣٥٢) .

قيس مكانه ، ففطن له معاوية ، فكتب إليه : قد فهمت كتابك (فلْيُفْرِخْ رَوْعك) بالمغيرة ، لسنا نستعمل ابن عامر على الكوفة ، وقد ضممناها إليك مع البصرة . فلما ورد على زياد كتابه قال (النبع يقرع بعضُه بعضا) فذهبت كلمتاهما مثلين . يضرب مثل زياد للمتكافئين فى الدهاء والمكر (٤٣) .

وفى أثناء حكم بنى أمية فى الشام ، كان المقيمون فى الحجاز من شباب أشراف مكة والمدينة يحيون حياة مترفة ، وقد فرض الأمويون لهم أرزاقا كبيرة ، ونشئوا هم فى أحضان النعمة ، خلف لهم آباؤهم الفاتحون ثروات ضخمة ، فهيأتهم حياة الفراغ والجدة للتمتع بصنوف اللهو ، تدفعهم مشاعر رقيقة مهذبة ، ازدهر فى ظلالها الحب والفن ، والفكاهة ، وكانوا إذا ذكروا مجد آبائهم ، ثارت فى نفوسهم هواجس السخط على بنى أمية ، فعبروا عنها فى سخرية . وقد سجلت أمثال هذه الفترة صورا من تلك الحياة . وحسبنا أن نورد طرفا من الأمثال التى جاءت على وزن أفعل والتى نبعت من هذه البيئات أو عبرت عنها على أقل تقدير (٤٤) .

أَتْجَرُ من عَقْرب : وهو تاجر من تجار المدينة كان أمطل الناس ، فعامله الفضل بن العباس بن أبى لهب فماطله ، فهجاه الفضل (٤٥) .

أطمع من أشعب : أشعب بن جبير + ١٥٥ هو صاحب النوادر ، ومضحك أهل المدينة ، وتقوم فكاهته على المبالغة ومحاكاة الهيئات والحركات والأصوات . وكان أشراف المدينة يستمتعون بنوادره ، كمصعب بن الزبير وسُكَينة وعبد الله بن مصعب . وقد أشاع عن نفسه نوادر تدل على أنه طماع ، حتى ضرب به المثل فى ذلك ، أدرك عثمان بن عفان ، وذهب إلى بغداد فى أواخر حياته (٤٦) .

---

(٤٣) ميدانى ٢٩٩/٢ — ٣٠٠ ويقول أبو هلال : (قال ابن الأنبارى : أول من قال (أفرخ روعك) معاوية ، وذلك خطأ ، وأول من قاله النبى صلى الله عليه وسلم) عسكرى ٥٦/١ .

(٤٤) راجع رأينا فى هذه الأمثال من حيث أصالتها الشعبية فى الفصل السادس من هذا الباب

(٤٥) عسكرى ١٩٦/١ .

(٤٦) راجع أخباره فى أغانى ط . بولاق ٨٣/١٧ ، العقد ٤٤٢/٣ط ١٢٩٧ هـ وجمع الجواهر ٥٤ — ٥٦ ، ١٦٦ ، ولسان الميزان ٤٥٠/١ — ٤٥٤ .

أتيه من أحمق ثقيف : التيه الكبر . يعنون يوسف بن عمر كان أمير العراق من قبل هشام فهم يسخرون به و يصفونه بالحماقة(٤٧) .

أخنث من هِنْب : ورد فى الميدانى أربعة أمثال تبدأ بقوله (أخنث من)(٤٨)، وكلها حجازية ، تشير إلى طبقة المخنثين الذين عاشوا فى الحجاز فى صدر الإسلام .

وكذلك قولهم : « أبطأ من فِنْد » وكان مخنثا(٤٩) .

---

(٤٧) عسكرى ١/١٩٨ (٤٨) — ميدان ١/٢٦٠، ٢٦٨ .

(٤٩) ميدانى ١/١٢٤ ، عسكرى ١/١٧٦ — ٧ (ورد هنب مصحفا فى بعض الروايات هيت) (راجع تاج العروس جـ ٤ ، ميدانى ١/٢٦١) .

٥ – المثل الغربى (٢)

. انتقل إلى الجانب الغربى جملة من الأمثال جاءت إليه من مصادر شتى ، واستطاعت البيئة أن (تؤقلم) هذه الأمثال ، فتلونها بصبغة شعبية ، وتخضعها لما جرت عليه الألسنة من لهجات وأساليب .

تلقى الحجاز أمثالا وجدناها مدونة من قبل فى المصادر الشرقية ، كالذى ورد فى كتاب الضبى من قولهم « مكره أخوك لابطل [١] » روى الضبى « أخوك » على الإعراب بالحروف ، ثم نجدها فى لهجات بعض المناطق الغربية (مُكْرَهٌ أخاك لابطل) بالبناء على الألف [٢] . وورد فى الضبى المثل (إذا عز أخوك فهُن) [٣] فإذا به يروى (إذا عز أخاك فهن) ولكن الجاحظ يعده لحنا [٤] .

ثم نلمح السِّمة الحجازية أحيانا فى الأمثال ، حين يختلف الرواة فى شرح ، قصصها ومواردها فيردونها إلى مصادر مختلفة ، كلا بحسب اجتهاده ، ونوع ثقافته ولون مُرَبَّاه . ففى شرح المثل القائل « حدا حدا وراءك بندقة » ، يرى شَرْقِىّ بن القطامىّ الكوفى أن (حدا) علم على قبيلة هى حدا بن نمرة بن سعد العشيرة ، وهم بالكوفة ، و بندقة من مظة ، وهو سفيان بن سلهم بن الحكم بن سعد العشيرة وهو باليمن . أغارت حدا على بندقة فقتلت منهم [٥] . أما أبو عبيدة البصرى فيرى أن المراد هو هذا الحدأ الذى يطير ، والبندقة ما يُرْمى به ، وهى كرة تُطْلَق من السهم يلعب بها الصبيان ، وهو مثل يضرب فى التحذير [٦] . فعلى قول أبى عبيدة يكون اللفظ جمع حَدَأة أسقطوا همزته . وفى اللسان (العامة تقول حدا حدا بالفتح غير مهموز). فالأقرب أن يكون المثل متأثرا بلهجة غربية أو هو غربى المورد ، فإن حذف الهمزة فى نحو (حدا) هو

---

(١) ضبى ٤٥ .
(٢) رابين ٧٠ .
(٣) ضبى ٦٠ .
(٤) يوهان ١٠٦ .
(٥) فاخر ٣٨ .
(٦) ميدانى (١/ ٢١٠) ١٣٥٢ .

ظاهرة مميزة للهجات الجانب الغربى[٧] . على أنه قد يصعب الاهتداء إلى مصدر المثل فى كثير من الأحيان ، كما فى شرح : (أنا النَّذِير العُرْيان) ؛ فقد أورد ابن الكلبيّ قصة وقعت حوادثها فى الحِيرة فى أيام المنذر بن ماء السماء[٨] . أما ابن سَلَمة فيشرح المثل بما يدل على أن مصدره حجازيّ ، إذ ينسبه إلى رجل من خثعم حمل عليه يوم ذى الخَلَصة[٩] . وآخرون يفسرونه بأن رجلا كان إذا رأى الغارة قد فجأتهم وأراد إنذار قومه ، تجرد من ثيابه ولوح بها ، إشارة إلى أن أمراً خطيرا قد فجأهم . ثم صار مثلا لكل أمر تخاف مفاجأته ، ولكل أمر لا شبهة فيه[١٠] .

وتلقى الرواة أفكارا كتابية ، فشرحوا بها أمثالا تبدو فى ظاهرها — على الأقل — أنها أمثال شعبية قديمة . فالمثل (تركوه جوف حمار) ، فسره الأصمعى بقوله : (ليس فيه شىء ينتفع به لأن الحمار لا يؤكل من بطنه شىء) . أما ابن الكلبى وشرقى بن القطامى — وهما من المدرسة الكوفية الكلبية — فقد شرحاه بقصة تحمل روحا كتابياً . قال ابن الكلبى : (حمار هو رجل من العمالقة — كان له بنون وواد خصب ، وكان حسن الطريقة ، فسافر بنوه فى بعض أسفارهم فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم ، فكفر بالله جل وعز وقال لا أعبد ربا أحرق بنى . وأخذ فى عبادة الأوثان فسلط الله على واديه نارا فذهبت به . والوادى بلغة أهل الشام يقال له الجوف . فأحرقه فما بقى فيه شىء ، فهو الذى يضرب به المثل فى كل ما لا بقية له[١١] . ويروى شرقى قصة مشابهة — مع تغيير طفيف — وينسب القصة إلى (حمار بن مالك بن نصر من الأزد) . ويقول ابن سلمة (والقول الأول — يعنى قول الأصمعى — أشبه بالحق وقال امرؤ القيس :

وخرقٍ كجوف العير قفرٍ مَضَلَّةٍ قطعت بسامٍ ساهم الوجه حُسان[١٢]

---

(٧) رابين ١٣١ .
(٨) ميدانى ١/٤٩ (١٣٥٣) .
(٩) فاخر ٦٩ — ٧٠ .
(١٠) ميدانى ١/٥٠ .
(١١) فاخر ١٢ — ١٣ .
(١٢) ديوان امرئ القيس وله رواية أخرى ميداني ٢/١١٤ (١٣٥٢) ، فاخر ١٣ .

ويرى مرجوليوث أن هنالك بعض الشبه بين تفسير ابن الكلبي وشرقي وبين ماورد على لسان إليفاز فى سفر أيوب ٢٢ : ١٥ — ١٨[١٣] .

ومن الأمثال التى يبدو الأثر الأجنبي فى صيغتها قولهم : «إلاّدِهِ فَلاَده» وهو كلمة قالها الكاهن عُزَيّ سلمة حين أتاه جماعة من ثقيف ، ومعهم عبد المطلب بن هاشم ، وكان من عادة زوار الكاهن أن يختبروا قدرته على العلم بالغيب ، فيسألوه عن شيء يخبئونه معهم ، فخبئوا له ،. وقالوا (لاده) أى بيِّن هذا الشيء ، فأجابهم الكاهن بكلام مبهم . فقالوا له : (لاده) . قال لهم : (إن لاده فلاده) هو رأس جراده فى خرز مزاده الخ . . . . وقد تلقاه الرواة فاختلفوا فى شرحه : قال الخليل بن أحمد إن (لاده) فارسية الأصل ، ورده أبو عبيدة إلى أصل عربى قال (أريد كذا وكذا ، فإن قيل له ليس يمكن ذا قال : فكذا وكذا) . وقال الأصمعى إن معناه إن لم يكن هذا الآن ، فلا يكون بعد الآن ، ولكنه لايدرى ما أصله ، وقال المنذرى (قالوا معناه إلا هذه ، فلا هذه ، يعنى أن الأصل إلا ذه فلاذه ، بالذال المعجمة ، فعربت بالدال غير المعجمة ، كما قالوا يهوذا ثم عرب فقيل يهودا ، وورد المثل فى شعر رؤبة بتنوين الهاء : إلادِهٍ فلادِهٍ[١٤] .

وبالرغم من أن حوادث القصة حجازية ، فإن المثل فيما نظن عبارة مأثورة من تلك المصطلحات العتيقة التى تترسب عادة إلى أهل الحرفة من عصور بعيدة الآماد .

والراجح عندى أن العبارة متأثرة بلهجة آرامية أو فارسية وأنها جاءت من جهة العراق ، وقد ذكرها رؤبة فى شعره وهو عراقى ، وحرفة الكِهانة من العلوم الدخيلة على العرب ، جاءتهم من الكَلْدان ، حملوها إليهم مع علم النجوم[١٥] .

ولا ننسى طائفة أخرى من الأمثال هى خرافات شعبية ، نشأت وترعرعت فى أوساط كتابية غالبا فى الفترة التى ظهر فيها الإسلام أو بعده بقليل ، ونود أن نقف

---

(١٣) Mragoliouth ; The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam (London 1924) p. 33.

(١٤) عسكرى ٦٢/١ ، ميدانى ٤٧/١ (١٣٥٢) .

(١٥) زيدان ١٨٧/١ .

قليلا عند ما جاء منها لتفسير خِلْقة الحيوان ، وما ورد منها فى أسلوب المحاورة .

هنالك نوع من قصص الخلق نجـدها منتشرة فى الأوساط الـكتابية ، يذيعها المعلمون والوعاظ لبيان حكمة الخالق فى خلقه ، وهنالك عدد من قصص الخلق ذاعت فى الـكتب المقدسة القديمة[١٦] ، وقد نجح صانعو هذه القصص فى صياغتها بعبارات شعبية ، حتى يمكن أن تتغلغل فى نفوس الناس ، وتذهب من نفوسهم كل مذهب ، وكثير من هذه القصص تنسب فى كتب الأمثال وغيرها إلى الأعراب ، فيقال زعمت الأعراب كذا و كذا ، وهذا من أكاذيب الأعراب. وقد يُظن أن هذه القصص لنسبتها إلى الأعراب ، قد نبعت أفكارها من البيئات البدوية الصميمة ، وليس بخاف أن هذه البيئات ، ولا سيما باديتى الشام والعراق كانت مرعى خصيبا للدعوة الـكتابية ، وكانت شديدة الصـلة بمراكز الثقافة التبشيرية فى العراق واليمن والشام ، وقد رأينا أن قبائل نجد قد تأثروا إلى حد كبير بالحضارة الحيرية والفارسية وشاركوا فيها ، كما ظهر فى الأمثال الشرقية .

قالوا : زعمت الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين ، فرجعت بلا أذنين ، فلذلك يسمون ذكر النعام الظليم ، ومن أمثالهم (كطالب القَرْن جُدِّعَت أذنه) :[١٧] أى ذهب النعام يطلب قرنا فجدعت أذنه ، ولذلك يقال له « مُصَلَّم الأذنين[١٨] » . ويروى أن بشّارا تمثل فقال : « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين »[١٩] ، وفى الميدانى أيضا (طالب القرن الحمار) . قال الشاعر :

كمثل حمار كان للقَرْن طالبا فآب بلا أذن وليس له قَرْن[٢٠]

وورد المثل فى شعر بعض الهذليين المخضرمين ، وهو أبو العيال الهذلىّ ، والهذليون مساكنهم فى الحجاز ، وهو يشير إلى النعامة لا إلى الحمار[٢١] .

وهناك مثل آرامىّ يهودى يقول (ذهب الجمل يطلب قرنين فرجع بلا أذنين)[٢٢]

---

(١٦) بنتسن ١/٢٤٢ .
(١٧) ميدانى ٢/٨٥ (١٣٥٢) .
(١٨) نفسه ٢/٨٦ .
(١٩) أغانى ط . دار الـكتب ٣/٥ .
(٢٠) ميداني ٢/٨٦ .
(٢١) حيوان ٤/٣٢٣ .
(٢٢) غويطاين ١٧٦ .

وبذلك يتبادل الدورَ ثلاثة من الحيوان ، ويبدو أن الجمل أقدمها وروداً فى المثل ؛ فقد ورد فى نص آرامى ، كما أن الحمار يمثل خَلْطا من الناطقين المتأخرين بين المثل الأصلىّ ، ومثل آخر يذكر أذنى الحمار[٢٣] .

ويقول الجاحظ فى قصة قنزعة الهدهد التى ضرب بها المثل فى النَّتْن : (أما القول فى الهدهد فإن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التى على رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه ! لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوَهْدة . والهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته فرب شىء يكون منتنا من نفسه ، من غير عرض يعرض له ، كالتيوس والحيات وغير ذلك من أجناس الحيوان . فأما الأعراب فيجعلون ذلك النتْن شيئا خامره بسبب تلك الجيفة ، التى كانت مدفونة فى رأسه ، وقد قال فى ذلك أمية (بن أبى الصلت) وغيره من شعرائهم[٢٤] . ولعل أمية هو أشهر من ذكر الهدهد فى الشعر الجاهلى . وله شعر آخر ، قُصد بالهدهد فيه « ذكر الحمام » وكلّ شىء غَنّى من الطير وهَدَر ودعا[٢٥] . ولكن قصدنا هنا وصف الهدهد صاحب القنزعة ، وقد وصفه شعراء متأخرون فى العصر العباسى متأثرين بما ورد فى القرآن الكريم[٢٦] فى قصة سليمان . وكان أمية بن أبى الصلت قد نقل قصصه من الكتب القديمة . وقد أشار أرستوفان فى كتابه « الطيور » إلى قنزعة الهدهد[٢٧] كما وردت قصة هدهد سليمان وملكة سبأ فى الترجوم الثانى فى سفر أستير الأول ويطلق عليه اسم (בתרגום אחרון) . وورد ذكر الهدهد باسم (דוכיפת)[٢٨] فى العبرية القديمة . وورد كذلك فى البشيطا (ܙ) . ومن المعروف أن الهدهد

---

(٢٣) نفسه ونفس الصفحة .

(٢٤) حيوان ٣/٥١٠ — ٥١١ .

(٢٥) نفسه ٣/٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٢٦) نفسه ٣/٥١٨ — ٥١٩ .

(٢٧) EBi ص ٢١٠٧ .

(٢٨) يرى بعض الباحثين أنها لفظ مركب معناه ديك الصخرة أو ديك الحسن ويرجح آخرون أن الكلمة تحريف للفظ kippod بمعنى قنفذ (EBi ص ٢١٠٧) .

من طيور الشام (فلسطين) يرحل شتاء إلى مصر أو قريبا منها ، ثم يعود فى مارس إلى فلسطين[٢٩] .

وضربوا المثل بهديل الحمام زعموا أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح ، فما من حمامة إلا وهى تبكيه وتدعوه فلا يجيبها[٣٠] . ويتصل بهذا زعمهم أن غراب نوح ، وهو عندهم مثل فى الإبطاء ، بعثه نوح لينظر هل غرقت البلاد ويأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه نوح بالخوف ، فلذلك لا يألف الناس[٣١] ، (والمثل يقول أبطأ من غراب نوح عليه السلام) . وقد رويت هذه القصة أيضا فى شعر أمية ، كما وردت فى سفر التكوين ٨ : ٦ — ٨ : (وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقة الفلك التى كان قد عملها ، وأرسل الغراب . فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة الخ . . . .) ولكن تفسير الجاحظ والميدانى يختلف قليلا عن نص التوراة . فلسنا نرى فى نص التوارة جيفة يقع عليها الغراب فتعوقه عن العودة[٣٢] .

ويضرب العرب المثل بطوق الحمامة فى طوق ملازمة الشىء وبقائه ، وأصله تتمة القصة السابقة ، فنوح بعد أن بعث الغراب بعث الحمامة لتنظر هل ترى فى الأرض موضعا يكون للسفينة مرفأ ، واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها (أى طلبته من نوح رشوة يمنحها أياه) فرشاها بذلك وجعل ذلك جعلا لها . وفى ذلك يقول أمية :

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى فى الأرض عينا ... وغايته من الماء العباب
فلما فرسوا الآيات صاغوا ... لها طوقا كما عُقِدَ السِّخَابُ[٣٣]

---

(٢٩) المرجع السابق ونفس الصفحة . (٣٠) عسكرى ١/١٤ .
(٣١) ميدانى ١/١٢٥ ، حيوان ٢/٣٢١ .
(٣٢) قارن بالنص البابلى ANET ص ٩٥ (فخرج الغراب فرأى المياه قد نقصت) .
(٣٣) حيوان ٢/٣٢١ والسخاب قلادة تتخذ من قرنفل ومسك ومحلب ، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شىء .

وهـذا يقابل ما ورد فى سفر التـكوين ٨ : ٨ — ١١ (ثم أرسـل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك ، لأن مياها كانت على وجه كل الأرض ، فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفُلْك ، فلبث أيضا سبعة أيام أُخَر ، وعاد فأرسل الحمامة من الفلك ، فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها ، فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض) . ولـكننا لا نجد فـكرة الطوق ومنحه الحمامة فى هذا النص ، ويبدو أنه ورد فى بعض تفاسير التوراة المتأخرة . ولعل هذه الفـكرة جاءت نتيجة لفظ مشترك . فقد وردت كلمة tor ך ר ת فى التـكوين ١٥ : ٩ بمعنى اليمامة أو الحمامة[٣٤] .وهذا اللفظ نفسه يرد بمعنى الطوق فى العبرية أيضا[٣٥] . ولا يبعد أن يكون شراح التوراة المتأخرون قد صنعوا قصة الطوق بوحى من هذا اللفظ المشترك . ولدينا عدد من الألفاظ المشتركة فى اللغات السامية قد أوحى إلى صناع الـكلام وعامة الناس ، أن ينسجوا عليها قصصا ومعتقدات ، فمن ذلك «نوح الحمام» . والأدب القديم — جاهليا وإسلاميا — زاخر بذكر الحمام النواح . وقد ورد هذا الوصف نفسه فى التوراة فى نحميا ٢ : ٨ (ם י ו נ ה כ ק ו ב) وفى إشعيا ٣٨ : ١٤ (ם י ו נ ה כ ג ה) ولعل معنى النوح مأخوذ من لفظ مشترك مع ה נ ו ה (الحمامة) بمعنى الحزن[٣٦] . ويبدو أن كثيرا من المعتقدات التى جعلت الغراب رمزا للفرقة مستفاد من الصلة بين الغراب والغربة[٣٧] . وتشاءم العرب من (البان) وجعلوه رمز الفرقة لأنه ذو صلة لفظية بالبينونة[٣٨] .

وقد يطول المقام إذا تتبعنا مضارب الأمثال بالحيوان فى العربية وصلتها بالاستعمال السامى. وإذا رجعنا إلى ديوان أمية فقد تعجب من عنايته البالغة بنظم هذه القصص

---

(٣٤) قاموس عبرى ת ו ר ך ص ١٠٧٦ ، EBi (dove) ص ١١٢٩ .
(٣٥) قاموس عبرى (ص ١٠٦٤) .
(٣٦) قاموس عبرى ص ٤٠١ . (٣٧) حيوان ٣/٤٣٧ .
(٣٨) نفسه ٣/٤٤١ .

فى شعره وهى فى معظمها كتابية تتعلق بالخَلْق والتكوين . فقد نظم فى الكلب (ص ١٨) وفى الهدهد والقراد (ص ٢٦) والحيـة التى تخرج من جحرها باسم الله (ص ٣١) وحمامة نوح (٣٣) والغراب الذى خان أمانة الديك، والحمامة التى لازمها الطوق ، والديك والغراب(٣٥،٣٩)وما خلق الله من حيوان كالنمل والتماسيح والتياتل والصوار والأسود والديوك التى تدعو الغراب والذر والجراد (ص ٤٣) وآية الله فى خلق الفيل (٧٢)[٣٩]

ثم لنقف قليلا عند ما نسميه الخرافات الحوارية . وأسلوب المحاورة فى بث التعـاليم الخلقية والدينية ، وسيلة معروفة بين حكماء اليونان المتقدمين ، ولاسيما السفسطائيين الذين كانوا مولعين بالجدل والمحاورة فى أى موضوع يعرض لهم ، بقصد إظهار المقدرة البيانية[٤٠] ، ولا بد أن هـذه الطريقة قد تسربت إلى اليهودية والمسيحية منذ أن بدأ فلاسفة الإسكندرية مثل فيلو (٢٠ ق . م — ٥٠ م) وأوريجين (١٨٥ — ٢٥٣ م) فى تطعيم الديانتين بالتفـكير الفلسفىّ اليونانىّ ، وكانت المحاورة عنصرا هاما فى محاضرات علمائهم ومؤلفاتهم .

وسبق أن رأينا أسلوب الحوار والمراجعة فى كتاب منسوب إلى عَبيد بن شَرِيَّة ، وقلنا إنه يذكرنا بأسلوب السريان فى توضيح وجهات النظر ومناقشتها[٤١].

والمحاورة خير وسيلة لتعليم سواد الشعب وتسليتهم ، ففيها نوع من (المباراة) التى تبعث على التسلية ، وتجتذب الانتباه ، وتخلق روح الحماسة . أضف إلى ذلك أنها كانت وسيلة محببة لدى العرب القدماء ، فازدهرت عندهم المفاخرة والمنافرة والتكاذب والمسامرة وما شاكل ذلك من محاورات جرت فى مجالس الكبراء ، وفى المجتمعات العامة مما تَغَصّ به كتب القدماء .

ولليمن قبيل الإسلام ، نصيب كبير فى إذاعة الخرافات الحوارية ، ولم يكد

---

(٣٩) ديوان أمية بن أبى الصلت . نشر الباحث Schulthess.

(٤٠) ERE ٤/١٠١ .

(٤١) انظر الفصل الأول من هذا الباب (يسمى الفرنجة هذا الأسلوب (Catechism).

يظهر الإسلام حتى وجدنا عددا من أهل الكتاب الذين ينتمون إلى أصل يمنىّ ، يعتنقون الإسلام ، ويشيعون كثيرا من هذه الثقافة اليمنية الكتابية القديمة ، ومنها هذه القصص ، وقد درج العلماء على تسمية هذه الثقافة ونحوها مما شاع فى شبه الجزيرة أو على ألسنة المفسرين والقصاص بالإسرائيليات ، وكانت مادة القصص منذ قديم يقصد بها الوعظ والتسلية معا . وكان لطائفة القصاص نفوذ فى المجتمع العربى القديم ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم وعدداً من الصحابة ، كانوا يقاومون هذا التيار وينكرونه على أصحابه[٤٢] . وقد عرف كعب الأحبار (+ ١٤ هـ) ووهب ابن منبه (+ ١١٠ هـ) وتميم الدارى (+ ٤٠ هـ) ويزيد بن مفرغ الحميرىّ + ٦٩ هـ بأنهم من أبطال القصص الكتابى[٤٣] ، ويشير أحد شعراء اليمن ، يزيد بن مفرغ الحميرىّ ، وهو من أنصار على بن أبى طالب ، وكان قد ساير الأمويين وآل زياد بن أبيه[٤٤] — يشير فى بعض شعره إلى خرافة حوارية ، إذ يقول مؤنبا معاوية على دعوة زياد .

فأشهد أن رِحْمَك من زياد كرِحْم الفيلِ من ولد الأتان

وأصل هذه الخرافة ذكره حمزة الأصفهانى (+ ٣٥٠ هـ) فقال : (زعموا أن الحمار والفيل تجمعا فى مرعى ، فطرد الفيلُ الحمارَ ، فقال له : لماذا تطردنى مع اشتباك الرحم بينى و بينك ؟ فقال : من أين هذا الرحم . فقال : من أن فى غُرْمُولى شبها من خرطومك . فقبل الفيل هذه القرابة ، فسار بهما المثل ، فقيل : « كرِحم الفيل من الحمار » وقال يزيد بن مفرغ الحميرى البيت[٤٥] . . .)

ونقل صاحب العقد الفريد بعض قصص حيوانية تنطق بإسرائيليتها[٤٦] ،

---

(٤٢) راجع (تحذير الخواص ، من أكاذيب القصاص) للسيوطى (مصر ١٣٥١ هـ) وراجع ص ٧٧ بخاصة .

(٤٣) راجع عن وهب الباب الثالث من هذا الكتاب ، وراجع عن يزيد بن مفرغ (تاريخ الآداب العربية للأستاذ نلينو (دار المعارف ١٩٥٥) ص ٢٨٣ . وعن تميم انظر رسالة المقريزى « ضوء السارى ، لمعرفة خبر تميم الدارى » وهى منشورة فى مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية JPOS (مجلد ١٩ سنة ١٩٤١ رقم ٣ — ٤)

(٤٤) زيدان ٢٥١ . (٤٥) منفوخ ص ٦ .

(٤٦) راجع كتاب الجوهرة فى الأمثال — الجزء الثانى من العقد الفريد ، أذكياء ١٥٦ .

من ذلك ما روى عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بنى إسرائيل فخا ، فجاءت عصفورة ، فنزلت عليه ، فقالت : ما لى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت . قالت : فمالى أراك بادية عظامُك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قُرْبان ، إن مر بى مسكين ناولته إياها . قال فخذيها ، فدنت ، فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره : لاغَرَّنى ناسك مُراء بعدك أبدا) .

وأكثر هذه القصص يتسم بطابع (الحيلة) أو قل إن الحيلة عنصر مشترك فيها . وقد رُويت قصص من هذا القبيل عن سليمان بن داود ، ونسبها الرواة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى الرواة المتقدمين أحيانا . فمن ذلك قصة يحتال فيها سليمان ليعرف سارق الاوزّ . وأخرى يدبر فيها سليمان أمرا ، ليكتشف أم الصبى الحقيقية ، وقد جاءه امرأتان تختصمان إليه فى صبى ، كل تدعيه لنفسها[٤٧] .

ومثل هذا الأسلوب ، فى الحوار ، وفى استهداف الحيلة ، يتجلى فى قصة الأرنب والثعلب والضبّ . يقول الميدانى : (هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم ، قالوا : أن الأرنب التقطت تمرةً ، فاختلسها الثعلب ، فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب . فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل . فقال : سميعاً دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك ، قال : عادلا حكمتما . قالت : فاخرج إلينا . قال : فى بيته يُؤْتَى الحكم . قالت : إنى وجدت تمرة . قال حلوة فكليها . قالت : فاختلسها الثعلب . قال لنفسه : بغى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى . قال : حُرٌّ انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت ، فذهبت أقواله كلها أمثالا[٤٨] . (و إن مشابهة هذه القصة لسابقتها تجعلنا نرجح أنها من تلك المجموعة التى أشاعها الكتابيون فى بلاد العرب ، قبيل الإسلام ، أو بعده مباشرة .

---

(٤٧) أذكياء ٩٩ .

(٤٨) ميدانى ١/١٩ (١٣٥٢) .

ويتجلى عنصر (الحيلة) كذلك فى خرافة حوارية رويت عن علىّ بن أبى طالب . يقول الميدانىّ : (يروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله تعالى عنه قال : إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كنّ فى أجمة . أبيضَ وأسودَ وأحمرَ ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شىء ، لاجتماعهن عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض ، فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة . فقالا : دونك فكله . فأكله . ثم قال للأحمر : لونى على لونك . فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة . فقال : دونك فكله . فأكله . ثم قال للأحمر إنى آكلك لامحالة . فقال دعنى أنادى ثلاثا . فقال : افعل . فنادى : ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض : ثم قال علىّ رضى الله تعالى عنه : ألا إنى هُنت — ويروى وَهَنْت — يوم قتل عثمان ؛ يرفع بها صوته . (مثل) يضرب به الرجل يُرْزَأ بأخيه[٤٩] .

وقد ورد هذا المثل فى كتاب كليلة ودمنة ، ولاحظ هذا أبو هلال[٥٠] . كما أنه ورد مختصرا فى خرافات إيسوب[٥١] . فإذا صحت رواية هذا المثل عن على بن أبى طالب ، وهو أسبق فى التاريخ من ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة ، فمن الممكن أن نفترض أن المثل عرفه الآراميون ، الذين سكنوا فى الحجاز أو اليمن ، من طريق الترجمة السريانية لكتاب كليلة ودمنة — وقد ترجم حوالى ٥٧٠ م — أو نفترض أن المثل عرفه الكتابيون فى هذه المنطقة من طريق خرافات إيسوب التى كانت قد عرفها اليهود من قبل وتدارسوها فى مجالسهم ومدارسهم[٥٢] .

---

(٤٩) ميدانى ١/٢٧ (١٣٥٢) .
(٥٠) عسكرى ١/٤٧ .
(٥١) خرافات إيسوب ٢٠٦ .
(٥٢) راجع الباب الثالث من هذا الكتاب .

٦ – المثل الأصيل

الألفة الشعبية ركن هام من أركان المثل الشعبيّ ، ولا تأخذ العبارة حُكم المثل الشعبي إلا إذا كانت نابعة من الجماهير ، أو تكون مقبولة لديهم بحسبانها حقيقة . فالمثل فى أعمق معانيه ، هو صوت الشعب vox populi أو سِمَة شعبية تواضع سواد الناس على تقديرها ، والتسليم بما فيها[١] . وليس من الممكن أن نعد عبارة يخترعها أديب ، أو كلاما ينشئه كاتب ، من جملة الأمثال ، إلا إذا ظفرت بالألفة الشعبية ، وصارت كلمة الشعب ، وسارت فى الناس، فحينئذ تندرج تحت لواء الأمثال . ولقد قام أحد الإنجليز وهو جيمس هاول J. Hôwell بجمع طائفة من الأمثال فى سنة ١٦٥٩ وأدمج فيها خمسمائة عبارة من إنشائه ووضعه ، ولكنها لم تظفر بهذا الطابع الشعبيّ ، فلم تذهب فى الناس أمثالا ، ولم يتناقلوها فيما بينهم[٢] .

ويتضح عنصر الشعبية فى اشتقاق اللفظ الدال على المثل فى اللاتينية واليونانية . ففى اللاتينية تدل الكلمة proverbium على (الكلمة التى تقال أمام الملأ) ، ويرادفها لفظ adaguim ويردّونها عادة إلى العبارة : ad agendum aptum ومنها اشتقت الإنجليزية كلمة adage وكلها تدل على هذا العنصر الشعبيّ ، كما تدل على مغزى خلقى ، وتنطق بالوظيفة العملية للمثل . أما الكلمة اليونانية παροιμία فهى تدل على التعبير الشائع الذى تبتذله العامة[٣] .

فالمثل الأصيل إذن هو عبارة لها ماض ، تنمو من صميم البيئة ، وتنبع من موارد القومية ، واستحسان الشعب لها هو الذى يمنحها ذلك التأثير العميق ، حتى ولو كانت تتضمن معانى زائفة ، أو مبادىء غير صحيحة .

---

(١) ERE ١٠/٤١٢ ب .
(٢) نفسه ١٠/٤١٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

وهذا يصدق على الأمثال العربية القديمة شرقيها وغربيها . يصدق على صيغها وموادها . قد يكون موضوع المثل من أصل غير عربيّ ، ولكن لا يلبث أن يتبنّاه الشعب ، ويتخذه جزءا من تراثه ، ويصوغ هذا الموضوع الغريب ، فى أسلوب مألوف لديه ، ويلبسه ثوبا شعبيا يرضاه ويستحسنه . فالصيغة — على الأقل — عنصر أساسى فى شعبية المثل وأصالته ، وإذا فَقَد المثل طابعه الشكلىّ ، فقد أهدر ركنا هاما من أركان شعبيته وأصالته . ولقد أدرك الرُّواة أهمية الصيغة فى المثل ، فحافظوا على رواية صيغة المثل كما سمعوها ، ولو كان فيها ما يخالف العربية . ولم تكن لديهم حيلة فى رد ما أصاب بعض الأمثال من تصحيف وتحريف وتغير صوتى . فهذا راجع فى الأغلب الأعم إلى طبيعة الكتابة العربية ، ولهجات الناطقين بالعربية . وفيما عدا ذلك حرصوا على الصيغة التى تلقوها عن الأسلاف . يقول أبو عبيد فى المثل : «(أجناؤها أبناؤها) معناه : الذين جنوا على هذه الدار بالهدم ، هم الذين كانوا بنوها . وأنا أظن أن أصل المثل : جناتُها بناتُها لا أبناؤها ، لأن فاعلا لا يجمع على أفعال ، إلا أن يكون هذا من النوادر ، لأنه يجىء فى الأمثال ما لا يجىء فى غيرها »[٤] . وورد فى المزهر للسيوطى : (قاعدة : — الأمثال لا تغير ، بل تجرى كما جاءت . قال ابن دريد فى الجمهرة وابن خالويه : كانت نساء الأعراب يُؤَخِّذن الرجال بخرزة ويقُلْن : يا قبلة قبليه ، ويا كرار كريه ، أعيذه باليعجلب . هكذا جاء الكلام وإن كان ملحونا ، لأن العرب تجرى الأمثال على ما جاءت ، ولا تستعمل فيها الإعراب[٥]). ويروون المثل (أعط القوس باريها) بتسكين الياء ، وإن كان التحريك هو الأصل ، وذلك لوقوع المثل فى الأصل على ذلك[٦] .

ومع ذلك لا سبيل إلى إنكار أثر العوامل المختلفة التى تسعى إلى (تطوير) المثل ، فقد يعتور المثل ، فى أثناء تناقله على الألسنة فى خلال العصور ، بعض التغيير فى مبناه ، أو فى معناه ، أو فى كليهما معا . وقد يصيب المثل تغيير بالتطويل والتقصير ، كقولهم :

(٤) عسكرى ١/٧٣ — ٧٤ ، مزهر ١/٤٨٧ .
(٥) مزهر ١/٤٨٧ . (٦) مزهر ١/٤٨٧ ، فاخر ٢٤٦ .

(شَوَلان البَروق)[٧] . والبروق الناقة التى تُشيل ذنبها . ترى أهلها أنها لاقح وليست بلاقح . يورده الميدانىّ مرة هكذا (يَهيج لى السقام ، شَوَلان البَروق فى كل عام)[٨] . ومرة هكذا (لا أحسن تكذابَك وتأثامَك تشول بلسانك شَوَلان البَرُوق)[٩] . وكقولهم (ألوى بعيدُ المُسْتَمَرّ)[١٠] مثل قاله النعمان. والألوى : هو المانع لما عنده ، والمستمر : استمرار عقله وحزمه . نجده فى الميدانى (لتجدَنّ فلانا ألوى بعيد المستمر)[١١] وقد تتلقى الأجيال اللاحقة مثلا فيجرى فى سياق أحاديثهم ويكتسب مغزى لم يكن له من قبل . ففى المثل القائل (أسَعْد أم سُعَيد) لم يرد له فى أمثال الضبى مغزى . ومن المعروف أن (تغزية المثل) moralisation مرحلة متأخرة ، تأتى مع تناقله على ألسنة الناس ، ويكون المغزى فى كثير من الأحيان مختلفا باختلاف الأفهام والناطقين. والمثل الشعبى ، أساسا ، لايتخذ المغزى عنصرا أساسيا له . فقد يراد بضربه مجرد الوصف والتقرير ، أو التفكه والتسلية: ولكننا نرى الميدانى يجعل لهذا المثل مغزيين مختلفين : أحدهما هو العناية بذى الرحم . والثانى هو المغزى الذى فهمه الحجّاج ابن يوسف ، وهو الاستخبار عن الأمرين : الخير والشر أيُّهما وقع[١٢]؟ وكثير من الخرافات كانت فى أول أمرها خالية من المغزى الوعظىّ ، كانت تُروى لمجرد التسلية أو الوصف ، ثم طرأ عليها المغزى[١٣] . أضف إلى ذلك أن المثل قد يتطور فى مبناه وأسلوبه ، فيدخله شىء من التحسين والصنعة . فالمثل القديم يقول (بَرْق الخلب) فينظمه الشاعر فى قوله (بُرُوق الصيف كاذبة الوعود). ويستحسن المتأخرون هذا القول الأخير فيصيرونه مثلا[١٤] . وقد يلعب القياس دورا هاما فى تطور صيغ الأمثال ومعانيها . فهنالك طائفة منها انتقلت إلى الأقطار الإسلامية بعد الفتوح ، وحاكاها سكانها مع تغيير جزئى كانت تقتضيه الألفة الشعبية لدى كل بيئة . والذوق

---

(٧) ضبى ١٦ .
(٨) ميدانى ٢/ ٣٧٧ (١٣٥٢) .
(٩) نفسه ٢/١٦٩ .
(١٠) ضبى ١٢ .
(١١) ميدانى ٢/١٤١ .
(١٢) ميدانى ١/٣٤٢ (١٣٥٢) .
(١٣) EBr ١٠/١١٤ ب .
(١٤) عقد ٦/١٩٩ .

العام لدى كل أمة . فالعربى القديم يقول : (حتى يئوب المُنخَّل) وهو مثل مأخوذ من شعر النمر بن تَولَب[١٥] . والبصرىّ يقول : (حتى يئوب المُثَلَّم) وهو الذى قتله الخوارج انتقاما[١٦] ، ويقول أيضا: (حتى يرجع نَشِيط من مرو) وهو مولى لعبيدالله ابن زياد ، بنى له دارا فلم يرضها ، وأمر بهدمها ، فهرب نشيط إلى مرو فرارا بنفسه ولم يرجع[١٧] . والكوفىّ يقول : (حتى يرجع مَصْقلة من طَبَرِسْتان) وهو مصقلة ابن هبيرة ، كان واليا من قِبَل علىّ بن أبى طالب ، وكان قد هرب من الكوفة بمائتى ألف درهم ، ولجأ إلى معاوية[١٨] . والعربىّ يقول : (جاء برأس كليب) والفارسى يقول: (جاء برأس خاقان)[١٩] . وهذا يشير إلى حادثة أموية وقعت سنة ١١٩ هـ[٢٠] . والعربىّ القديم يقول : (كمستبضِع التمر إلى هجر) ذلك أن هجر معدن التمر ، والمستبضع إليه مخطىء . وجاء حسان بن ثابت — أو النابغة الجعدىّ — فجعل المثل فى الشعر وقال (كمستبضِعٍ تمراً إلى أهل خَيبرا) وأصبح هذا القول مثلا[٢١] .

قد يطرأ هذا ونحوه على المثل فى أثناء تطوره . وهو أمر طبيعىّ ، لا سبيل إلى إنكاره ، ولا ينقص من قيمة المثل الشعبيةُ ولا أصالته فى البيئة التى نبع منها . ولكننا إذا تصفحنا مدونات الأمثال العربية ولا سيما المتأخرة منها ، وجدنا مايدل على أن الرواة وصناع الكلام ، لم يقصُروا عملهم على تلقى الأمثال القديمة الأصيلة وروايتها ، واستخدامها ، بل أسهموا فى صناعة الأمثال أحيانا ، وفى إدخال عدد غير قليل من العبارات غير المثلية فى عداد الأمثال ، وهم بذلك قد نَسُوا هذه الألفة الشعبية ، التى هى عنصر أساسىّ فى المثل ، والتى لم تكن متوافرة دائما فيما روَوْه وصنعوه .

---

(١٥) عسكرى ١/٢٤١ .
(١٦) ميدانى ١/٢٢٥ .
(١٧) عسكرى ١/٢٤١ .
(١٨) نفسه ١/٢٤٣ .
(١٩) فاخر ٨٠ .
(٢٠) E I (من مقال بروكلمان تحت مادة مثل) .
(٢١) عسكرى ٢/١٤١ ، ميدانى ٢/٩٨ .

٧ — المثل الذى جاء على وزن أفعل

وهذا مثال من تلك الأمثال المصطَنعة ، التى أقحمها الرواة وصناع الكلام ، على الأمثال الأصيلة . وسنرى أن معظم هذا النوع ، على كثرة وروده فى مدونات الأمثال مستحدث ، أضافه الرواة إلى المثل القديم ، وهو فى كثير من الأحيان لم يظفر — فى صورته الشكلية على الأقل — بالألفة الشعبية التى أشرنا إليها من قبل .

من عادة العرب أن تبالغ فى وصف الشىء[1] . والمثل الذى على وزن أفعل هو صورة من صور المبالغة عندهم . قالوا : أبعد من النجم ، وأبين من وضح الصبح ، وأبصر من عقاب ، وأسخى من حاتم . فلم يرضَوا أن يكون المضروب له المثل مشابها للنجم فى البعد ، وللصبح فى الوضوح ، وللعُقاب فى قوة البصر ، ولحاتم فى السخاء حتى جعلوه أعلى من ذلك درجة ، وأعظم شأنا . وتشتمل هذه الأمثال على مَثُلات key-words وقدوات examples ، وهى فى العادة تكون من الناس أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، تحولت صفاتها عن الواقع المألوف فصارت رموزا أو نماذج types ، فجعلوا أبا غبْشان ودُغَة وجُحا وهَبَنَّقه وأهل هَجَر وعِجْل بن لَجيم مضرب المثل فى الحماقة . وجعلوا الأسد مضرب المثل فى الجرأة . وظل الرمح فى الطول ، و بقلة الرجلة فى الحماقة ، والذباب فى الطيش ، والجبال فى الثقالة . ولكن إلى أى حد نعد صيغة المثل هذه أصيلة فى المَثَلية .

١ — أول ما نلاحظه فى صيغة هذا المثل ، أنها مما تنفرد به العربية دون أخواتها السامية . ذلك أن صيغة (أفعل من) ليس لها نظير فى العبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية القديمة[2] . فإذا أرادت إحدى هذه اللغات أن تعبر عن التفضيل استخدمت الصفات العادية دون زيادة ، تقول الحبشية ጸዓተ : ኀየለ : እምኔሁ (تكوين ٣٨ : ٢٦) والعبرية צָדְקָה מִמֶּנִּי ومعناها

(١) قدامة ٦١ .

(٢) برجشتراسر ١٠١ .

(تامار أصدق منى) . فالحبشية تقول تامار (صادقة منى) وكذلك العبرية . وليس فى العربية لهذا الاستعمال من أثر إلا فى كلمتى « خير وشر » يردان فى موضع صيغة التفضيل ، على صورتهما دون تغيير .

و يبدو أن الهمزة ، فى أول الصيغة فى العربية هى فى الأصل مقطع ألصق بالصفة للمبالغة ، كما قالوا : ألمعىّ ، وأحوزىّ ، وأحوذىّ .

فالمثل (أفعل من كذا) ليس له أصالة فى الآداب السامية ، و إن كان الساميون كالعرب قد اشتركوا فى الولع بالتشبيه والتفضيل . غير أنهم استخدموا وسائل أخرى فى صياغة أمثالهم .

٢ — وقد يهول الباحثَ فى تطور المثل العربىّ (أفعل من) أن يجد أن المدونات المتأخرة ، قد حوت منه أعدادا هائلة ، فى حين أن أقدم مادون من الأمثال ، لم يذكر منه إلا بضعة أمثال ، وأن أصحاب الاتجاه العربى القديم ، فى الرواية والتأليف ، قد أوردوا عددا قليلا جدا من هذه الأمثال ، وأن الكثرة الغالبة منها جاءت فى مدونات أصحاب الاتجاه الإسلامى المستحدث .

أورد الضبى ثمانية أمثال على هذه الصيغة هى :

— أسرعُ من نكاح أم خارجة (ص١١)
— أشأم من داحس (ص٤٤)
— أعزُّ من كُليب بن وائل (ص٥٥)
— أشأم من ناقة البَسوس (ص٥٦)
— أشأم من خَوْتعة (ص٥٨)
— أثقل من حِمْل الدُّهَيم (ص٥٩)
— أمنع من عُقاب الجوّ (ص٦٥)
— أحمقُ من دُغَه (؟) (ص٨١)

وأورد الضبي هذا العدد من جملة أمثاله البالغ عددها حوالى ١٥٠ مثلا . ويليه من أصحاب النزعة العربية القديمة ، ممن صنفوا فى الأمثال ، أو أوردوا طرفا منها فى كتبهم ، المفضل بن سلمة (+ ٢٧٥ هـ) ؛ أورد حوالى ١٧ مثلا من جملة ٥٢١ مثلا. وهذا تفصيل تلك الأمثال السبعة عشر :

(ا) فأربعة أمثال وردت من قبل فى كتاب الضبىّ وهى غالبا قديمة .

(ب) ومثل واحد وهو (أجبن من المنزوف ضَرْطا)[٣] ، إشارة إلى قصة عمرو بن عمرو مع بنت عمه دَختنوس بنت لقيط . وهذه القصة وردت فى كتاب الضبى مشتملة على مثلين فقط ، هما (الصيف ضيعت اللبن ، وهذا ومَذْقة خير). ويبدو أن هذا المثل قد شاع فى البصرة بين نهاية القرن الثانى وأوائل الثالث ، فأضيف إلى هذه القصة . وهو رواية الأصمعىّ .

(حـ) وخمسة أمثال منها تشير إلى أشخاص إسلاميين وهى : (أجسر من قاتل عُقْبة (٧٨) أحلم من أحنف (٢٤٢) أشأم من طويس (٨٥) أشغل من ذات النحيين (٧٠) أطمع من أشعب (٨٥)) .

(ء) وخمسة أخر من أمثال الحيوان ، وهى أجلُّ من الحرش (١٨٣) ، أفسى من النمس (٢٤٣) . أكبر من لُبَد (٦٨) أكيس من قَشَّة (قردة) (٦٥) . أقل من النقد) . ويلاحظ أن هذه الأمثال فى معظمها مبنية على ملاحظات من سلوك الحيوان وطبائعه ، أما قوله « أكبر من لُبَد » فهو إشارة مستحدثة إلى بعض ما ورد فى قصص لقمان . ولم يرد هذا المثل فى صميم قصة لقمان ، أى لم يكن عبارة مقتبسة من نص ، القصة ولكنه مأخوذ من المعنى .

(هـ) ومثل واحد هو (أكفر من حمار) ، وهو قصة رجل من العمالقة أو من الأزد ، كفر بالله لأنه أحرق أبناءه ، فعبد الأصنام، فلقى من الله جزاءه . وهذا تفسير المثل الذى أشرنا إليه فيما سبق (تركوه جوف حمار).وقد اختلف الشراح فى تفسيره.

(٣) فاخر ٩٠ .

ويبدو أن قولهم (أكفر من حمار) عبارة مؤسسة على معنى المثل (تركوه جوف حمار) ، أو بعبارة أدق ، مؤسسة على تفسيره . وهو ينم بعد على روح كتابية .

(و) وبقى مثل آخر ، وهو (أهون من قُعَيس على عمته)[٤] . والرواة يرجعون الحادثة إلى بعض قبائل تميم وإن اختلفوا فى تفصيلها . ويقول المفضل بن سلمة (ما أظن الخبر صحيحا) .

ونرجع إلى أبى العباس المبرد وهو بصرىّ من أصحاب الاتجاه العربى الخالص ، فلا نجد فى كتابه (الكامل) غير أربعة أمثال على أفعل من جملة ما أورد من الأمثال ، ويبلغ عددها حوالى ٧٥ مثلا[٥] . ومن هذه الأربعة مَثَلٌ رأيناه فى كتاب الضبى وهو (أسرع من نكاح أم خارجة) . ومثل آخر وهو (أعز من بيض الأنوق) لعله مأخوذ من بيت شعر ورد فى أمثال الضبى وهو :

طلب الأبلق العقوق فلما لم يصبه أراد بيض الأنوق[٦]

ومثل آخر أورده المبرد وهو (أحمق من راعى ضأن ثمانين) . نشأ هذا المثل فى البصرة متأخرا واختلف فى روايته . فالجاحظ يرويه (أشقى من راعى ضأن ثمانين) ، (أشغل من مرضع بهم ثمانين) . ورواه أبو عبيد القاسم (أحمق من طالب ضأن ثمانين) ، ورواه محمد بن حبيب : كالمبرد (أحمق من راعى ضأن ثمانين) . وكذلك اختلف فى تفسيره[٧] . والمثل الرابع الذى أورده المبرد هو مثل حيوانى (أكسب من ثعلب) .

فإذا رجعنا إلى المصنفات التى تمثل اتجاها ثقافيا مستحدثا فى الإسلام ، كمصنفات الجاحظ (+٢٥٥) ومحمد بن حبيب (+٢٤٥)[٨] ، وحمزة الأصفهانى (+٣٥٠هـ) ، وجدنا الأمثال التى على وزن أفعل تزيد باطراد فى مؤلفاتهم ، زيادة مستغربة . فيورد

---

(٤) فاخر ٢٤ — ٢٥ .
(٥) بحسب إحصاء « رايت Wright » فى فهارسه .
(٦) ضبى ٧
(٧) ميداني ١/٢٣٤ (١٣٥٢) .
(٨) زبيدى ١٥٣ — ١٥٤ ، بغية ٢٩ — ٣٠ .

الجاحظ فى كتابه الحيوان ، حوالى ١٥٠ مثلا ، معظمها فى الحيوان[٩] . أما محمد بن حبيب فقد أفرد كتابا لهذا النوع من الأمثال نقل فيه ما فى كتب الأولين ، وزاد عليهم زيادة كبيرة ، حتى بلغت أمثاله ٣٩٠ مثلا[١٠] . وجاء حمزة الأصفهانى فزاد على ذلك قدرا كبيرا ، حتى بلغت أمثاله على أفعل ٢٢٠٠ مثل[١١] . ومن المعروف أن حمزة كان على صلة بالأوساط اليهودية والفارسية ، ومن الأولى استقى أخبارا أوردها كتابه (سنى ملوك الأرض) وفيه آثار فارسية كثيرة ، تظهر عندما يرجع كثيرا من الكلمات إلى أصولها الفارسية[١٢] .

٣ — فإذا نظرنا إلى الأمثال التى أوردها أصحاب النزعة العربية أنفسهم ، كابن سلمة والمبرد ، وجدنا أن منها :

(١) ما يشير صراحة إلى مصدر إسلامىّ .

(٢) وأمثالا فى الحيوان ، سنرى أنها فى معظمها صنعت فى الإسلام كذلك ، صنعها العلماء على سبيل تركيز المعارف ، وتسهيل التعليم على طلابها .

(٣) وأمثالا مبنية على قصص أو أمثال أقدم منها . وهى كذلك إسلامية فى الغالب .

وقد يتضمن المثل شخصية أو حادثة جاهلية ، كقولهم (أندم من أبى غُبْشان) ، وهو من خُزاعة يروى أنه أسلم قصى بن كلاب مفاتيح البيت الحرام وهو سكران ، فطار بها من الطائف (وهو موضع اجتماعهم) إلى مكة ، وقال : معاشر قريش ! هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم . وأفاق أبو غُبْشان فندم ، فقيل أندم من أبى غُبْشان[١٣] . فإذا فرضنا أن هذه القصة قد اشتهرت بين الحجازيين

---

(٩) راجع فهارس عبد السلام هارون — حيوان ج ٧ (فهرس الأمثال) .
(١٠) حمزة (مخطوط) (المقدمة) . (١١) نفس المخطوط والمقدمة .
(١٢) ERE ٩/٤٨٢ ، EI (مقالة لمنفوخ عن حمزة) .
(١٣) عسكرى ١/٢٦٠ .

حتى أصبح أبو غُبْشان فيها مضرب المثل ، فليس من المحقق أن يكون هذ التركيب بهذه الصيغة كان مثلا شائعا بينهم . وفَرْق بين القصة والمثل ، وبين معنى المثل وصيغته. بل نرجح أن الرواة المتأخرين قد (ترجموا) عن الشهرة بعبارة من صنع أنفسهم ، فترجمها بعضهم (أندم من أبى غُبْشان) وترجمها بعضهم (أحمق من أبى غُبْشان) وترجمها غير هؤلاء وأولئك (أخسر صفقة من أبى غُبشان)[١٤] . فاختلاف التعبير عن القصة قد يحمل الدليل على أن المثل مفتعل، و إن كان مستفادا من قصة مشهورة، فهو متأخر عنها ، وضعه الواضعون بعد أن اشتهرت القصة. وهذا مايجعلنا نرجح أن صيغة المثل إسلامية ، و إن كانت القصة قديمة . ولا يلزم أن تكون القصة مشهورة حتى تكون هى مثلا . كذلك قولهم (أجمل من ذى العمامة) وهو مثل من أمثال مكة ، وذو العمامة سعيد بن العاص ابن أمية . وكان فى الجاهلية إذا لبس عمامة لا يلبس قرشى عمامة على لونها . و إذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه ، من جماله[١٥] . فهذه الأمثال وأشباهها، و إن كانت تشير إلى الجاهلية ، فهى حادثة فى الإسلام . و يستطيع الباحث أن يرجع إلى قصص لقمان القديمة فى أمثال الضبىّ ، فلن يجد مثلا واحدا من أمثال هذا النوع ، ولكننا لم نلبث أن وجدنا فى المصنفات الأخيرة قولهم :

— آكل من لقمان .
— أرمى من لقمان .
— أعمر من لُبد .
— أكبر من لُبد .
— أشد من لقمان العادىّ
— أبصر من لقمان .

وهذه كلها إشارات إلى ما ورد فى قصص لقمان ، أغلب الظن أنها صنعت فى الإسلام .

---

(١٤) ميداني ١/٢٢٦ (١٣٥٢) (١٥) ميداني ١/١٢٧ (١٣١٠) .

أضف إلى ذلك أن هذه الأمثال ،وهى مستفادة من المعنى كما قلنا ، لا نكاد نجد فيما وصل إلينا منها نصا مقتبسا بلفظه من قصة أو خبر ، مما قد يدل على أنها جاءت فى الترتيب الزمنى بعد شيوع المناسبة والحادثة والرواية .

٤ — ولم يلبث أن أصبح المثل على وزن أفعل ، سجلا للثقافات العربية الإسلامية، فقيدوا فيه المعارف الطبيعية والتاريخية والأدبية .ويبدو أن الرواةوالمعلمين قد وجدوا هذا المثل تعبيرا سهلا ميسورا فصاغوا فيه ما كان يعنّ لهم من علم ومعرفة. ومن الغريب حقا أن نجد هذه الأمثال فى كتاب الحيوان للجاحظ تَطْفِر إلى مائة وخمسين ، فى حين لا نجد منها إلا بضعة أمثال فى كتاب الضبى . ويبدو أن علماء اللغة والطبائع فى العراق ، كانوا قد أباحوا لأنفسهم أن يقيدوا علومهم فى صورة أمثال على أفعل ، تركيزا لها ، وجمعا لشواردها ، ولَمًّا لشتاتها ، وتسهيلا لطلاب العلوم واللغة . فعلماء الحيوان تدارسوا فى البصرة والكوفة صفات الحيوان ، فتحدث عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى (+ ٢٠٩) هـ والمدائنى (+ ٢٢٥) هـ وابن الكلبى الكوفى (+ ٢٠٦)[١٦] . وألف الجاحظ كتابه الضخم عن الحيوان ، يستقصى كل نوع ، ويتحدث عنه حديث العالم والأديب والراوية الأخبارىّ واللغوىّ ، فيجمع فى كتابه أطرافا شتى ، ومعارف مختلفة عن الحيوان . ولا شك أن هذا المحصول الضخم الذى شاع فى العراق قبل عصر الجاحظ ، كان فى حاجة إلى تركيز وتقييد . فكان من المحاولات التى أجراها هؤلاء العلماء أن آثروا هذا المثل ، وهو بسيط المبنى ، يحشدون فيه معلوماتهم . تحدثوا عن الكلاب وصفاتها ثم أبرزوا ما عرفوه عنها فى صيغة «أفعل من» ، فقالوا أبصر من كلب ، أبول من كلب ، أجوع من كلب ، أجوع من كلبة حَوْمل ، أجوع من زُرْعة (كلبة لبنى ربيعة) أحرص من كلب على جيفة ، أبخل من كلب ، أشكر من كلب ، أفحش من كلب ، ألأم من كلب على عرق ،

---

(١٦) مقدمة الحيوان (هارون) ص ٤ .

أنوم من كلب الخ . . . وجمعوا صفات الضب فى أمثال ، فقالوا أحير من ضب ، أعق من ضب ، أخبّ من ضب ، أخدع من ضب ، أروى من ضب ، أطول ذَماء من الضب ، أعقد من ذنب الضب ، أعمر من ضب . . . وربما اجتمعت فى هذه الصفات معان متناقضة ، كقولهم أبر من ذئبة . وأظلم من ذئب[١٧] . وأبر من هرة ، وأعق من هرة[١٨] . ويحمل العلماء بعض هذه الأمثال المصطنعة إلى عرب البادية ، ويسألونهم عنها ، فيقفون منها موقف الإنكار. يسأل بعض الأعراب عن المثل (أحمق من الرُّبَع) فيقول : وما حمق الرُّبَع ؟ والله إنه ليتجنب العُدَوَاء ويتبع أمه إلى المرعى ، ويراوح بين الأطْباء ، ويعلم أن حنينها له دعاء ، فأين حمقه؟[١٩] وكذلك قالوا (أحمق من رخمة) إلا أن بعض العرب يَسْتَكِيسُها[٢٠] . كذلك سجلوا فيها طبائع النبات والبشر ، وزحموها بحوادث التاريخ ، وخرافات الأمم . فقالوا : (أجور من سَدُوم) فلخصوا قصة إسرائيل عن sédom (تكوين ١٩ : ٤) وكانت مضرب المثل عند العبرانيين والمسيحيين فى الجَوْر وارتكاب الفاحشة (أشعيا ١ : ١٠ ، ٣ : ٩ ، وأرميا ٢٣ : ١٤ . تثنية ٣٢ : ٣٢) وفى رواية عربية أخرى أجور من قاضى سدوم[٢١] .

٥ — وما أكثر ما تجد فى تفسير هذه الأمثال قولهم : هذا المثل مأخوذ من قول ابن الطَّثْرية أو من مسلم بن الوليد ، أو من الأخطل ، أو من غيرهم من الشعراء الإسلاميين[٢٢] . بل كثيرا ما تعثُر على أمثال منها ، يبدو أنها مبنية على أمثال أقدم ، أو حوادث لهذه الأمثال : من ذلك قولهم (أخيب من حُنين)[٢٣] مأخوذ من (رجع بخفى حنين) أو من القصة نفسها . وقولهم (أخلف من عُرقوب) مأخوذ من (مواعيد عرقوب) أو من القصة نفسها[٢٤] . وقولهم (أسرى من أنقد) وهو القنفذ

---

(١٧) عسكرى ١/١٧٢ ، حيوان ٤/١٥٠ .
(١٨) حيوان ١/١٩٧ ، عسكرى ١/١٧٢ .
(١٩) ميدانى ١/٢٣٤ (١٣٥٢) ، حيوان ٧/٢٢ .
(٢٠) نفسه ١/٢٣٥ . (٢١) عسكرى ١/٢٢١ ، ميدانى ١/١٣٨ (١٣١٠) .
(٢٢) عسكرى ٢/٤٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٣٦ — ٣٧ ، ١/٢٩٩ — ٣٠٠ .
(٢٣) عسكرى ١/٢٨٦ ، ميدانى ١/١٧٣ (١٣١٠) . (٢٤) عسكرى ١/٢٨٧ .

مأخوذ من قولهم (بات بليلة أنْقَد)[٢٥]، وقولهم (أَشْره من وافد البراجم) و (أشقى من وافد البراجم)، وربما أخذ كلاهما من القصة أو من قولهم : (إن الشقيّ وافد البراجم)[٢٦].

٦ — لسنا ننكر أن هناك أمثالا عربية ، فى صيغ مختلفة ، قد حدثت فى الإسلام ثم ظفرت بالألفة الشعبية فسارت فى الناس بعد جيل أو عدة أجيال من تأليفها ، وهذه غالبا كان لها سند قوى رفعها فى نظر الشعب وأشاعها بينهم . ولكن لا شك أن هناك كثيرا من العبارات صنعها بعض الناس لتكون أمثالا ، ولكنها لم تظفر بسند شعبي ، فأمست كأمثال « جيمس هاول » التى صنعها وأراد أن تسير فى الناس فأخفق .

ولعل كثيراً من الأمثال المصنوعة على أفعل لم تظفر بهذا السند فى عصور المثل العربى على الأقل ، لأن التيار العربى الخالص كان كلما تقدم الزمن آخذاً فى الضعف والفتور ، وأن المثل العربى القديم ، بوجه عام ، منذ نهاية القرن الأول الهجرى كان يشق طريقه فى شعوب غريبة عنه ، لايكاد يظهر إلا فى مدارس العلم ، وفى مجالس أئمة اللغة ، وفى الكتب المدونة . فلم تكن عوامل التطور سائرة فى مصلحة المثل العربى القديم . لهذا ظل كثير من تلك الأمثال المصنوعة حبيس الكتب والمصنفات . ومن ثم جاز لنا أن نقول إن كثيرا مما ورد من الأمثال على أفعل هو عبارات منتحلة على المثل العربى القديم انتحالا ، وليست منه فى قليل ولا كثير ؛ وأن الأدباء والرواة والعلماء قد وجدوا هذه الصيغة قالبا سهلا ميسورا يصبّون فيه كل تشبيه يجود به خيالهم ، أو معلومات قد عرفوها . لم تكن هذه الأمثال حية بالاستعمال فى تلك العصور المبكّرة . وقد لاحظ الباحث غويطاين أن ذيوع هذه الأمثال فى كتب الأدب القديمة كان أمرا صناعيا[٢٧] ، غير أن حفظها فى المدونات القديمة واشتهارها بين دارسى العربية ومعلميها ، ربما أتاح لبعضها ، فى عصور متأخرة ، أن يظفر بألفة شعبية . والأجدر بهذه أن تدخل فى باب المثل المولد أو المحدث .

---

(٢٥) عسكرى ٢/٢ . (٢٦) نفسه ٢/٢٥ . (٢٧) غويطاين ١٧٣ .

٨ – فن المثل القديم : اللغة والأسلوب

يجنح الأسلوب السامىّ الأصيل إلى تلاصق العبارات . فتتألف القطعة الأدبية من وَحَدات units بسيطة متوالية أشبه بحبات العقد ، كل منها جوهر فرد ، فإذا انفصل عن العقد شىء ظل العقد دون أن يضار فى جوهر بنائه وفى أساس نظمه . وقد يلجأ هذا الأسلوب إلى نوع من التركيب ، ولـكنه يستخدم عادة روابطَ هينةً خفيفة ، لا تجعل بين العبارات تماسكا قويا أو تراكبا محكما ، ولا تسمح لبعض العبارات أن يسيطر على بعضها الآخر سيطرة تامة . وقد نستبين معالم هذا الاتجاه إذا قرناه بالأدب اليونانى حيث نجد العبارات الطويلة المركبة Periodes[1] ، التى تترابط فيما بينها ترابط أعضاء الـكائن الحى أو أجزاء التمثال . يتوقف بعضها على بعض . فإذا انهار جزء منها أثّر ذلك فى تصميم الهيكل ، وفى أساس التـكوين . فالساميون القدماء قد صنعوا أدبهم على طريقة نظم العقود وليس على طريقة تصميم التمثال أو الـكائن الحى . هو أدب تتلاحق فيه الجُمَل منفصلة حينا ، متصلة بروابط هينة خفيفة حينا آخر ، كل منها وحدة بسيطة ، يتنقل منها الشاعر أو الناثر تنقلا سريع القفزات والطفرات .

وقد لاحظ الباحث بفايفر Pfeiffer أن أسلوب التوراة أميل إلى التسوية بين العبارات Co-ordination of Clauses وذلك إذ يقول : (إذا استثنينا عددا قليلا من التركيبات الواردة فى أسفار العهد القديم ، كالجمل الشرطية ، وجدنا أن التسوية بين الجمل تغلب على الإعمال subordination . ومن ثم كانت العبرية القديمة غالبا لغة ذَرِّية فى بنائها Atomic تتعاقب فيها الجمل فى قوة وتأثير[2] . والاتجاه الخطابى أغلب على هذا الأسلوب ، فالعبارة مؤثرة بفخامتها كما فى الأصحاح الثامن من سفر التثنية . ولـكن الفخامة ينقصها شىء من الوضوح المنطقى والإحاطة التركيبية التى

---

(١) مسكويه ص ٨ (مقدمة الدكتور عبد الرحمن بدوى) .
(٢) بفايفر ١٨ .

نلحظها فى خطب اليونان أشباه ديموستين وشيشرون . وقلما نجد عبارات طويلة مركبة على النحو الذى ألفناه فى اليونانية واللاتينية والألمانية ، وإن ظهر بعض محاولات غير ناضجة فى الإصحاح الثانى من سفر الأمثال ، إذ يبنى جملا مترا كبة على الطريقة اليونانية وإن كان لم يتخلّ عن التعبير المجازى المحسوس الذى هو سمة مميزة للأسلوب العبرى[٣]) .

وإذا نظرنا إلى الأمثال العربية القديمة ، وتدرجنا معها من المثل الطويل المسهب ، كمثل الخرافة ، إلى الإشارة المَثَلِيّة الموجزة ، وجدنا أن أسلوبها المسهب ، أميل إلى التسوية والتلاصق ، تكثر فيه الفواصل ، والقفزات السريعة ، والحروف العاطفة الخفيفة ، كالواو والفاء ونحوهما . ولا يلجأ المثل إلى التركيب إلا فى القليل . لا يلجأ إلى أدوات الشرط والوصل وما شاكلها من الروابط « الثقال » إلا عند الضرورة القُصوى . ففى خرافة الحية والفاس : « زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبا منهما واد فيه حية قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المكلئ ، فرعيت فيه إبلى ، وأصلحتها ؟ فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية . ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته . قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادى . فرعا إبله زمانا به . ثم إن الحية لدغته فقتلته ، فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير . ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك . فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارا فى كل يوم ؟ قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : فإنى أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله ونبتت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ فعمد إلى فأس ، فأحدّها ،

---

(٣) نفسه ونفس الصفحة .

ثم قعد لها ، فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها ، فأثر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، فلما رأى ذلك وتخوف شرها ندم . فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأنت فاجر لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهورا من أمثال العرب »(٤) .

هذه العبارات فى معظمها متلاصقة متكافئة سريعة القفزات ، ندرك ذلك حين ننصت إلى قولهم : «فعمد إلى فأس ، فأحدها ، ثم قعد لها ، فمرت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه » . وندرك ذلك فى أسلوب الحوار . والحوار على هذا النحو يتيح الفرصة للمواقف المتغيرة والقفزات السريعة ويجنب المنشىء تراكب الجمل ، والدوران حول الفكرة الواحدة التى يربط بين أجزائها برباط محكم ثقيل . وندرك بعد هذا كله أننا بإزاء أسلوب أقرب إلى المحادثة ، منه إلى الكتابة ، فنى الكتابة يتجلى الربط المحكم والتسلسل ، حيث التابع والمتبوع والعامل والمعمول .

ونخطو خطوة إلى الأمثال المركبة المؤلفة من جملتين أو أكثر ، وليكن مقياسنا أمثال الضبى ، فنجد هذا التلاصق فى معظمها ، هذا الانتقال الهين من عبارة إلى عبارة دون أن نحس أن فى المثل تابعا ومتبوعا وعاملا ومعمولا ، فنجد التسوية العطفية فى ما يقرب من خمس عشرة جملة ، نذكر منها :

— قد نراك فلستَ بشىء (ص ٥٣)

— اليوم خَمْرٌ وغدا أَمْر (ص ٥٤)

— رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا . (ص ٦١)

— عَلِقَتْ مَعَالِقَها وصَرَّ الجُنْدُب (ص ٧٨)

---

(٤) ضبى ٨٤ — ٨٥ .

ومنها عدد من أمثال التسوية التى لا تصطنع العطف وهى حوالى ثمانية أمثال ، نذكر منها :

— لِجْ مَالِ وَلْجَتَ الرَّجَم (ص ١٠)
— يا حامل اذكر حلا (ص ٧٩)
— يا بوين ما أكيسنى (ص ٨١)
— رويدا يَعْلون الجدَد (ص ٣٨)

ثم نجد عددا من الجمل الحالية (ثمانية أمثال) وكلها مستأنف بالواو يأتى بعدها جملة اسمية أو فعلية ، والنحاة يعدونها فى باب الإعمال ، والدراسة الحديثة ترجع هذه التركيبات وأشباهها فى أصل تكوينها إلى باب التسوية[٥] . والجمل الحالية تعبير قديم فى السامية ، وإن كان استعمال العطف أحدث عهداً فى تاريخ اللغات السامية من عدمه[٦] . ومن أمثلة الجمل الحالية فى المثل العربى قولهم :

— أن الليل طويل وأنت مُقْمِر (ص ١٣)
— أضرطاً وأنت الأعلى (ص ١٣)
— أنج ولا أظنك ناجيا (ص ٢٥)

ثم نجد عددا حوالى ستة أمثال ، يتركب من جمل وصفية كقولهم : «لا يحزنك دم هَرَاقه أهله» (ص ٦٥) الجملة الثانية صفة للاسم المنكر ، ولهذا نظائر فى سائر اللغات السامية وان كانت هذه لم تفرق بين الصفات والصلات تفريق العربية[٧] . ولسنا نجد فى الأمثلة التى بين أيدينا إلا ذلك الربط الهين الرفيق الذى لم تحبكه الصنعة المنطقية ، ولم يدخل فيه التأنق الكتابى .

---

(٥) برجشتراسر ١١٨ ، ١٣٠ .
(٦) نفسه ١٢٩ ، ١١٨ .
(٧) نفسه ١٢١ .

على أننا نجد طائفة أخرى من الأمثال ، هى جُمَل شرطية فيها الحبكة والإحكام وفيها التابع والمتبوع . تسيطر بعض عباراتها على بعض . ومع ذلك فهى مركزة موجزة ، لا تصل إلى حد العبارات الطويلة المركبة Periodes . وربما كان من الممكن أن تكون هذه الجمل وأشباهها نواة لأسلوب تركيبى مسهب ، على نحو ما نجده عند اليونان . ولكن العرب القدماء وقفوا عند هذه الجمل الموجزة ولم تتح عوامل التطور لها أن تبلغ ذلك الحد . وقد ورد فى كتاب الضبىّ ما يقرب من أربعة عشر مثلا تتألف من جمل شرطية نذكر منها :

— مَنْ عزّ بزّ	(ص٥٣)
— أينما أوجّهْ ألق سَعدا	(ص ٦)
— إن يبغ عليك قومُك لا يبغ عليك القمر	(ص ٥٢)
— إذا رُمْتَ الباطل أنجَحَ بك	(ص٤٨)
— إذا عز أخوك فهن	(ص ٦٠)
— لو نُهى عن الأولى لم يعد للآخرة	(ص٤٨)
— ذَلَّ لو أجدُ ناصرا	(ص٤٨)
— سمِّن كلبك يأكُلْك	(ص ٧٤)

ورد اسم الشرط (مَنْ) فى المثل الأول . ولهذا الاستعمال نظير فى اللغات السامية ، وان كانت العربية قد توسعت فى استخدام أدوات الشرط عامة توسعا كبيرا .

فى العبرية يقال : מִי יַחְפֹּר גֶּבֶא (من خشى فليعد)[٨] . غير أننا نلاحظ أن الأمثال العبرانية كثيرا ما تؤثر اسم الفاعل فى موضع (مَنْ) والفعل الذى يليها . فيقال : בּוֹטֵחַ בְּעָשְׁרוֹ הוּא יִפּוֹל

وقد نقلته الترجمة العربية للتوراة فقالت : (من يتكل) على غناه يسقط (أمثال ١١:٢٨)

---

(٨) برجشتراسر ١٢٢ .

فترجمت اسم الفاعل בּוֹטֵחַ بالعبارة (من يتكل) . وهذا تجده فى أمثلة كثيرة أخرى (أمثال ١٠ : ١٨ ، ١١ : ١٥ ، ٢٧ ، ١٢ : ١) .

وفى المثل الثانى (أينما أوجه ألق سعدا) تستخدم أداة الشرط (ما) ملحقا بها (أين) ، كما ألحق بها غيرها فى مثل (أيما) و (متى ما) و (كيف ما) و (حيث ما) . وقد تضاعف (ما) فتصير مهما بدل [Màmà] ، وأصلها جميعا أسماء أو ظروف استفهامية استعملت موصولة وعملت عمل أدوات الشرط . وهذا كله يكاد يكون خاصا بالعربية ، وإن وجد القليل المشاكل له فى غيرها . ففى الأكدية يقال : Manumma éristušu ša šarri bélua lišpur (مهما تكن رغبة مولاى الملك فليبعث إلىّ) غير أن الجملة التى تلت manumma اسمية لا شرطية[٩] .

وفى المثل الثالث يجىء حرف الشرط (إن) وهو قديم فى السامية الغربية ، يقابله فى العبرية im وفى الآرامية én وفى الحبشية im أو ima ، ففى الأمثال العبرية يقال :

אִם־רָעֵב שׂנַאֲךָ הַאֲכִילֵהוּ

לֶחֶם וְאִם־צָמֵא הַשְׁקֵהוּ מָיִם

« أمثال ٢٥ : ٢١ » « إن جاع عدوك فأطعمه خبزا وإن عطش فاسقه ماء » .

وفى الترجمة الحبشية لحكمة يشوع بن سيراخ يقال : (سيراخ ١ : ٢٥)

ኧመ : ትፈቅሪ : ለጠበብ : ዕቀቢ : ትእዛዛቲሃ

« إن أحببت الحكمة فراقب تعاليمها » .

وفى المثلين الرابع والخامس تستعمل إذا للشرط ، وهى خاصة بالعربية[١٠] . غير أننا نلاحظ أن المثل الخامس يقرن جواب الشرط بالفاء وهى إحدى الروابط الخفيفة التى تؤثرها العربية فى عباراتها المتلاصقة . وفى المثلين السادس والسابع وردت

(٩) برجشتراسر ١٢٣ .

(١٠) نفسه ١٣٤ .

(لو) وهى موجودة فى العبرية والآرامية والأكدية Lû ، وأصل معناها التمنى مع فارق فى الاستعمال . ففى الأكدية يقال ماترجمته الحرفية (لو أن على مولاى الملك سلاما) ، ومعناها (سلام على مولاى الملك) ، فيختلف معناها فى الأكدية عنه فى العربية ، فإنها فى العربية تفيد التمنى الذى لا يتوقع أو لا يمكن توقعه ، فى حين نجدها مطلقة المعنى فى الأكدية(١١) .

أما المثل الثامن والأخير « سمن كلبك يأكلك » فقد ذكر النحاة أن المضارع المجزوم هنا جواب عن الأمر ، ومعناه معنى جزاء الشرط الذى ينوب عنه الأمر . ويرى برجشتراسر أن هذا التركيب وشبهه فى الأصل كان من باب التسوية ، لأن المضارع المجزوم لا يفيد إلا معناه المألوف الخاص به إذا ألحقت به اللام ، فيكون المعنى سمن كلبك فليأكلك . فهذا المعنى عنده هو الأصل . ثم اشتقوا منه معنى الشرط فى بعض الأحوال . وأصل التركيب وعدم العطف هو الابدال . والمضارع المجزوم هو لبيان معنى ما سبقه . فحكمه كحكم: «قولهم أُسِر يومئذ معبدأسره عمرو بن مالك» ، فهذا من التسوية غير العطفية وليس من باب الإعمال . ويظهر المعنى الأصلى — كذلك — فى نحو : (مُرْ قومك يصوموا نهارهم هذا) ، فالمجزوم هنا تبيين و إظهار لما هو مضمر فى (مر) ، ولا معنى للشرط فى ذلك . ولو أننا قدرناه (إن أمرت قومك صاموا) صار المعنى بعيدا عن المراد(١٢) .

ومما سبق نجد أن الأمثال المركبة ، فى كتاب الضبى ، لا تزيد على بضعة وخمسين مثلا ، وهو عدد قليل إذا قورن بالأمثال البسيطة الأخرى الواردة فى هذا الكتاب . وقد رأينا أن تركيب هذه الأمثال لا يخرجها عن كونها موجزة مركزة لا تصل إلى حدّ العبارات الطويلة المركبة التى يطلق عليها Periodes . وإذا استثنينا الأمثال الشرطية ، وعددها أربعة عشر ، حكمنا بأن الجمل التى تؤلف الأمثال المركبة ، فى معظمها هى عبارات متلاصقة متلاحقة ترتبط فيما بينها ارتباطاً خفيفا هينا . بل إن بعض الأمثال الشرطية كما رأينا لم تكن عباراتها شرطية فى أصل نشأتها .

---

(١١) برجشتراسر ١٣٥ . (١٢) نفسه ١١٨ ، ١٣٢ .

فإذا تأملنا الأمثال العربية بصفة عامة ، وجدنا ظاهرة لا نظير لها فى الأمثال السامية الأخرى . هذا الإيجاز البالغ الذى يصل أحيانا إلى أن يكون المثل لفظاً واحدا أو صفة موصوفا ، أو مضافا ومضافاً إليه ، أو جارا ومجرورا . فمن أمثالهم (أيها) ومعناه نعم . وأصلها (أى ها الله) ، ثم كثر فى كلامهم حتى وصلوا . قال الفراء : (العرب إذا كثر الحرف على ألسنتها وعرفوا معناه حذفوا بعضه لأن من شأنهم الإيجاز . من ذلك قولهم (اللهم) كان أصله — والله أعلم — يا الله أُمنّا بخير ، ثم كثر حتى وصلوا الله بحرفٍ من أُمنّا[١٣]) .

وَمن المضاف عدد من الأمثال أوردها الثعالبى فى كتابه (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) كقولهم : غرام نوح ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وبرد محارب ، وعطر منشم ، وخاتم سليمان ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سنمار الخ .

وطائفة أخرى ذكرها السيوطى بعنوان (معرفة الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأخوة والأخوات والأذواء والذوات[١٤]) . وأورد حمزة الأصفهانى طرفاً منها فى الباب الثلاثين من كتابه فى « الأمثال على أَفْعَلَ » . وهذا الباب يشتمل على ما سمّاه : (المكنّى والمبنّى والمثنّى) وهى أمثال أحصاها فى كتابه فبلغت ثلاثمائة وسبعين مثلا[١٥] . والمكنىّ والمبنىّ من هذه الأمثال هما عبارة عن أسماء للأشخاص والأشياء والمعانى ، أطلقها العرب عليها مبدوءة بأب أو أم أو بنت .

أما المثنى فهو كقولهم : الجديدان لليل والنهار . والأسودان للتمر والماء . والقمران للشمس والقمر[١٦] . وربما كانت صيغة المثنى التى تجمع بين شيئين مختلفين غير معروفة فى اللغة السبئية[١٧] .

---

(١٣) فاخر ٢٠٠ .
(١٤) مزهر ١/٥٠٦ — ٥٣٧ .
(١٥) حمزة ، ورقة ٦٥ .
(١٦) نفسه ، ورقة ٧١ .
(١٧) الإكليل ٣٣ .

ومن أمثال المكنّى قولهم : أبو الحارث كنية الأسد ، وأبو حُباحب كنية النار التى لا ينتفع بها . وأم الهنبر كنية الأتان (والهنبر الجحش) . وأم فروة كنية النعجة .

ومن أمثال المبنّى قولهم : ابن جلا : وهو أول النهار . وطامر بن طامر : للبرغوث ، (والطمر : الوثوب) ، وابن الأيام : للرجل الجلد المجرب . وابن خُلاوة للبرىء من الشىء ، وجابر بن حَبَّة للخبز ، وابن خلجان للبحر ، و بنت الجبل للصدى . و بنت الشفة للكلمة. وصيغ المكنى والمبنى معروفة فى اللغات السامية ، ولكن لا نعرف لها نظائر فى أمثال الشعوب التى تتكلم هذه اللغات غير العرب .

والمتصفح أمثال المكنى والمبنى يجد بواعث نفسية واجتماعية قد عملت فى نشأة لغة هذه الأمثال . فمن الأمثال التى سبق ذكرها ، نلحظ أن العرب قد لمحوا فى الشىء المسمى صفةً أو لازمةً فنسبوا الشىء إليها على سبيل التعريف أو التلميح والتلطيف .

وقد يكون الباعث هو التعظيم فى نحو قولهم : « أم عبيد » كنية الفلاة . ومن أمثالهم : « وقعوا فى أم عبيد تصايح حيّاتها »[١٨] . أى وقعوا فى داهية ، كما يقع المسافر فى فلاة ملأى بالحيات الفاتكة التى تتصايح فى أرجائها . وقالوا « وقعوا فى أم جندب » قال القاسم بن سلام : (كأنه اسم من أسماء الإساءة يضرب لمن وقع فى ظلم وشر)[١٩] . وقالوا : (بنت الجبل) للحية التى لا تجيب الراقى . وهذا معنى آخر للمثل الذى سبق . فقد يكون الباعث على هذه التسمية وشبهها هو تعظيم الشىء المسمى على سبيل التقرب إليه خوفا من بطشه وسلطانه .

و إذا أرادوا السخرية والتحقير ، قالوا للرجل المحتقر عندهم : (أبو جخادب) ، و (أبو ضوطرى) ، سَبٌّ يسب به الإنسان ، وهذا ونحوه من النبز بالألقاب .

وكثير من أمثال المكنى والمبنى هو انحراف مقصود عن ذكر الاسم الحقيقى خوف التشاؤم أو طلبا للتفاؤل . فحسّنوا الاسم القبيح حتى لا يقعوا فى شر التلفظ به

---

(١٨) ميدانى ٢/٣٣٤ .

(١٩) ميدانى ٣/٣٢٣ .

وهو ما يسميه الفرنجة Euphemism [٢٠]، كقولهم : (أبو عمرة) ، كنية الفقر وسوء الحال ، و (أم عامر) للضبع ، (وأبو البيضاء) للحبشى ، (وأبو حكيم) للذباب . وفى غير المكنّى والمبنّى قالوا : (السليم) للمدوغ (والبصير) للأعمى .

ولعل أمثال المكنّى والمبنّى والمثنّى هى من جملة الأمثال التى تدفقت على المثل العربى القديم بعد أن اشتدت حركة أئمة اللغة فى جمع شواهد العرب وأساليبهم التقليدية expressions من أهل البوادى العربية ، وقد عد كثير من هذه الأساليب أمثالا ، فاقتحمت باب المثل باعتبارها كلاما مأثورا يعبر عن طرائق مألوفة فى لغتهم . وكانت غاية اللغويين لغوية بطبيعة الحال ، وكانت هذه الأساليب حصيلة قيمة لطلاب العربية تعرض عليهم نماذج مختلفة للتعبير العربى القديم فى حالات الدعاء والنداء والاستغاثة والتعجب والإخبار والاستخبار وغير ذلك ، وكان من جملة هذه النماذج عدد غير قليل يبدو عليه طابع الإلغاز والإغراب اللغوى ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك [٢١] .

---

(٢٠) جولدبرج ص ١٠٤ ، ERE ٥/٥٨٥ وما يليها .

(٢١) راجع الفصل الثالث من هذا الباب .

٩ – فن المثل القديم : التصوير الفنى

آثر الساميون أن يعبروا عما قصدوا من المعانى فى صور مجازية، وبرع الأدب السامى القديم فى رسم صور أدبية حية ، لأحوال السلوك والطبائع ، والمواقف والأحداث ، بالملحات الخفيفة الموحية ، والإشارات الخاطفة .

شخّصت العبرية ما لا يعقل ، فبثت فيه حياة آدمية عاقلة شاعرة . وتردد هذا التشخيص الفنى فى أقوال العهد القديم فورد فى إشعيا (١٠ : ١٥) : (هل تفتخر الفأس على القاطع بها ، أو يتكبر المنشار على مردده) ، فصير الفأس كأنها مخلوق آدمى ، يباهى ويفاخر ، وجعل المنشار ذا لسان ناطق ، وشعور يتيه على سيده ، ويتعاظم عليه . وشخّصت العبرية فضائل المرء ورذائله ، فالحكمة كائن بشرى ينادى بملء فيه ، عند رءوس الجبال وفى مفترق الطرق ، وفى المسالك والدروب ، وبجانب الأبواب ، يحذّر الناس من ارتكاب الحماقة ، ويحضهم على الفطنة والفهم (الأمثال : الإصحاح الثامن) . أما الحماقة فهى أشبه بالمرأة الجاهلة الصخابة الحمقاء ، تقعد عند باب بيتها ، على كرسىّ فى أعالى المدينة ، تنادى عابرى السبيل قائلة : من كان جاهلا فليمل إلينا (الأمثال ٩ : ١٣) .

وفى العربية عدد كبير من التشبيهات ، والتى على وزن أفعل بخاصة ، تعرض ألوانا من التشخيص الفنى . فوصف العرب الرِّجْلَة بالحماقة ، وهى بقلة خضراء معروفة ، فقالوا : (أحمق من رِجلة) لأنها تنبت فى مجارى السيول فتجرفها . ووصفوا الأرض بكتامة السر ، فقالوا : (أكتم من الأرض) . ونعتوا الحيوان بما ينعت به الناس ، فقالوا : « أطيش من ذباب » ، « وأذل من بَذَج » (وهو الحَمَل) « وأبخل من كلب على جيفة » ، « وأبر من هرة » ، « وأجبن من صِفرد » .

وفى غير التشخيص ، صوروا أحوال الناس ، وطباعهم ، فى الأمثال تصويرا

سريعا خاطفا ، مؤثرا موحيا . نسمع هذا المثل (جاء على حاجبه صُوفة[١]) فنستحضر هيئة رجل قد انقلب إلى أهله مغلوبا منهزما ، وعلى سيماه علائم الانكسار والذلة ، فهو مطرق يحاول أن يخفى وجهه عن الناس ، يتمنى أن يحجب عينه بصوفة حتى لا يرى أحدا ولا يراه أحد .

ونسمع هذا المثل (جاء كخاصى العَير[٢]) ، فنتمثل شخصا فيه طبيعة الحياء ، أو لعله صنع جرما شنيعا أنكره عليه الناس وأنكره هو على نفسه ، فأصابه استحياء شديد ، فهو مشغول بما صنع ، يود أن يتوارى من الناس ، فمثله كمثل خاصى العَير ، وهو يطرق رأسه عند الخصاء يتأمل كيفية مايصنع ، وهذا عمل قبيح عند سواد الناس ويستحيي من صنعه علية القوم .

ونسمع قولهم : (دب قَمْلُهُ[٣]) فإذا بهذه اللمحة الخفيفة تتكشف أمام أعيننا عن مشهد رجل غنيّ ، هبطت عليه الثروة بعد شدة وفقر ، فإذا به يزداد بسطة فى الجسم فيترهل ويتهدل ، وإذا بالخير الكثير يحدق به من كل مكان ، وإذا بداره تغص بالذاهبين والآيبين من العُفَاة والأهل والرُّوّاد .

ورسموا صورة الأحمق الذى تأصلت الحماقة فيه فلا تفارقه ، لا تزيده معاملة الناس ، ولامكابدة الأيام والليالى إلا حماقة وجهلا ، فقالوا : (تَأطة مُدَّت بماء[٤]) : حمأة منتنة أصابها الماء فازداد فسادها واشتد نتنها .

وهذا الرجل الجاهل أو المتجاهل الذى إذا سئل عن شىء عمم القول تعميما . يقال له : من أنت . فيقول : من مضر أو من ربيعة ، فيعم ولا يخص ، ويذكر مطلبا عريضا لا يحاط به . يقال فيه (أَعْرَضَ ثَوْب الملبس)[٥] ، فهذا الجواب الذى أجاب به ، واسع عريض ، يضل فيه المراد ، كما يضل اللابس فى ثوب فضفاض .

---

(١) عسكرى ١/٢١٠ .
(٢) ميدانى ١/١٧٢ (١٣٥٢) .
(٣) نفسه ١/٢٧٨ . يقال قل القوم إذا توافر عددهم وأخصبوا ، وقل فلان سمن بعد الهزال .
(٤) نفسه ١/١٦٠ .
(٥) ميدانى ١/٤٨١ .

وهذا رجل يعيش (بين حاذفٍ وقاذفٍ)[٦] ، قلق منحوس الطالع ، شاء القدر أن يصيبه بشتى الكوارث ، فهو لا ينصرف من مكروه إلا إلى مثله .

وهذا بخيل ماكر ، يتخذ حالة إعساره حجة فى المنع ، فيعتل على الناس بأنه يمنع لشدة حاجته ، وهو المانع الشحيح فى حالة اليسر ، فمثله كمثل هذه المرأة التى خلقت شاحبة اللون ، مصفرة الوجه ، فإذا نَفِسَتْ زعمت أن صفرتها من النفاس . أو تلك التى طبعت على الوجوم والعبوس ، فإذا أتيح لها أن تبكى زعمت للناس أن عبوسها من البكاء :(قَبْل النِّفاس كنتِ مصفرَّة،وقبل البكاء كان وجهُك عابسا)[٧] .

وهذا شخص ساذج مغرور يعجب بفضائل نفسه دون أن يقيسها بفضائل غيره ، فمثله كمثل من يجرى فرسه بالمكان الخالى الذى لا سباق فيه ، فيسر بما يرى من سرعته ، ولعله إذا قرنه بغيره يتبين نقصه : (كل مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرّ)[٨] .

وهذا رجل مَهين القدر ، صغير الشأن ، يتطاول على آخر عظيم شريف ، مجتهدا فى أن يؤثر فيه فلا يقدر عليه . فهو يشبه : (عُثَيْثة تقْرِمُ جِلْدًا أملَسَا)[٩] ، عثة صغيرة حقيرة تأكل جلدا ناعما ، فلا تؤثر فيه كثيرا ، ولا تنال منه إلا القليل .

كل صورة من الصور السابقة موقف يدخل فيه عنصر التتابع الزمنى يرتقى فى خلال حركات الحوادث والمواقف . وفى كل صورة منها لفظ يعين على هذا الترقى الزمنى ، كالدبيب والمجىء والمد والحذف والقذف والقرم . فهذه بمثابة خطوط زاهية توضح ملامح الصور فتبث فيها حركات منسابة متتابعة .

ومن الأمثال ما يصور حركات قصيرة خاطفة يدور فيها الزمن فى نقطة معينة ويخطو خطوة واحدة ، فمن ذلك قولهم : « بَرِح الخفاء »[١٠] و«فارقه فراقا كصدع

---

(٦) عسكرى ١/١٥٠ .
(٧) نفسه ٢/١٢٣ .
(٨) نفسه ٢/١٣٣ .
(٩) ميدانى ١/٤٧٩ (١٣٥٢) .
(١٠) ميدانى ١٠٠ .

الزجاجة[١١]» « حَذَّها حَذَّ العَير الصليانة[١٢]» ، فى المثل الأول تعبير عن زوال السر ووضوح الأمر واكتشاف المخبوء ، والمعنى الحرفى (ارتفع المكان المنخفض المتطامن من الأرض) . وفى المثل الثانى تجسيم لمعنى الفراق الذى لا اجتماع بعده فهو كصدع الزجاجة لا يجبر ولا يلتئم ، والمثل الثالث وصف لليمين الحذاء يمرها الرجل إمرارا ، ولا يتتعتع فيها وقد يظلم بهـا أخاه ، ويقتطع بها من حق صاحبه ؛ فهى كالصليانة ، نبات ينبت صُعُدا ، وتتضخم أعجازه ، فإذا جذبه المرء انقلع بأصوله .

وقد يدخل شىء من التتابع الزمنى فى مدلول الصورة فى نحو قولهم : (لطمه لطم المنتقش)[١٣] ، يريد أنه لطمه مرات كما يصنع البعير إذا شاكته الشوكة ، لا يزال يضرب يده بالأرض يروم انتقاشها ، وفى لفظ (المنتقش) بمفرده صورة موحية كاملة تترقى فى خلالها حركات متتابعة .

ومن الواضح البين أن مادة الخيال فى هذه الصور مستمدة من الحياة العربية : من الحيوان ، والنبات ، والحوادث ، والمشاهد ، ووسائل العيش التى ألفها العرب بيئاتهم . وقد تزداد هذه الملاحظة وضوحا إذا أضفنا الأمثال الآتية :

— بات بليلة أَنْقَدَ[١٤]

— بَالَ حمارٌ فاستبال أحمرةً[١٥]

— حَلَب الدهر أشطره[١٦]

— إن يَدْمَ أظلُّك فقد نقِبَ خُفّى[١٧]

— على هذا دار القُمْقم[١٨]

فهذه خمس صور أخرى ، اتخذت من الحياة العربية مادة لخيالها . فى الصورة

---

(١١) نفسه ٢/٢٦ .

(١٢) عسكرى ١/٢٢٧ .

(١٣) ميدانى ٢/١٣٤ .

(١٤) ميدانى ١/١٠٢ .

(١٥) نفسه ١/١٠٣ .

(١٦) عسكرى ١/٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١٧) ميدانى ١/٧٣ .

(١٨) عسكرى ٢/٦٨ — ٦٩ .

الأولى شخص أهمه أمر ، فقضى ليله ساهرا يقلب فكره ، ويدافع هواجسه ، فهو لا ينام الليل كالقنفد (أنقد) . وفى الصورة الثانية قوم تعاونوا على أمر بالرغم منهم ، قد دفعتهم الظروف أو التقاليد إلى المعونة دفعا . فكان عملهم كحمار يبول ، فيستدعى عمله هذا الكريه سائر الأحمرة إلى أن تبول مثله . وفى الصورة الثالثة رجل مجرب خبير بصروف الدهر ، قد تعلم من الدهر دروسا شتى ، وتقلب على أحوال كثيرة . فهو كالناقة تحلب منها شطرا ، ثم تحلب شطرا آخر ، ولا تزال تختلف بين هذا وذاك حتى تستنزف آخر مالديها . وفى الصورة الرابعة رجل يشكو إلى صاحبه أمرا أقلقه وأهمه ، فيجد صاحبه فى مثل ما يشكوه ، فيقول له إن كنت كالبعير قد دمى ماتحت منسمه ، فإننى كالبعير الذى قد تمزّق خفه . أما الصورة الأخيرة فهى تستمد خيالها من عقيدة خرافية شعبية هى خرافة القمقم ، حيلة كان يعملها العرافون والكهان ، إذا سرق شىء جاءوا بقمقم واحتالوا حتى دار . فإذا دار انتهى الأمر ، وانكشف السر ، وعرفوا السارق . ومعنى المثل : (إلى هذا صار معنى الخبر) .

على أن مادة الخيال هذه ، بمقاييس الأذواق المتحضرة ، ربما لا تروق فى بعض الأحيان . ذلك أن كثيرا من عناصر هذه المادة يفتقر إلى صقل وتهذيب . فمن الناحية الاجتماعية والخلقية قد ترفض أذواقنا هذه العناصر لما فيها من إفحاش أو خشونة ، أو بُعدٍ عن مألوف حياتنا ، كقولهم : جاء كخاصى العَير ، ودب قمله ، وبال حمار فاستبال أحمرة ، وإن يدم أظلك فقد نقِب خُفّى ، ومع هذا فإن الصور المجازية ، فى حد ذاتها ، رائعة لاغبار عليها . فنحن نفرق فى حكمنا على هذه الصور بين الجانب الاجتماعى والجانب الفنى .

ومن المناسب فى هذا المقام أن نذكر أن أقدم ما وصل إلينا من صور مجازية ، فى الأدب العبرى كتلك التى وردت فى سفر نشيد الانشاد ، لا ترضى — أحيانا — أذواقنا من الناحيتين جميعا : الاجتماعية والفنية . ففى هذا السفر أغان شعبية قديمة جدا

فى تاريخ الأدب العبرى[١٩] ، وفيها صور مجازية تفقد فى كثير من الأحيان التناسب الحسى والحسيفى ، بينها وبين الأشياء التى أريد تصويرها ، كما أنها تتنافى أحيانا مع تذوقنا الاجتماعى[٢٠] . فالذوق الفنى لايقبل الآن تشبيه الأنف ببرج لبنان الذى يواجه دمشق ، أو أسنانِ العروس بقطيع الجزائر الصادرة من الغسل ، كل بهيمة تحمل توءما وليس فيها عقيم ، فإن التناسب بين المشبه والمشبه به فى المقدار والنوع ، يكاد يكون معدوما ، كما أن الذوق الاجتماعى أصبح لا يسيغ تلك الأوصاف المفصلة المسهبة ، التى وردت فى هذا السفر عن الفتاة العارية والرجل العارى .

وقد أوردنا هذه التشبيهات لأنها تمثل اتجاها شعبيا فى التشبيه العبرى القديم ، وهو ما يعنينا فى مجال المقارنة هنا ، مع الصور الشعبية للمثل العربى القديم . فإذا انتقلنا إلى التشبيه فى الأمثال الكتابية العبرية ، فى أسفار العهد القديم ، وفى التلمود ، وجدنا تطورا محسوسا فى التشبيه ، من حيث التناسب الفنى ، والصقل الاجتماعى[٢١] .

وليس التصوير الفنى مقصورا على العبارات (الخبرية) وحدها ، وهى جملة ما أوردناه فيما سبق ، بل يتجلى فى الدعاء والنداء والأمر ، وما شاكله من عبارات (إنشائية) جرت مجرى الأمثال[٢٢] . وفى هذه الأمثال نجد مجال الانفعال أقوى ، وطاقة الإحساس أشد . وفى فورة الانفعال ، ووقدة الإحساس ، نلتمس الحركة الخاطفة ، والشعور الحاد ، والإيحاء المؤثر ، والتعبير الخطابى الذى يستعين بجرس الألفاظ وتآلفها ، فى تصوير الأشياء والأفكار .

نستمع إلى المثل (قمقم الله عصبه)[٢٣] ، فتروعنا العبارة بقوة جرسها ، وشدة وقعها على النفس ، وما تلقيه فى روع السامع من فزع ورهبة . قارن بين هذه العبارة و بين

---

(١٩) ستانلى كوك ٦٤ — ٦٥ . (٢٠) بنتسن ١/١٣٠ — ١٣٢ .

(٢١) راجع سفر الأمثال ٢١ : ١ ، ١٨ : ١٠ ، ١٩ : ١٢ ، بولانو ٢٨٧ (تشبيه الدنيا بالعرس ، والشباب بإكليل الورد ، والفقر بالسرج الأحمر الذى يزين الحصان الأبيض) .

(٢٢) أورد الفاخر ما يقرب من ٣٥ مثلا من أمثال الدعاء والنداء . وفى الميدانى ٢/٣٧٦ (١٣٥٢) عدد من أمثال التعجب والاستغاثة .

(٢٣) فاخر ١٦٣ .

قولنا : أخذه الله ، أو أماته الله ، يتضح الفارق فى هذا التصوير القوى الذى توحى به عبارة المثل . فالداعى لا يدعو على خصمه دعاء هينا رفيقا ، بل يود أن تبغته قبضة الله القوية ، فتعبث بأرماق نفسه ، تجمعها تارة وتفرقها تارة أخرى . ناهيك بما فى لفظ (قَمْقَمَ) من جرس قوى ، يتناسب مع قوة المعنى وحِدَّته . ففيها المقطع (قم) يتكرر مرتين ، وفيه القاف وهو حرف قوى الجرس . واللفظ كله بشكله ومعناه يقرب إلى أذهاننا عملية الجمع والتفريق ، وتكرارها فى سرعة وتتابع وعنف .

ومن أمثالهم : (أجنَّ الله جِبَاله[٢٤]) ، وقد يقف المتأمل لحظة متسائلا : ماذا يراد بهذه الكلمة ؟ أيفهم منها أنها دعاء على شخص بأن يفنى الله حياته ، وأن يُجِنَّه — أى يدفنه — فى باطن القبر ، أم يدعو عليه بأن يكثر الله الجن فى الجبال التى يسكنها ، فتملأ حياته أذى وشرا ، وتسعى إلى تنغيص عيشه ، والتنكيل به ما وسعها التنغيص والتنكيل ؟ هذان التفسيران جائزان عند شراح الأمثال ، وسواء أقصد هذا أم ذاك ، فإن العبارة ناطقة من ظاهر تركيبها بما يثير الخوف والفزع ، نحس هذا عند سماع كلمة (جنّ) ، وعند ما يتردد حرف الجيم مرتين . وهذا تصوير بجرس الألفاظ .

وكثير من أمثال النداء يدخل فى باب الهجاء الموجز ، فهى نبز بالألقاب فى صيغة النداء ، يدعو المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة . وقد يكون ذلك على سبيل الدعابة أو على سبيل الجد . مثال ذلك قولهم : (يا جهيزة) وهى امرأة رعناء ، يضرب مثلا لكل أحمق وحمقاء . وقولهم : (يا مُهدِّر الرخمة) يضرب للأحمق ، والرخمة لا هدير لها ، وهذا يكلفها الهدير ، وقولهم : (يا قرف القمع) القرف القشر ، والقمع قمع الوطب ، يصب فيه اللبن ، فهو أبدا وسخ مما يلزق به من اللبن . وأراد بالقرف ما يعلو القمع من الوسخ[٢٥] . ولم يلبث أن أصبح هذا اللون من الهجاء فنا من فنون الرسائل والمقامات ، منذ القرن الثالث الهجرىّ ، فاستخدمه الجاحظ فى هجاء

---

(٢٤) فاخر ٣٧ ، عسكرى ١/١٢١ ، ميدانى ١/١٧٧ .

(٢٥) ميدانى ٢/٣٧٨ . وراجع أمثلة أخرى فى الفاخر ٣٣ ، ٧١ ، ٧٢ .

أحمد بن عبد الوهاب ، فى رسالة التربيع والتدوير ، واستحدث فى هجائه ألقابا من العلوم التى وصل إليها عصره[٢٦] . وكتب بديع الزمان الهمذانى المقامة الدينارية من جملة مقاماته[٢٧] . فجعل شحاذين يتشاتمان بطريقة التنابز بالألقاب ، يقول فيها الشحاذ الإسكندرى : يا بَرْد العجوز ، يا كُرْبة تموز . يا وَسَخَ الكوز ، يا درهما لا يجوز ، يا حديث المغنين . . . الخ فهذه وإن لم تكن أمثالا فهى على غرار أمثال النداء الخاصة بالنبز بالألقاب ، وكل منها — كما هو واضح — صورة تعبر عن مواقف كريهة ، أو أحداث مشئومة ، أو هيئات منفِّرة ، أو معان قبيحة ، ثم يشبِّه بها المخاطب ، فينادى بهذه الصورة ، على سبيل الغلو والإفراط فى الهجاء أو الدعابة .

---

(٢٦) رسائل الجاحظ جمعها حسن السندوبى (مصر ١٩٣٣ م) .

(٢٧) مقامات بديع الزمان الهمذانى وشرحها للشيخ محمد عبده (ط . بيروت ١٩٢٤) ص٢٢٤ وما يليها . ويذكر الثعالبى (لطائف المعارف . ط بريل ١٨٦٧ ص ٣٨) أن النبز بالألقاب كان أمرا شائعا بين أهل بغداد وأهل نيسابور) .

١٠ — فن المثل القديم : الفكاهة

كانت الأسواق والمجتمعات مجالا لنشاط اجتماعى بين القبائل ، وفرصة للهو والتفكه ، يتبادلون القصص والأسمار ، ويُقبلون عليها إقبالا شديدا . والمسامرة عادة عريقة فى الشعوب ، يجتمع أفراد القبائل حول النيران ، يتغنّون ويسمُرُون ، ويفاخرون بأمجادهم ومآثرهم ، ويتبادلون الفكاهة فى وسط الضَّحَكات الصاخبة[١] .

وقد شغف العرب بالسمر ، كما شغف سائر الأمم ، فإذا أقبل الليل اجتمعوا للسمر ، وظلوا فى نشوة الحديث حتى تزقو الدِّيَكة إيذاناً بالصبح ، فينصرفوا على مضض . وهم يستثقلون تلك الديكة الزواقى ، لأنها تؤذن بتفريق شملهم وصرفهم عن لذتهم ، إلى عمل النهار الشاق ، ويضربون بها المثل فى الثقالة[٢] . وكان حرصهم شديدا على السمر فى الليالى المقمرة ، فإذا حل الشتاء حرموا تلك اللذة مكرهين . ومن أمثالهم : (أَضْيَعَ من قمر الشتاء)[٣] . ويبدو أن مجالس السمر العربية كانت تصطنع شيئا من النظم الموروثة . وهى بسيطة أقرب إلى الطبيعة ، أو كانت كذلك أول الأمر ، (فكانت المسامرة بلا مصباح ، فإذا احتاجوا إلى الإضاءة أضرموا نارا كنار السلم .. ولما ظهرت القناديل فى بلاد العرب ، تعجب منها شعراؤهم ، وأكثروا من ذكرها فى التشبيهات ، خصوصا ما كان من قناديل رهبان النصارى فى كنائسهم . وقد ذكر عَبيد بن الأبرص نبراس النبيط[٤] ، وذلك فى قوله :

فهن كنبراس النبيط أو الفرض بكف اللاعب المُسْمِر[٥]

ويصف الألوسى شيئا من عاداتهم فى هذه المجالس ، عند التكلم أو المحاورة[٦] .

---

(١) سلى ٢٤٧ .
(٢) ميداني ١/١٣٧ (١٢٨٤) أثقل من الزواقى .
(٣) نفسه ١/٣٧٢ .
(٤) محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب للأستاذ جويدى (وهى مجموعة محاضرات نشرت أولا بمجلة الجامعة المصرية ص ١٠٧ — ١٠٨) .
(٥) لسان (سمر) .
(٦) بلوغ الأرب ١/٢٧١ .

وربما كان من الممكن أن يتطور فن المسامرة عند العرب ، إلى أن يصبح قريباً من فن التمثيل المسرحى عند الإغريق القدماء . وليس من شك فى أن العرب لم تكن تنقصهم القدرة على بعض العناصر الرئيسية ، التى يقوم عليها فن المسرحية ، كالمحاورة والمحاكاة اللفظية والعملية . ولكن هذه العناصر بمفردها لم تكن كافية لظهور هذا الفن . فقد وقف فى سبيل ظهوره عوامل فنية واجتماعية ؛ ذلك أن العرب كإخوانهم الساميين ، كانوا أميل إلى التعبير بالصور الخاطفة ، والجمل المتلاصقة ، والأسلوب الخطابى ، وهذا النوع من التعبير لا يعين على خلق قصة مسلسلة الحوادث ، مفصلة الأجزاء .

ثم إن انكماش العربى القديم ، فى حيز قبيلته ، وفناء شخصيته فى جماعته ، من جهة ، ونظرته إلى سائر بنى جنسه من غير أفراد قبيلته ، نظرة استغراب ونفور من جهة أخرى ، كل ذلك لا يعين بحال على تولد ألفة التعاون وروح التفاهم ، التى تمليها النزعات الاجتماعية والإنسانية . وفقدان هذا الروح أو ضعفه ، يتنافى مع وظيفة المسرحية الأولى ؛ وهى معالجة شئون الإنسان بوصفه عضوا فى جماعة ؛ ذلك أنها تصف ما يعرض له من صدام ووئام مع الجماعة الإنسانية أولا وقبل كل شىء ، وتصور ما يكون من صراع أحياناً بينه و بين تقاليد أسرته أو أشراف طائفته .

أضف إلى ذلك أن الأدب الخيالى الممعن فى الخيال ، كان أشد ألوان الحديث رواجا فى أسمارهم . وتلك عادة الأمم فى مرحلتها المتخلفة . وقد ارتبطت الخرافة عند العرب بالسمر ارتباطا وثيقا ، حتى صاروا يطلقون لفظ اخترف السمر ، بمعنى استظرفه[٧] . وحتى استخدم الجاحظ حديث السمر مرادفا للخرافة[٨] . وهذا الميل كذلك لا يتمشى مع طبيعة المسرحية . فهى عمل يقوم به آدميون ، ومجالها الأفعال البشرية ، وليس مما يدخل فى طاقتها أن تمثل الخوارق والحكايات الشاطحة فى خيالها تمثيلا عمليا .

(٧) ميدانى ٢/٢٨٣ .

(٨) حيوان ٣/٢١٢ (ولو أردنا أن نحقق الخبر بأن يرذونا أو فرسا يبع بخمسمائة دينار ، لما قدرنا عليه إلا فى حديث السمر) . راجع تعليق عبد السلام هارون على هذا النص فى هامش الصفحة .

وظلت المسرحية بقسميها اللذين عرفهما اليونان ، المَلْهاة والمَأْساة ، مجهولة لدى العرب فى العصور الإسلامية الأولى [٩] . وفى القرن الرابع الهجرى عرفت باسمها فى بعض ما ترجمه العرب عن فلسفة اليونان [١٠] .

عبر العرب عن لهوهم بطريقتهم ، فأودعوه أمثالهم وأسمارهم . والأمثالَ بنوع خاص . وكانت أيضا مادة للسمر ، حشدوا فيها أضاحيكهم ونوادرهم . وفى الأمثال الشعبية ، مجال للانطلاق على السجية ومسرح لتفصيلات الحياة اليومية وما فيها من مفارقات وسخافات ، ومتنفس لرغبات الأفراد والجماعات المكبوتة والظاهرة ، ومرعى خصب للإبداع الفنى الذى يثير لذة العجب أو الإعجاب فى النفس .

يفرق الفرنجة عادة بين نوعين من الفكاهة : النكتة Wit ، والدعابة المرحة Humour . فالنكتة تتميز بالإيجاز ، وتتجلى غالبا فى الكلمة الجامعة ، والصورة اللامعة ، والألعوبة اللفظية ، والجواب الفطن . وهى تقوم فى العادة على عنصرين ، السرعة والمفاجأة ، فهى خاطفة لا تتريث ، مثيرة بمفاجآتها ، تبغت السامع أو القارىء بصورها وآلاعيبها ، فتورث فى نفسه نوعا من الانبساط ، أو تبعث على الضحك .

والدعابة المرحة على نقيض النكتة ؛ تتجلى فى العبارة المبسوطة ، والقطعة الأدبية المحلاة ، مع سرد المواقف سردا طبيعيا بعيدا عن المغالطة والمغالاة ، ووصف المفارقات والطبائع ، دون تهويل فى الصنعة . والأديب المرح رقيق مرهف الحس ، متعدد جوانب الشعور ، يكره الإثارة المفاجئة ، والألاعيب اللفظية الصارخة ، تجرى دعابته ، فى خلال ما يكتب ، وديعة سلسة ، تنساب فى أسلوب مفصل مسهب [١١] .

---

(٩) Islamic Culture, Oct. 1927, (Wit and Humour in Arabic Authors by Margoliouth pp. 522 sq.)

(١٠) قدامة ٢٧ (مقدمة طه حسين) .

(١١) راجع مقدمة هازلت :

The Complete Works of William Hazlitt , Volume six, (London 1931) . (Lectures on the English Comic Writers pp. 1 — 30) .

وراجع أيضا :

Allardyce Nicoll; The Theory of Drama, London 1931, p. 198.

ألوان النكتة فى المثل :

النكتة الخيالية :

فلا يكفى فى القطعة الفكاهية ، لكى تكون دُعابة مرحة ، أن تكون مطولة مفصلة ، بل لا بد أن يتوافر فيها روح التعاطف ، والتعبير الطبعى التحليلى . فقد تكون القصة مع طولها وإسهابها سلسلة من النِّكات ، كما فى قصص الخرافة والأكاذيب التى تداولها العرب فى أسمارهم . مثال ذلك ما رواه حمزة ، قال : (زعموا أن القطاة والحَجَلة تهاجتا . فقالت الحجلة : قَطَا قطا ! أرى قفاك أمعطا ، بيضك ثنتان ، و بيضى مائتان . فقالت القطاة مجيبة لها : حَجَل حَجَلْ ! أنت تفرين فى الجبل ، إذا بُصرت بالرجل . . . وقالت الأرنب للوَبْر : وَبْر و بْر ، عجز وصدر ، وسائرك حفر ثفر ، فقالت الوبر للأرنب : أَرَان أران ، عجز وكتفان ، وسائرك أكلتان[١٢]) . فهذه الخرافات وأشباهها (مما يتمثل به العرب على المزح ، ولا أصل له[١٣]) ، ليست إلا نكتا متصلة ، فيها الإفراط فى وصف الحيوان ، إلى حد أنه يمثل دور الإنسان المفكر المتكلم ، وفيها اللفتات السريعة ، التى يعرضها الحوار بين القطاة والحَجَلة . و بين الأرنب والوبْر ، وفيها العبارات القصيرة المسجوعة ، التى يتقاذفها المتحاورون فى سرعة صنعة .

ومن شأن العرب أن تبالغ فى وصف الشىء[١٤] ، حتى ليذهب الخيال بهم إلى اختراع الأكاذيب ، وهى كثيرة عندهم[١٥] . وهذا من دواعى شيوع النكتة بينهم ، وكانت هى الفكاهة المفضلة فى أمثالهم وأسمارهم .

والألغاز كالخرافات من هذه الناحية ، فهى تجمع بين التحدى والمفاجأة ،

---

(١٢) منفوخ ص ٧ . (١٣) فاخر ٦٢ .

(١٤) قدامة ٦١ .

(١٥) ميداني ١/٨٩ ، عسكرى ٢/٩٥ ، عيون الأخبار لابن قتيبة ، طبعة دار الكتب ٢/٢٧ ، الأغاني طبعة الساسى ١٥/٦١ — ٦٢ .

والصورة المغربة فى الخيال . وكذلك الأمثال التى على وزن أفعل ، فيها المبالغة فى التشبيه ، والفكاهة فيها فى الأغلب الأعم من نوع النكتة .

بل إن المواقف والحوادث الفكاهية التى تقصُّها الأمثال ، هى سرد سريع مركَّز ، ينتهى بالنكتة ، مثال ذلك قولهم إن باقلا الذى ضرب به المثل فى العى ، كان قد اشترى ظبيا بأحد عشر درهما ، فمر بقوم ، فقالوا له : بكم اشتريت الظبى . فمد يديه ، ودلع لسانه ، يريد أحد عشر . فشرد الظبى وكان تحت إبطه[١٦] . وقولهم فى المثل : (أوسعتُهم سبًّا وأَوْدَوْا بالأبل) ، إن رجلا أغير على إبله ، فأُخِذَت ، فلما توارى المغيرون بها ، صعد أكمة ، وجعل يسبهم ، ثم رجع إلى قومه ، فسألوه عن إبله ، فقال هذا المثل[١٧] . وقولهم فى المثل : (أحمق من عِجل بن لُجيم) قيل له : ما سميت فرسك ؟ فقام ففقأ عينه ، وقال : سميته الأعور[١٨] . ونزل عربى جائع بقوم ، فأمروا الجارية بتطييبه فقال : (بَطْنى عطِّرى وسائرى ذَرِى) ، يريد املئى بطنى فهو أهم عندى من تطييبه[١٩] .

النكتة الجنسية والهجائية :

وإذا رجعنا إلى أمثال الضبى ، وجدنا أكثر المواقف الفكاهية فيها يقوم على أمرين :

(أحدهما) تصوير المسائل الجنسية ، والتعبير عنها بألفاظ مكشوفة[٢٠] .

(والثانى) وصف العيوب التى تتعلق بالأفراد والجماعات ، كالحماقة والعجز والجبن .

وأمثال الدعاء والنداء وما شاكلها ، أميل إلى تناول جانب الهجاء واللعن . أما المدح والمباركة فقليل قلة ظاهرة . فالذى ورد عنهم من مِثْل « حيّاك الله و بيّاك » « وأقرّ الله عينه » وما أشبه ، أقل مما ورد من مِثْل : « قمقم الله عصبه » ، و « أباد الله خضراءهم » . وكذلك الأمر فيما يتعلق بأمثال النداء التى يرجع قسم كبير منها إلى

---

(١٦) ميدانى ١/٤٢٧ (١٢٨٤ هـ) .
(١٧) نفسه ١/٢٦٧ .
(١٨) نفسه ١/٢٢٧ (١٣٥٢) .
(١٩) نفسه ١/١٠٤ .
(٢٠) ضبى ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ .

النبز بالألقاب . والنـكتة — فى صورها البسيطة التى لم تظفر بنصيب كبير من الحضارة — تتغذى من الهجاء ، وتزدهر فى اللعن ، لتشبع غريزة التفوق فى نفوس السامعين ، وتشعرهم بما سماه هوبز Hobbes « المجد المفاجىء Sudden Glory » وهو مبعث الضحك عنده ، وتُصَوِّر من الحالات البشرية ، ما هو غريب على مألوف الناس ، ومنحرف عن جادة المبادىء التى يقرها المجتمع .

ولعل أكثر الأمثال القديمة التى تقصد إلى الفـكاهة ، يميل إلى الوصف الحسى والعملى ، فيصور مواقف أو حوادث ، أو يشير إليها إشارة خاطفة . وهى فى تصويرها حِسِّية لاصقة بالأرض ، لا تستهدف غرضا نقديا ، ولا مغزى اجتماعيا . وقلما كانت المواقف التى تصور حماقات الناس وعيوبهم — فى مفهومها الشعبى — عند العرب ، ذات نزعة نقدية أو تأديبية . وأغلب الظن أن (المغزى) أو (المضرب) قد ألحق بالأمثال أو بكثير منها ، فى عصور متأخرة عن نشأة الأمثال أنفسها . وكثيرا ما ترد الأمثال فى كتاب الضبى خالية من مضاربها ، يكتفى فيها بقولهم : ذهب مثلا ، أو صار مثلا ، أو ما شاكل ذلك .

النـكتة الصـوتية :

لون آخر من النـكتة فى المثل القديم ، أعنى الألعوبة اللفظية ، ويلفت نظرنا منها ما يقوم على التجانس الصوتى . وهى فى صورها الساذجة ، قد نجمت من مظاهر التفـكير الفطرىّ . وإذا نظرنا فى حياة الطفل ، وجدنا أنه مولع بتـكرار اللفظ أو ترديد الألفاظ المتشابهة الجرس فى داخل العبارة . يرددها مرة بعد مرة ، ويساجل أترابه فى النطق بها صحيحة ، دون أن يعثر اللسان أو يختلط القول . وعندنا فى العامية شواهد كثيرة . والطفل الإنجليزى يحفظ عدداً من التعبيرات التى تزدحم فيها المجانسات الصوتية(٢١) .

وحياة الشعوب — فى المرحلة الأولية — تشبه إلى حد ما حياة الطفل . والطفل من عادته أن ينظر إلى اللغة نظرته إلى اللُّعَبَ والطُّرَفَ التى تقع فى يده . وقد ظهرت هذه

(٢١) مثال ذلك A noisy noise annoys an oyster most.

المجانسات فى الأمثال العربية القديمة ؛ تجانست فيها أصوات الألفاظ ، على تفاوت فى نوع هذا التجانس ومقداره فى داخل العبارة . فربما تفرّق الجنس على أجزاء العبارة فى هيئة غير منسقة كقولهم : « جاء بدَبَى دُبَىّ ودَبَى دُبَيّين » الدبى الجراد ، ودُبَى موضع واسع . أى جاء بالماء الكثير كجراد دُبَى[٢٢] .

وربما جانسوا بين لفظين من طريق الإتباع كما قالوا : كثير بثير ، حسن بسن ، شيطان ليطان ، عطشان نطشان . وظهر هذا فى أمثالهم فقالوا : لا يعرف الهر من البر — ما يفقه ولا ينقه — ما زلنا بالهياط والمياط — ما له سم ولا حم — ما له هارب ولا قارب — ما له سعنه ولا معنه — ما له ثاغية ولا راغية — ما له سبد ولا لبد — جاء بالطم والرم[٢٣] . وبعض هذه الأمثال مختلف فى شرح معانى ألفاظ الإتباع فيها كالطم والرم ، والهر والبر[٢٤] . وفى شرحها اجتهاد ظاهر من أئمة اللغة ، لخلق مناسبة معنوية بين لفظَىِ الاتباع .

وقد يدخل التجانس بعض التنسيق فى داخل التركيب بحيث يكون قريبا من السجع ، وذلك نحو : (أصوص ، عليها صوص) ، الأصوص الناقة الحائل السمينة ، والصوص اللئيم . يضرب للأصل الكريم يظهر منه فرع لئيم[٢٥] . وقالوا : (إنما خدش الخدوش أنوش) ، مثل يضرب فيما قدم عهده . وأنوش هو الاسم العبرانى חנוך ابن شيث الوارد فى سفر التكوين) ٤ : ٢٦ ، ٥ : ٦ ، ٧ الخ . . .) والخدش هو الأثر ، والمعنى أن ابن شيث أول من كتب وأثّر بالخط فى المكتوب[٢٦] ، وقالوا : «أنت تئق وأنا مئق فمتى نتفق»[٢٧] . التئق السريع إلى الشر الممتلئ غضبا ، والمئق : السريع إلى البكاء ، والقليل الاحتمال ، فكأن التئق والمئق مختلفان أخلاقا ، ذاك ينزع إلى

---

(٢٢) ميدانى ١/١٧٩ .
(٢٣) راجع فاخر ١ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ميدانى ٢/٢٢٣ — ٥ (١٣٥٢) .
(٢٤) عسكرى ١/٢١١ — ١٢ ، فاخر ٢٠ .
(٢٥) ميدانى ١/٢٦ (١٣٥٢) . (٢٦) نفسه ١/٢١ .
(٢٧) نفسه ١/٤٨ .

الشر لغيظه ، وهذا يضيق ذرعا باحتماله . وينسب إلى لقمان أنه قال : (لى الغادرة والمتغادرة ، والأفيل النادرة)[٢٨] .

والملاحظ أنه كلما اشتد التجانس الصوتى فى داخل العبارة ، كان أبعث على الضحك ، وأقرب إلى النكتة ، فإذا ازدحمت العبارة بهذا التجانس ، أخذنا الدَّهَش لأول وهلة ، حين تغيب عنا الصلة بين هذا الجرس المتلاحق المتشابه ، الذى يبدو فى ظاهره كأنه لغو وهذر ، وبين ماتحمله هذه الألفاظ من معان مألوفة مفهومة ، ولكن سَرْعان ما ندرك الصلة بين الجرس والمعنى ، فيتبدد الدهش ، وتنجاب الغرابة ، ويحدث هذا الانعكاس الذهنى الخاطف ، الذى يبعث على الضحك ، ولكن لايلبث هذا الانعكاس الذهنى الخاطف أن تفتر قوته ، ويضعف تأثيره ، حين يخف التجانس فى العبارة ، وتتباعد مواقعه فيها ، ويتوزع الجرس على الجمل المترابطة المطولة ، فيكون جناسا حينا ، وسجعا حينا آخر .

نستطيع بعد الذى ذكرنا أن نرجح أن الفكاهة فى المثل العربى القديم ، قد آثرت فى معظمها النكتة ، وعزفت عن الدعابة المرحة . ولعل النزعة المتحيزة التى سيطرت على العربى القديم ، وهى التى أشرنا إليها فيما سبق ، قد جعلته ينظر إلى نفسه وإلى العالم الذى يحيط به من زاويته هو ، فلم يتح له روح التعاطف يفسح المجال لتعدد نواحى الشعور ، وسعة النظرة المستأنسة الأليفة العاطفة ، واستعراض المفارقات والمتناقضات استعراض المتفحص الناقد الذى لايتحيز ولايتبذل . أضف إلى ذلك عائقا أساسيا حال دون تمكن الدعابة المرحة فى أدب الأمثال . ذلك هو تلاصق العبارات ، الذى أشرنا إليه من قبل ، وبناء العبارة بحيث تكون قائمة بنفسها ، متكافئة مع أخواتها ، مع الميل إلى التصوير السريع الخاطف ، والعزوف عن أساليب التحليل المتصل الهادىء ، والاتجاه إلى الجانب الشكلى السمعى فى الأسلوب ، كل ذلك مجتمعا قد وجه العربى إلى النكتة ، وصرفه عن الدعابة المرحة .

غير أن فكاهة المثل قد لقيت تطورا فى الاتجاه الكتابى ، ولاسيما بظهور الإسلام

---

(٢٨) ضبى ٧١ (الغادرة الباقية . الأفيل صغار الأبل) .

فى الحجاز . نشأ الرسول فى وسط يقدر الأدب الفكاهى و يصطنعه ، و يتخذه مادة للسمر . وكما وجدنا الإضحاك حرفة فى مجالس ملوك الحيرة[٢٩] ، نجده فى الحجاز حيث كان المضحكون يشيعون الفكاهة فى مكة والمدينة ، وكان للرسول صلى الله عليه وسلم أفراد يفا كهونه ، منهم نعيمان بن عمرو وعبد الله الحمار[٣٠] . ومن حديث لعائشة يتضح أنه كان لنساء المدينة مضحكات ، ولنساء مكة مضحكات[٣١] ، وامتدت هذه الحرفة إلى صدر الإسلام ، حيث نجد الغاضرىّ وأشعب مضحكَيْن للمدينة .

على أن الدعوة الإسلامية ، دعت إلى وداعة المظهر ، وقدرت القيم المعنوية ، ووجهت الأنظار إلى السماء والمستقبل البعيد ، وكان لهذا أثر من غير شك فى صناعة الأدب وفى تذوقه ، وشاعت فى فكاهة الرسول روح إسلامية ، فيها الدعة ، والاحتفال بالمغزى ، وتجنب الهُجْر من القول ، نجد هذا فى فكاهة المواقف العملية[٣٢] ، وفى قصص السمر التى كان يقصها الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا على نسائه[٣٣] . وأخذت النزعة التأديبية تظهر فى النقد الفكاهى ، الذى كان يوجهه إلى أصحابه أحيانا[٣٤] . وروى عنه صلى الله عليه وسلم عدد من الفكاهات اللفظية يباسط بها أصحابه ، تعتمد على ماسماه ابن الأثير بالمغالطة المَثَلية[٣٥] ، وكلها ناطقة بروح التعاطف الإنسانى ، وتعدد جوانب الشعور فى نفسه . وكان جديرا بفكاهة كهذه أن تنقل الفكاهة العربية نقلة جديدة ، وأن تصل إلى الدعابة المرحة Humowr لولا أنها كانت — من حيث الصيغة وطريقة التعبير — لا تزال تتمسك بالنهج الفنى الذى عرفه الساميون . أعنى طريقة الإيجاز ، والاجتزاء باللمحة السريعة ، والكلمة الجامعة ، والإشارة الخاطفة ، والصورة المركزة ، وهذا ما جعل كِفة النكتة راجحة فى فكاهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد دخلها على يده كثير من الصقل والرقة ، فانتقلت الفكاهة القديمة من نكتة حسية لاصقة بالأرض ، إلى نكتة راقية مهذبة .

---

(٢٩) ضبى ١٥ ، ٤٧ .
(٣٠) إصابة ٢/٣٥ . (٣١) مراح ٣٣ . (٣٢) نفسه ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ .
(٣٣) نفسه ٦٠ . (٣٤) نفسه ٢١ . (٣٥) مراح ١٤ ، المثل السائر ٢/٢١٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثالث

المثل الكتابي

١ ـ المثل الكتابى تراث مشترك

رأينا فى الباب السابق أن المثل العربى القديم قد عبَّر فى الأغلب الأعم عن اتجاهات العرب الشعبية ، وأن الموضوعات التى استمدها من أصول غير عربية لم تلبث أن لبست ثوبا شعبيا ، وتبنّاها العرب واتخذوها جزءا من تراثهم ، وصاغوها فى القالب الشعبى المألوف الذى صاغوا به سائر أمثالهم . ورأينا — أيضا — أن حركة التدوين التى قامت بالعراق ، وأدت إلى جمع الأمثال العربية وتسجيلها ، قد سارت قُدُما فى غمار هذا النشاط الثقافى الذى خلفه الآراميون والفرس فى هذه المنطقة . فالمثل العربى القديم لم يَخْلُ من آثار كتابية ، ولكنها كانت منحصرة فى جانبين : أحدهما ما قام به الكتابيون من الآراميين والفرس من تشجيع لحركة جمع الأمثال وتدوينها ، والثانى ما أودعه العرب فى أمثالهم من حوادث وأفكار كتابية استمدوها من نصوص مدونة ، أو من الأوساط الكتابية ، التى كانت تشغل مناطق من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وبالرغم من هذا التأثير الكتابىّ ، ظل المثل العربى القديم محتفظا بطابعه ، متميزا بصبغته . واستطاع سلطان اللغة أن يُخضع هذه الأفكار أو تلك الموضوعات الكتابية ، فيصوغها فى قالب عربى قديم . وإذا كنا قد وجدنا ألفاظا غير عربية قد تسربت إلى بعض هذه الأمثال ، فإن ذلك — بطبيعة الحال — لم يغير من أصالة التعبير ، ولم يضر خصائصه الشعبية .

فالتأثير الكتابى فى المثل الشعبى القديم — حيثما وجد — تأثير جزئى لا يمس قالب المثل وصورته ، ولا يطغى على الطابع الإقليمى الذى يميزه . ومن هنا ندرك فرقا جوهريا بين المثل الشعبى والمثل الكتابى .

وفرق آخر ، هو النغمة التأديبية التى تسرى فى المثل الكتابى قوية واضحة ،

يصوغها الحكيم فى معنى كلى ، أو مبدأ إنسانى ، أو قاعدة عامة . فإذا لجأ إلى المجاز والتصوير ، اتَّخَذَ ذلك وسيلة للعبارة عن المعنى الكلى ، أو للإبانة عن تلك النغمة التأديبية . أما المثل الشعبى فغايته فنية غالبا — أو بعبارة أدق — يستهدف وصف جزئية من الجزئيات كحادثةٍ أو شخص ، أو هيئة أو حركة ، أو نكتة لفظية .

وفرق آخر يتعلق بالنشأة والمورد ، فمؤرخ المثل الشعبى العربىّ ، ينبغى أن يتجه ، فى فهم صورته ومادته ، إلى البيئات العربية التى صدر عنها . أما المثل الكتابى فهو فى خصائصه العامة — على الأقل — تراث مشترك بين شعوب مختلفة ، يمثِّل وحدة ثقافية بينهم[١] .

فإذا أردنا أن نساير المثل الكتابى فى مراحله السابقة فينبغى أن نتجه إلى مصر القديمة وبابل وفلسطين وغيرها من بلاد الشرق القديم . والتاريخ يحدثنا أن هذه البلاد كانت تتعاطى الحكمة وتتبادلها . وكانت الصلات الثقافية — بنوع خاص — قوية لا تكاد تنقطع . كانت فلسطين منذ حوالى ١٦٠٠ قبل الميلاد ، ولاية تابعة للدولة المصرية ، ومن قبل هذا التاريخ عرفت الصلات الثقافية بين البلدين ، وظلت هذه الصلات قائمة ، حتى بعد أن انقطعت الروابط السياسية بينهما بعد عهد رمسيس الثالث ١١٩٨ — ١١٦٧ . وقد استمدت فلسطين كثيرا من عناصر ثقافتها من مصر . والنظائر بين الأدبين كثيرة أثبتها العلماء . فالشبه قريب بين الترنيمة الشمسية المقدمة إلى آتون و بين ما ورد فى المزمور الرابع بعد المائة[٢] . وظهرت حكمة الحكيم المصرى أمينوف Amen-em-opet فى سفر الأمثال المنسوب إلى سليمان (٢٢ : ١٧ — ٢٤ : ٢٢)[٣] . وفى معظم إصحاحات هذا السفر آيات قريبة الشبه بنظائر لها فى الحكمة المصرية القديمة[٤] . ويبدو أن حكماء مصر أنفسهم كانوا على صلة بحكمة البلاد الأجنبية ، كان الحكيم المصرى يشغل منصبا كبيرا فى الدولة ،

---

(١) بنتسن ١/١١٦ .
(٢) ANET ٣٧٠ .
(٣) ANET ٤٢١ ، لودز ٦٥٧ ، بفايفر ٣٩ ، بنتسن ١/١١٤ .
(٤) ANET ٤٠٥ — ٤١٧ ، ٥٠٦

وكانت تتاح له الفرصة للرحلة إلى البلاد الأجنبية ليتعلم حكمتها ، وكان على الحكيم الذى يعمل فى خدمة جهة أجنبية ، أن يحذق لغات التفاهم الدولى فى ذلك الحين ، كالبابلية فى عصر العمارنة ، والآرامية فى العصر الفارسى[٥] .

وتشير التوراة إلى حكمة مصر والشرق ، فورد فى سفر الملوك الأول (٤ : ٣٠ — ٣١) (النص العبرى ٥ : ١٠ ؛ ١١) « وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر . وكان أحكم من جميع الناس » . ثم ذكر النص بضعة أسماء منهم إيثان الازراحى ، وهو ينتمى إلى أدوم[٦] التى تقع جنوبىّ البحر الميت . وفى سفر الأمثال نجد مجموعتين إحداهما منسوبة إلى أجور بن ياقه من أهل مَسَّا ، وهم قبيلة بين أدوم و بلاد العرب[٧] (أمثال ٣٠ : ١) ، والأخرى إلى لموئيل ملك مَسّا (أمثال ٣١ : ١) .

وسواء أكانت هذه الحكمة من أقوال هؤلاء الغرباء ، أم من نتاج بنى إسرائيل ، فإن مجرد ذكر أسمائهم دليل على أن إسرائيل قد عرفت شعوب الشرق الأخرى ، وعرفت عنهم الحكمة .

وفى سفر الأمثال — أيضاً — طائفة كبيرة لها نظائر فى الأدب البابلى والأدب الآرامى[٨] ، ومنها ما يختصّ بقصة أحيقار الحكيم الأشورى . وقد امتد تأثير قصة أحيقار إلى أسفار أخرى من الكتب المقدسة ، فأثر فى سفر طوبيا وحكمة ابن سيراخ ، وهما من الأسفار المحذوفة (أبوكريفا)[٩] . ويحتمل أن يكون مَثَلُ العبد الشرير ، ومثل شجرة التين المغروسة فى الكرم ، وهما من أمثال الإنجيل (لوقا ١٢ : ٤٥ —

---

(٥) بنتسن ١/١٧١ .

(٦) لودز ٦٥٦ .

(٧) نفسه ٦٥٦ .

(٨) سائر الأمثال ٢ : ١٦ — ١٩ ، ٣ : ٩ — ١٠ ، ٣ : ٢٧ — ٢٨ ، ٤ : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥ : ١ — ٢٣ ، ٦ : ٢٤ — ٢٩ ، ٧ : ٥ — ٢٧ ، ١٠ : ٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ١٢ : ١١ ، ١٣ ، ١٣ : ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٤ : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ الخ . . . (ANET ٤٢٥ — ٤٣٠) .

(٩) لودز ٦٠٥ .

٤٦ ، متى ٢٤ : ٤٨ — ٥١ ، لوقا ١٣ : ٦ — ٩) ، قد اقتبسا من قصة أحيقار[١٠] . وانتقل أثر أحيقار إلى اليونان قبل ميلاد المسيح ، فظهر فيما كتبه حكماء الإغريق ، وفيما نسب إلى إيسوب[١١] .

ولم تكن العلاقة بين العرب وأصحاب هذه الحكم ضعيفة واهية ، فقد أشارت النقوش البابلية أكثر من مرة إلى صلات ملوك بابل وأشور ببلاد العرب[١٢] . وكان بعض شخصيات سفر أيوب من أصل عربى[١٣] . وفى عصور ما بعد الميلاد أخذت الثقافة الآرامية تغزو عدة مناطق من شبه الجزيرة العربية ، كما رأينا فيما سبق ، وكانت الحكمة اليونانية قد انتشرت فى مدارس الرُّها وجُنْدَيْسابور والحِيرة على أيدى علماء السريان الذين بدءوا منذ حوالى ٣٠٠ بعد الميلاد ينقلون هذه الحكمة ، وواصلوا حركتهم إلى سنة ٧٠٠ م ، أى إلى عصر بنى أمية فى تاريخ المسلمين[١٤] . ويقال إن عددا من الرهبان السريان فى القرن الخامس الميلادى قد بشروا بالمسيحية فى الحبشة ، على المذهب القائل بالطبيعة الواحدة[١٥] ، وهو المذهب الذى اعتنقه الغساسنة فى الشام . وكانت الصلات بين الحبشة واليمن قديمة ومستمرة . وبذلك أحدقت الآثار الكتابية ببلاد العرب ، وتسربت هذه الآثار إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وتكاتفت جهود السلطات الحاكمة فى العراق والشام واليمن فى الجاهلية ، على تشجيع هذه الدعوات الكتابية ماديا وأدبيا . وفى فورة هذه الدعوات نشطت حكمة العرب فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة . وفى الوقت الذى كانت الحكمة الشعبية تلاقى ازدهارا على أيدى العراقيين ، وتجد تغاضيا من جانب الغساسنة وسادة الحجاز واليمن قبل الإسلام ، كانت الحكمة الكتابية تشق طريقها فى أنحاء البلاد دون تفرقة بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، وتلقى عناية القائمين بالأمر فى هذه المناطق

---

(١٠) نفس المرجع والصفحة .

(١١) لودز ٦٠٦ . (١٢) ANET ٢٨٣ — ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ — ٣٠١ ، ٣١٦ .

(١٣) لودز ، ٦٥٦ . (١٤) دونالدسون ٩٦ .

(١٥) J. S. Trimingham; Islam in Ethiopia, (Oxford 1952), p. 40.

جميعا . وإذا كان الغساسنة وسادة الحجاز واليمن قد انصرفوا عن جانب التراث الشعبي فى منطقتهم ، فقد عضدوا الدعوات الكتابية ، وساندوا حركاتها ، وشجعوا حكماء العرب ما وسعهم التشجيع . ومن أقدم هؤلاء الحكماء : زهير بن جناب القُضاعى ، وقضاعة كانت واقعة تحت نفوذ الغساسنة . قالوا : (لم يكن فى العرب أنطق من زهير بن جناب ولا أوجه عند الملوك ، وكان لشدة رأيه يسمى كاهنا)[١٦] . ووصف بأنه (حازى قومه ، والحُزاة الكهان)[١٧] . وحازى تقابل فى العبرية חזה بهذا المعنى نفسه . وورد كذلك فى الآرامية والسريانية[١٨] .

وفى الحجاز قام عدد من الحكماء فى الجاهلية ، منهم أمية بن عوف الكِنَانىّ ، وكان من الحنيفية[١٩] ، يدعو إلى ترك الآلهة والتمسك بالله واحد ، وكان يعظ العرب فى فناء البيت[٢٠] . وعامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ ، وهو حكيم قيس ، وكان متصلا برجل من ملوك غسان[٢١] . ومن حكماء قريش هاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب ، وأبو طالب ، ومن حكماء إياد قس بن ساعدة ، ومن تميم أكثم بن صيفىّ ، وهم كثيرون متفرقون على القبائل المختلفة[٢٢] .

والذين اشتهروا من هؤلاء الحكماء كانو ينهجون نهجا يذكِّرنا بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم ، فكان الحكيم العربى ، كالحكيم البابلىّ والعبرىّ ، يجمع أحيانا إلى عمل القاضى والمشرِّع حرفةَ الكاهن والطبيب والمنجِّم . فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة[٢٣] . وكان بعض حكماء العرب يورِّثون الحكمة أبناءهم ، كما صنع حكماء الشرق القديم ، حين كانوا يلقِّنون أولادهم تعاليم الحكمة[٢٤] . فورِثت ابنةُ عامر بن الظَّرِب الحكمة من أبيها ؛ ورُوى أن صُحَر بنت

---

(١٦) سجستانى ٢٨ . (١٧) نفسه ٢٥ .
(١٨) قاموس عبرى ٣٠٢ .
(١٩) راجع صلة اللفظ بالنبطية (وات ١٦٢ — ١٦٤) . (٢٠) سجستانى ٨٠ .
(٢١) نفسه ٤٨ . (٢٢) ميدانى ١/٤١ (١٣٥٢) ، بلوغ الأرب ١/٣١١ = ٣١٢ .
(٢٣) بنتين ١/١٧٠ . (٢٤) بولانو ٦ — ٩ ، بنتين ١/١٧٣ .

لقمان من حكيمات العرب ؛ وكانت ذرية هاشم بن عبد مناف حكماء قريش فى الجاهلية ، أعنى هشامًا وعبد المطلب وأبا طالب . واشتهر فى الإسلام على بن أبى طالب بالحكمة . وعرف بها عمرو بن العاص ، كما عُرِف بها أبوه العاص بن وائل فى الجاهلية .

وكان من حكماء العرب من التحقوا بخدمة ملوكهم ، واتصلوا ببلاط المناذرة والغساسنة وملوك اليمن[٢٥] . وهذا ما كان يصنعه حكماء الشرق الأدنى القديم ؛ إذ كانوا غالبا موظفين فى الدولة ، يحملون أكبر المناصب فيها ، وكان منهم الملوك والوزراء[٢٦] . وعرفت طبقة من حكماء العرب بأنهم كاتبون ، وكان الواحد منهم إذا أجاد الحكمة والكتاب سموه بالكامل[٢٧] . وهذا مانجده عند حكماء الشرق القديم . فكانوا يسمّون الكتبة غالبا ، والكاتب منهم كان يحمل منصبا خطير فى الدولة . وكانت الحكمة تعلم فى المدارس والمعابد ، فى بابل ومصر وأُجَرِيت Ugarit ، وأشار الكتاب المقدس إلى أماكن تعليمها ، فذكر رءوس الأسواق وثغور المدن (أمثال ١ : ٢٠ ، ٨ : ٢) ، وألمع إليها ابن سيراخ فى الجامعة (جامعة ابن سيراخ ٥١ : ٢٣ ، ٢٩ ، ٤ : ١٥ ، ١٤ : ٢٣ — ٢٤) . وكان من أهم وسائل التعليم فى هذه المدارس تدريب الطلاب على فن الكتابة وتعليم اللغات . ومن أقدم صور التعليم فى الشرق أن يلقن الآباء أبناءهم الحكمة ، ويمرنوهم على كتابتها[٢٨] .

ولما كان الحكيم ذا صلة وثيقة بالسلطة الحاكمة ، أو كان هو من أصحاب هذه السلطة ، لزم أن يكون متمرسا بشئونها ، صاحب كلمة الفصل فى مختلف القضايا ومشاكل الدولة . ومن ثم كان من اختصاصه التشريع والقضاء ، وكان هذا مرتبطا بالدين فى الحكمة القديمة . ولكَتَبَة فلسطين شهرة فى ذلك الميدان ، وكانت

---

(٢٥) أكثم بن صيفى (سجستانى ١٦ — ١٨) ، زهير بن جناب (سجستانى ٢٨) ، عامر ابن الظرب (سجستانى ٤٨) .

(٢٦) بنتسن ١/١٧٠ (٢٧) بلاذرى ٤٧٩ .

(٢٨) بنتسن ١/١٧٠ — ١٧٢ .

كلمة (كاتب) أو (الكاتب العلامة) لقبا للحكيم الذى يكون عالماً فى الشرائع ، وبذلك سمى عِزْرا وأخنوح ، ولقب هذا الأخير أيضا بكاتب العدالة[٢٩] .

وكان التشريع والقضاء من عمل حكماء العرب كذلك ، تفزع إليهم القبائل ، يتحاكمون إليهم فيما شجر بينهم[٣٠] . وكثير من سُنَن الجاهلية كانت أحكاما نطق بها هؤلاء . وربما جاء الإسلام فأيَّد بعضها . فيروى أن عامر بن الظَّرِب أول من أجرى سُنَّة الخلع ، فقد زوج ابنته من ابن أخته ، وزودها بنصائح ، فلما أدخلت على زوجها نفرت منه ، فخلعها عامر منه . وهذا — فيما يقال — أول خلع كان فى العرب . وقد خلع الرسول صلى الله عليه وسلم حبيبة بنت سهل بن ثابت بن قيس الأنصارىّ لأنها كانت تكرهه[٣١] . ويؤثر عنه حكم فى مسألة الخنثى ، وجاء الإسلام مؤيدا له[٣٢] . ويروى عن عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه الصلاة والسلام سُنَنٌ جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح المحارم[٣٣] .

وكان الحكيم العراقىّ أو الشامىّ أو المصرىّ القديم ، رجل دين فى كثير من الأحيان . فقد اتصل الدين بالحكمة اتصالا وثيقا . وكانت مدارس الحكمة فى الشرق القديم ، تقوم فى المعابد أو تلحق بها ، وهذا ما جعل بعض الباحثين يفترض أن أدب الحكمة نشأ من أدب التعبد الدينىّ ، والمزامير بنوع خاص[٣٤] . وقد رجحنا فى الباب الأول من هذا البحث أن الحكمة قد اقترنت منذ نشأتها بالسلطة الدينية والزمنية معا . ومن ثم توارث الحكماء النظر فى الشئون الدينية كما توارثوا تدبير الأمور الزمنية . وكانوا يتعاطون المسائل الغيبية فى شتى مظاهرها كالسحر والكهانة[٣٥] .

---

(٢٩) نفس المرجع والصفحة .
(٣٠) بلوغ الأرب ١/٣١١ — ٣١٢ .
(٣١) سجستانى ٤٧ — ٤٨ .
(٣٢) نفسه ٤٥ .
(٣٣) التمهيد ١٠٩ — ١١٠ وراجع ميدانى ١/٤١ (١٣٥٢) .
(٣٤) بنتسن ١/١٧٤ .
(٣٥) نفس المرجع والصفحة ، وراجع الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث .

ومثل هذا نجده لدى حكماء العرب ، فمنهم من اشتغل بالكهانة كزهير بن جناب ، ومنهم من كان من الحنيفية كأمية بن عوف ، ومنهم من بشّر بالمسيحية كقس بن ساعدة . وكانت من أقوال هؤلاء على اختلافهم طائفة من الحِكَم تتعلق بالدعوة إلى الألوهية والبعث والتكهن بالغيب . وإلى جانبها طائفة أخرى من الحكم الزمنية تتعاطى الطب والتشريع والأخلاق والسياسة . وأصبح مدلول الحكمة عند العرب قبيل الإسلام وفى زمن ظهوره ، كما كان مدلولها عند الساميين القدماء ، مقترنا بالدين والكتابة . وامتدحها القرآن الكريم بقوله (ومن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أوتى خيراً كثيراً) ٢ : ٣٦٩ . وبهذا المعنى وُصِف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يعلِّم الكتاب والحكمة[٣٦] . واشتهر بين العامة والخاصة من شعوب الشرق الأدنى هذا القولُ المأثور (رأسُ الحكمة مخافةُ الله) . فنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[٣٧] ، وورد فى التوراة[٣٨] .

وتتشابه أقوال حكماء الشرق الأدنى القديم ، ومنهم حكماء العرب ، فى تلك النغمة التأديبية التى أشرنا إليها ، فهى وصايا ونصائح يوجهها الآباء إلى الأبناء ، أو المعلمون إلى تلاميذهم ، أو يخاطبون بها عامة الناس ، يأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ويرسُمون لهم المبادئ والمُثُل فى شتى شئون الحياة .

وبالجملة ، يتضح من الخصائص العامة التى ميزت الحكمة الكتابية ، أن هذه الحكمة كانت تراثا مشتركا بين شعوب الشرق الأدنى ومن بينها العرب ، وأنها كانت تؤلف وحدة ثقافية تشبه فى الوقت الحاضر وحدة الثقافة الأوربية . كلتاهما تحمل خصائص عامة مشتركة . ومع ذلك لكل شعب طابع خاص يميزه فى الصورة أو المادة[٣٩] أو فيهما معاً . أضف إلى ذلك أن الحكماء لم يكن أدبهم مقصورا على نقل أقوال كانت سائرة من قبلهم . فلا بد أنهم كانوا إلى جانب ذلك مُنْشِئين يُبْدعون أقوالا خاصة ،

---

(٣٦) قرآن ٢ : ٢٥١ .
(٣٧) ميدانى ٢/٤١٧ (١٣٥٢) .
(٣٨) مزمور ١١١ : ١٠ .
(٣٩) بنتين ١/١١٦ .

ويحوِّرون المادة الشائعة ، وينتجون عبارات جديدة . ومن هذه الأقوال تظهر شواهد الحكمة الخاصة بكل إقليم . وهذا ما حدث فى حكمة العبرانيين ، إذ تلقَّوا حكمة الشرق الأدنى ، وأضافوا إليها . فكانوا نَقَلَةً ومنشئين معا ، نقلوا حكمة مصر وبابل وأدوم وغيرها ،وأودعوها أسفار الحكمة ، ومع ذلك أبدعوا كثيرا من الحكم لم يثبت أنها لشعب غيرهم(٤٠) . ومن هنا ندرك أن نسبة الأمثال الواردة فى التوراة إلى سليمان — على أنه منشئها — نسبة غير صحيحة فى جملتها ، فكثير مما نسب إليه هو تراث مشترك كما قلنا . وليس من اليسير أن يُرَدَّ إلى إبداع أمة معينة أو أفراد معينين . بل إن بعض الأمثال المنسوبة إليه ، تشير حوادثها إلى عصور متأخرة عن عهد سليمان(٤١) . ومثل هذا يمكن أن يقال عن حكمة حكماء العرب ، فإن كثيرا مما نسب إلى أكثم ، وعامر بن الظرب ، وقس بن ساعدة ، وأُمَيَّة بن عوف ، وعدَّه الناس من إنشائهم شكلا وموضوعا ، فهو ليس بصحيح النسبة فى جملته . فالأرجح أن يكون فى خصائصه العامة — على الأقل — من هذا التُّراث المشترك الذى تداوله حكماء الشرق الأدنى من قديم .

---

(٤٠) بنتسن ١/١٧٦ — ١٧٧ . (٤١) نفسه ١/١٦٩ ، EBr ٢٢/١٥٠٧ .

٢ – المثل القرآنى : نظرة عامة

القرآن الكريم أول وثيقة بالعربية الفصحى تصل إلينا سليمة صحيحة ، وهو الشاهد الأول على عناية الدعوة الإسلامية بالمثل الكتابىّ ، فهو يؤكد فى موقف الاعتزاز ، فى بضعة عشر موضعا ، أنه يضرب للناس الأمثال بيانا وتذكيرا[١] ، وأن ما ضرب به الله من الأمثال للناس هو الحق وأحسن تفسيرا (٢٥:٣٣) ، فلا تستوى أمثالُه — تعالى — وأمثال الكفار ، فأمثال الكفار ضلال وبهتان (١٧ : ٤٨ ، ١١ : ٢٤ ، ٣٩ : ٢٩) ، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض (٣٠ : ٢٧) .

زخر القرآن بالأمثال الموجزة والمطولة ، وعرض لها العلماء القدماء بالبحث مفرقة فى المؤلفات الدينية والأدبية ، وألف بعضهم فى أمثال القرآن[٢] . ومن الممكن أن نستخرج من أقوالهم أربع مجموعات مختلفة من أمثال القرآن :

١ — أمثال يسمونها « الأمثال الكامنة » ، وهى التى لا يصرِّح القرآن بأنها أمثال ، ولم ترد فيه حكايةً لأمثال شائعة ، وإنما هى أمثال فى نظر العلماء ، من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعانى أمثالٍ معروفة سائرة . فهى أمثال بمعانيها لا بألفاظها . ومن هنا سميت أمثالا كامنة . من ذلك قولهم : (خير الأمور أوساطها) موجود فى القرآن فى أربعة مواضع : قوله تعالى: (لا فارضٌ ولا بِكرٌ عَوَانٌ بين ذلك) ٢ : ٦٨ ، وقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتروا ، وكان بين ذلك قَوَاما) ٢٥ : ٦٧ ، وقوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسُطها كلَّ البسط) ١٧ : ٢٩ ، وقوله تعالى : (ولا تجهَرْ بصَلاَتِك ولا تُخَافِتْ بها وابتغ

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقى (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ص ٦٦١ (٢ : ٢٦ ، ١٣ : ١٧ ، ١٤ : ٢٥ ، ٤٥ ، ١٧ : ٨٩ ، ١٨ : ٥٤ ، ٢٤ : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٥ : ٩ ، ٢٩ : ٤٣ ، ٣٠ : ٢٨ ، ٥٨ ، ٣٩ : ٢٧ ، ٤٧ : ٣ ، ٥٩ : ٢١) .

(٢) فهرست ٣٨ ، ١٣٩ (ليبسك) ، كشف الظنون ١/١٥٠ .

بين ذلك سبيلا) ١٧ : ١١٠ . فإذا قيل : هل نجد فى كتاب الله (من جهل شيئا عاداه) قيل « نعم » فى موضعين : (بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعِلْمه) ١٠ : ٣٩ (وإذْ لَمْ يهتدُوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم) ٤٦ : ١١ . وقد أورد السيوطى حوالى أحد عشر مثالا من هذه الأسئلة والرد عليها[٣] . ولكن من الواضح أن هذه العبارات القرآنية لا تدخل فى باب الأمثال ، فإن مجرد اشتمال العبارة على معنى ورد فى مثل من الأمثال ، لا يكفى لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة ، فالصيغة الموروثة ركن أساسى فى المثل . لذلك نرى أن اصطلاح العلماء على تسمية هذه العبارات القرآنية (أمثالا كامنة) محاولةٌ لا تستند على دليل نصِّى ولا تاريخى .

٢ — طائفة أخرى من الأمثال الموجزة ، اكتسبت صفة المَثَليّة بعد نزول القرآن ، وشيوعها فى المسلمين ، ولم تكن أمثالا فى وقت نزوله . وهى عبارة عن مبادئ خلقية ودينية مركزة ، نذكر منها على سبيل المثال : (لن تنالُوا البِرَّ حتى تُنفقوا مما تحبُّون ٣ : ٩٢ — الآن حَصْحَصَ الحقُّ ١٢ : ٥١ — ذلك بما قدَّمَتْ يداك ٢٢ : ١٠ — أليس الصُّبحُ بقريبٍ ١١ : ٨١ — لكل نبإٍ مُسْتَقَرٌّ ٦ : ٦٧ — لا يَحِيقُ المكر السيئُ إلا بأهله ٣٥ : ٤٣ — قل كلٌّ يعمَلُ على شاكِلَتِه ١٧ : ٨٤ — وعسى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ٢ : ٢١٦ — كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً ٢ : ٢٤٩ — لا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها ٢ : ٢٨٦ — كلُّ نفسٍ ذائقة الموت ٣ : ١٨٥ ، ٢١ : ٣٥ ، ٢٩ : ٥٧ — كلُّ مَنْ عليها فانٍ ٥٥ : ٢٦ — ولا تنسَ نصيبَك من الدُّنيا ٢٨ : ٧٧[٤]) .

٣ — الأمثال القياسية (Parables) وهى من المثل الكتابىّ المطوّل ، كقوله تعالى : (واضرب لهم مثلاً أصحابَ القَرْية إذ جاءها المُرْسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذَّبوهما فعزَّزْنا بثالثٍ فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزل

(٣) الاتقان فى علوم القرآن (طبع فى القاهرة ١٢٧٩) ٢/١٠٥ .

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة ، الإعجاز والإيجاز للثعالبى (مصر ١٨٩٧) ص ١٤ — ١٥ .

الرحمن من شيء إن أنتم الا تكذبون . قالوا ربُّنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيَّرْنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنَرْجُمَنَّكُم وَلَيَمَسَّنَّكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرتم ، بل أنتم قوم مسرفون الخ . (٣٦:١٣ وما يليها) . والمثل القياسيّ فى القرآن ، قد يكون قصة مطولة كالذى ذكرنا ، وقد يكون تمثيلا بالوصف . والقرآن فى كثير من الأحيان — إن لم يكن فى أكثرها — يصرِّح بلفظ المثل ، كقوله : مَثَلُ نوره كمِشكاة — مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا — واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا كماء — ضرب الله مَثَلاً عبداً مملوكاً — ومَثَلُهم فى الإنجيل كزرع...

٤ — أمثال وردت فى سورة لُقمان حكاها القرآن عن هذا الحكيم ، وهى أمثال موجزة لفتت أنظار الباحثين المحدثين ، فبحثوها ، وبحثوا شخصية لقمان ، وربطوا بينها وبين بعض حكماء الشرق الأدنى القديم . ونحب أن نقف فيما يلى عند لقمان وأمثاله فى القرآن الكريم ، مرجئين تفصيل الكلام عن الأمثال التى أشرنا إليها فى القسمين الثانى والثالث ، إلى الفصول التالية .

لقمان فى القرآن الكريم :

قال تعالى : (ولقد آتينا لُقمان الحكمةَ أنِ اشكرْ لله ، ومن يشكر فإنما يشكرُ لنفسه ، ومَنْ كَفَرَ فإن الله غنى حميد) ٣١ : ١٣ ، فالقرآن يُشِيدُ بلقمان ويصفه بالحكمة . وفى الآيات التى تلت هذه الآية ، حكى القرآن عن لقمان أقوالا دالة على التقوى ، وحاثة على الإيمان بالله ، وحب الوالدين ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتمسك بالصبر والتواضع . وفى هذا كله روح إسلامِىّ ظاهر يدلنا على أن لقمان فى القرآن الكريم ، وإن كان سَمِىَّ لقمان الجاهلىّ فهو شخصية أخرى ليس بينها وبين لقمان الجاهلى شبه ما . ولسنا نعرف شيئا محققا عن مدى الصلة بين حكمة لقمان التى وردت فى القرآن ، وبين ما احتوته مجلة لقمان ، التى عرضها سويد بن الصامت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة حوالى ٦١٦ م (٥) . وكل ما يمكن أن يقال

(٥) الروض ١/٢٦٥ — ٢٦٦ (هامش) ، وراجع عن سويد بن الصامت (ابن الأثير ٢/٦٦ ، أسد الغابة ٢/٣٧٨ ، ابن سعد (٣) ص ٩٩ .

عن هذه المجلة إنها ربما احتوت عناصر كتابية . ويسوقنا إلى هذا الافتراض أن سُوَيْدًا كان ممن عرفوا الكتب[٦]، وأنه كان من أهل المدينة ، حيث كان التأثير الكتابي قويًّا ، وأن لفظ (مجلة) عبرانيّ أو آراميّ مشتق من Galal بالعبرية أو Gillél بالآرامية ومعناها لفّ وطَوَى ، ووردت كلمة Megillah מגלה في العبرية كثيرا للدلالة على مجموعات مدوّنة لليهود[٧] . وبالرغم من أن سويدا وأشباهه ممن عاشوا في البيئات الكتابية وتأثروا بها ، قد هيئوا أذهان العرب للأفكار الكتابية التي أسهم فيها القرآن الكريم بنصيب عظيم ، ومن بينها حكمة لقمان ، من حيث إنها تحض على التقوى ، وتحث على الإيمان بالله ، وحب الوالدين ، وغير ذلك مما أيدته الكتب السابقة ، كما أيده القرآن الكريم — فليس لدينا دليل واحد على أن لقمان الذي عرفه سويد وأشباهه هو لقمان الذي حكى عنه القرآن الكريم ، أو شيء قريب منه .

ربط بعض الباحثين بين لقمان القرآنيّ وأَحِيقار . وأَحِيقَار — أو حَيْقَار كما يسمى أحيانا في العربية — هو وزير سنخريب ملك أشور ، وكان مشهورا بحكمته. وتتلخص قصته في أنه كان غنيا وحكيما ، وكان قد حُرِم من إنجاب الوَلَد ، فغشيَه الهمُّ والحزن . دعا الآلهة وصلّى لهم ، فلم يُجْدِ ذلك نَفْعًا ، وتزوج ستين امرأة لعله يُنجب ولدا يرث حكمة أبيه وثروته وسلطانه ، فلم يرزق ولدا . وكان له ابن أخت يسمى نادان[٨]، فوضع آماله فيه ، وبالغ في تربيته وتعليمه الحكمة حتى يكون خلفا له في خدمة سنخريب . وأسدى أحيقار إليه عددا كبيرا من الوصايا والحكم[٩] . فلما أتم أحيقار تعليمه سلّم إليه ثروته وبيته . ولكن نادان حين وجد أمره بيده ، وثروة خاله في قبضته ، تمرد عليه ، وهزئ بشيخوخته ، وبدد ماله ، فأمر الملك بأن يتخلى نادان عن ثروة خاله وعاود أحيقار عليه النصيحة[١٠] ، وعاتبه على ما صنع . فتأثر

---

(٦) بلاذري ٤٧٩ .

(٧) جاسترو ١/٢٤٩ ، ERE ١٠/٣٢٤ ، ٦٠٦ ، ٨٠٩ ، ، JE ٨/٤٢٥ وما يليها .

(٨) في النسخ المختلفة (ناداب — نابات — نادام الخ . . . .)

(٩) في النسخة العربية تبلغ ٦٦ حكمة .

(١٠) وهي ٣٦ حكمة في النسخة العربية .

نادان هذه المرة تأثرا شديدا ، وسَرَتْ العِلّة فى بدنه ، فانتفخ جسمه ، وانشق بطنه ، ومات ، فصارت آخرته للهلاك ، ومضى إلى جهنم[١١] .

يرى رندل هاريس أن هناك تشابها بين لقمان وأحيقار :

(ا) فلقمان فى القرآن يحمل لقب الحكيم مثل أحيقار !

(ب) وهو يعظ ابنه مِثْله ، ويستعمل لفظ (يا بُنَىَّ) مثله أيضا !

(جـ) وبالرغم من اختلاف موضوعات العظة فى القصتين ، فإن هناك بعض المشابهة الواضحة . يقول أحيقار: (يا بنى احْنِ رأسك إلى أسفل ، وليِّن صوتك ، وكن متأدبا ، واسلك فى سبيل الصلاح ، ولا تكن سفيها ، ولا ترفع صوتك إذا ضحكت ، لأنه لو كان بالصوت العالى يُبْنَى بيت ، كان الحمار يَبْنى كل يوم بيوتاً كثيرة) . وورد فى القرآن الكريم (٣١ : ١٨) (واقصِدْ فى مشيك ، واغضُضْ من صوتك ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير) .

(د) أضف إلى ذلك أن بعض المفسرين ذكروا أن لقمان هو ابن أخت أيوب[١٢] . وهذا يقابل وصف نادان بالقياس إلى أحيقار (يعنى أنه ابن أخته) .

والظاهر أن العرب القدماء قد ربطوا بين الشخصين ، وإن لم يذكروا اسم أحيقار صريحا ، فلعلهم سبقوا رندل هاريس إلى هذه المحاولة . وإلا فكيف نفهم هذا التحويل الفجائى الذى صنعته مصادر ابن قتيبة والسُّهَيْلى فى تسمية ابن لقمان ناران أو ثاران[١٣] بدلا من الاسم القديم (لُقَيم)[١٤] . فلعل هذا التحول معناه أنهم وجدوا شيئا من التشابه بين قصة أحيقار وابنه (نادان) — أو بين قصة أُخِذَتْ منها — وبين ما حكاه القرآن الكريم عن لقمان . فجعلوا ابنه ثاران أو ناران — ولعله نادان — ليكون لقمان هو أحيقار بعينه . والذى نعرفه أن القدماء

---

(١١) رندل ١ — ٣١ .

(١٢) قول ينسب إلى وهب بن منبه (ثعبى ٣٤٠) .

(١٣) الروض ١ - ٢٦٦ ، معارف ٢٥ .

(١٤) راجع الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا البحث .

من العرب عرفوا أحيقار باسمه من مصادر كتابية . فقد ذكره عَدِيُّ بن زيد شاعر الحيرة المسيحى[١٥] ، وربما اطلع المسلمون القدماء من المتصلين بأهل الكتاب على بعض أسفار الكتب المقدسة ، ومنها سفر طوبيا من الأسفار المحذوفة (أبوكريفا) ، إذ ورد فيه هذا الاسم نادان (١٤ : ١٠) : (لقد ذهب نادان إلى الظلام ، و « مِنَسَّهْ » أعطى الصدقات ، فنجا من شرك الموت الذى نصبه له نادان . بل إن نادان وقع فى الشرك وهلك) . وأثبت الباحثون المحدثون أن الصلة وثيقة بين سفر طوبيا وقصة أحيقار ، وأن قصة أحيقار أقدم من سفر طوبيا ، وأن هذا قد أُلِّف فى القرن الأول أو الثانى قبل الميلاد ، فاستفاد من القصة ومن أسماء أبطالها إلى حد كبير[١٦] . ومن الملاحظ كذلك أن أقوال أحيقار تتفق مع بعض آيات سفر المزامير والأمثال والجامعة ودانيال وابن سيراخ[١٧] .

ومن الواضح أن الأدلة التى أوردها « رِنْدِل هاريس » غير كافية لإثبات هذه الصلة ، فإن استخدام لفظ (يا بنى) فى حكمة لقمان وأحيقار ليس مقصورا عليهما بل هو أمر شائع فى الحكمة الكتابية ، وطريقة متبعة فيها . أما تشابه العبارتين على نحو ما ذكر ، عبارة أحيقار والآية القرآنية ٣١ : ١٨ ، فهذا ليس دليلا وحده على أن الصلة بين الشخصين كانت صلة تاريخية ، أو صلة مباشرة على الأقل .

ولم يقف العلماء القدماء عند ربط لُقمان القرآنىّ بأحيقار ، بل أوجدوا الصلة بينه وبين شخصية أخرى وهى بَلْعَام . فيروى الثعلبى عن محمد بن إسحاق أنه هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وعن وهب بن منبه أنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام[١٨] . ويقول ابن قتيبة: إنه (كان فى زمن داود النبى عليه السلام ، واسم ابنه ناران ، ولم يكن نبيا فى قول أكثر الناس)[١٩] . وهذا تحويل آخر لنسب لقمان .

---

(١٥) غويطاين ١٧٤ .
(١٦) رندل XIV وما يليها ، XIVIII وما يليها .
(١٧) نفسه IV وما يليها ، ANET ٤٢٧ — ٤٣٠ .
(١٨) ثعلبى ٣٤٠ . (١٩) معارف ٢٥ .

فقد خطر لبعض المفسرِّين أو الأَخبار يين أن يكون هو بلعام ، فجعلوا نسب لقمان : (لقمان بن باعور) ، لأن نسب بلعام المعروف فى التوراة هو بلعام بن باعور . وبذلك قرنوا بين الشخصين ، وكأنهم أرادوا أن يوحوا إلى الناس بأن لقمان فى لفظه هو ترجمة لبلعام ، لأن بلع ولقم كليهما بمعنى[٢٠] . ثم صارت هذه الفكرة تقليدا شائعا بين المفسرين . بل عرف هذا التقليد لدى الفرنجة القدامى ، فنقله بعضهم عن العرب كما صنع بتروس ألفونسوس فى كتابه Disciplina Clericalis إذ قال : إن (بلعام الذى يسمى بالعربية « لقمان » قال كذا . . . .)[٢١] . وأيد هذه الفكرة عدد من المستشرقين[٢٢] .

وهذا أيضاً ارتباط مصطنع بين الشخصين . فشخصية بلعام كما صورتها الكتب القديمة مختلفة تماما عن شخصية لقمان القرآنىّ . فبلعام لم يكن كلقمان القرآنىّ رجلاموقرا ورعا تقيا . كما أنه لا صلة بين أقوال بلعام وحكمة لقمان . والغريب أن المفسِّرين أنفسهم الذين وصلوا بين لقمان و بلعام ، قد عرضوا لبلعام ، وتحدثوا عنه بما لا يتناسب مع شخصية لقمان المكرَّمة التقية . قال الثعلبى : (قال الله تعالى : واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلَخَ منها فأَتْبعَه الشيطان فكان من الغاوين) الآية (٧ : ١٧٥) . واختلفوا فيه ، فقال أكثر المفسرين هو بلعام بن باعورا الخ . . .)[٢٣] وقد سبق أن لاحظ « برنارد هِلَر » هذه الرابطة المصطنعة بين الشخصين حين قال : (إن الذى جعل لقمان هو بلعام ، فكرة صنعها المفسرون الذين أرادوا أن يصلوا لقمان بالكتاب المقدس بأى ثمن . ومن ثم جعلوه ابنا لباعور ، كما جعلوه أحيانا ابن أخت أيوب)[٢٤] .

هذه الروابط التى اصطنعها المفسرون والأخباريون بين لقمان وشخصيات الكتب السابقة ، كان لها تأثير فى شرحهم لحكمة لقمان ، وتفسيرهم لشخصيته القرآنية . فصاروا كلما وجدوا فى الكتب القديمة شيئا عن أحيقار وغيره نسبوه إلى لقمان . فأضافوا إلى حكمة لقمان أقوالا فى الإيمان وحب الوالدين والاعتدال فى الحُكْم ،

---

(٢٠) EI ٣/٣٦ .
(٢١) رندل IXXVII ، EI ٣/٣٦ .
(٢٢) EI ٣/٣٦ .
(٢٣) ثعلبى ٢٣٠ .
(٢٤) EI ٣/٣٦ .

فمن ذلك قوله : (يا بنى اختر المجالس على عينك ، فإن رأيت قوما يذكرون الله فاجلس إليهم ، فإنك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدوك علما . . . وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس إليهم[٢٥]). وهذا يذكّرنا بقول أحيقار : (يابنى التصق فى أناس حكماء يتقون الله ، وكن مثلهم ، ولا تقرب الجاهل لئلا تصير مثله وتتعلم طرائقهم)[٢٦] . وينصح لقمان رجلا مسافرا بأن يكون مسلّحا (وسافر بسيفك وخفك وعمامتك)[٢٧] . ويقول أحيقار : (يا بنى لا تمش فى طريق بغير سلاح لأنك لا تعلم متى يلقاك العدو لكى تكون مستحضرا له)[٢٨] . وينسب إلى لقمان قوله الذى أورده الميدانى : (يابنى تضرع إلى الطبيب قبل أن تمرض) أى (افتقد الإخوان قبل الحاجة إليهم ، قاله لقمان لابنه)[٢٩] . وهذا يذكرنا بقول ابن سيراخ : (وقِّر الطبيب قبل أن تفتقر إليه) ، ويروى أن لقمان قال: (ضَرْبُ الوالد لولده كالماء للزرع)[٣٠] . ويقول أحيقار : (يا بنى لا تُغْضِ عن ضرب ابنك ، فإن ضربة ابنك مثل الزِّبل للبستان)[٣١] . ثم لا نلبث أن نجد فيما نسبوه إلى لقمان آثارا إسرائيلية تبدو فى روحها العامة ، وإن كنا لا نعرف مصدرها على وجه التعيين. فمن ذلك قول الثعلبىّ:[٣٢] (كان «لقمان » نائما نصف النهار ، فجاءه النداء يا لقمان ؛ هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت ، فقال : إن خيَّرنى ربِّى قبلت العافية ولم أقبل البلوى ، وإن عزم علىّ فسمعا وطاعة ، فإنى أعلم أنه إن فعل بى أعاننى وعصمنى . فقالت الملائكة : لِمَ يا لقمان ؟ . قال : لأن الحاكم بأشرّ المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، إن أصاب فأرجو أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ، ومن تخيَّر الدنيا على الآخرة نَفَتْه الدنيا ، ولا تبقى له الآخرة . فتعجبت الملائكة من حسن منطقه،

---

(٢٥) ثعلبى ٣٤٢ .
(٢٦) رندل ٤ .
(٢٧) ثعلبى ٣٤٣ .
(٢٨) رندل ٥ .
(٢٩) ميدانى ١/١٥٢ (١٣٥٢) .
(٣٠) ثعلبى ٣٤٢ .
(٣١) رندل ٥ .
(٣٢) ثعلبى ٣٤١ .

فنام نومةً ، فأُعْطِى الحكمة ، فانتبه فتكلم بها . ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان ، فهمَّ بالخطيئة غير مرة ، كل ذلك ويعفو الله عنه . وكان لقمان يؤازره بحكمته ، فقال له داود : طوبَى لك يا لقمان . . .) إلى آخر هذه القصة التى أوردها الثعلبى فى تفسير قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) . والقصة كما هو ظاهر تتسم بروح غير عربية ، تشير إلى داود ، وإلى قبوله الحكمة بعد لقمان ، وفى القصة — فضلا عن ذلك — إشارة إلى ظلم الحكام وإيثار الذل على الشرف ، واعتزال الحياة الدنيا ، وهذه نزعات لا تتمشى مع النزعة الشعبية ولا الكتابية عند العرب .

ولا أدرى لم حَرَصَ المفسرون والأخباريون على اصطناع هذه الروابط على هذا النحو . فليس مما يضير الشخصية القرآنية أن تكون نسيج وحدها بين حكماء الكتب السماوية وغير السماوية . والأقرب عندى أن لقمان القرآنى مختلف تماما عن أحيقار وبلعام وغيرهما ممن أشار إليهم الباحثون ، كما اختلف تماماً عن لقمان الذى عرفه أهل الجاهلية .

٢ — المثل الكتابى الموجز : النغمة التأديبية

النغمة التأديبية[١] ، والصيغة الأدبية : هما أهم مايميز المثل الكتابىّ . تتجلى تلك النغمة فى الحكمة التى وجهها الله إلى عباده : حكمة الكتب المقدسة . وقد وصف الله نفسه ، فى القرآن الكريم ، بأنه حكيم ، وورد ذلك فيما يقرب من مائة موضع ، وقرر تعالى أنه واهب الحكمة ومعلِّمها (٣١ : ١٢ ، ٣٨ : ٢٠ ، ٢ : ٢٦٩ . قارن بالأمثال ٢ : ٦ — ٧) .

فإذا انتقلنا إلى حكماء البشر ومعلميهم ، فى تاريخ الشرق الأدنى ، وجدنا أقدم حكمة مصرية وصلت إلينا ، وهى حكمة الوزير بتاح — حُتِب ، يخاطب فيها ابنه (٢٤٥٠ قبل الميلاد) ، ويقدم إليه خلاصة تجاربه فى الحياة ، ليستعين بها على ممارسة منصبه الجديد ، الذى سيتولاه بعد والده الوزير ، وكان والده قد طَعَنَ فى السن ، بلغ مائة وعشرا من السنين[٢] . وحرص أحيقار — حكيم آشور — على هذه الطريقة فى التربية . فتمنى أن يكون له ولد يلقنه الحكمة ، فلما أدركه اليأس ، لقنها ابن أخته نادان . وصيغة (يا بنى) شائعة فى سفر الأمثال ، ولعلها أطلقت فيه مجازا على التلميذ الناشئ بصفة عامة (أمثال ١ : ٧ — ٩ : ١٨)[٣] . وعنى هذا السفر ، فوق توجيه الحكمة إلى الأبناء والنشء ، ببيان أساليب تربيتهم وتأديبهم ، فأكد أكثر من مرة ضرورة استخدام العصا (١٣ : ٢٤ ، ٢٢ : ١٥ ، ٢٣ : ١٣ ، ٢٩ : ١٥ ، ١٧) . وتلقى أحبار اليهود هذه الطريقة فى عصر التلمود ، وأضافوا إليها[٤] . وعرفت فكرة توجيه الحكمة إلى الأبناء والنشء فى السريانية[٥] ، وشاعت فى آداب أخرى غير السامية ، كالفارسية والهلينية[٦] .

---

(١) Admonishing tone.

(٢) ANET ١٤١٢ .

(٣) بفايفر ٦٤٦ .

(٤) بولانو ٢٤١ .

(٥) مراد وبكرى ٢٦ وما يليها .

(٦) مسكويه ٧٤ — ٨٥ ، ٢١٧ — ٢٢٨ ، ٢٧٠ — ٢٧٨ .

وأكثر حكماء العرب فى الجاهلية من سَوْق الحكمة إلى الأبناء ، وفعل هذا ذويد بن نهد ، وأكثم بن صيفى ، وأسيد بن أوس التميمى ، وقس بن ساعدة[٧] . وهؤلاء جميعا كانوا من المعمَّرين . والصلة بين كبر السن والحكمة عرفت فى الحكمة المصرية وفى التوراة . وتجلت عناية الإسلام بتعليم النشء و إسداء الحكمة إليهم ، وتكريم الوالدين ، فيما ورد فى القرآن فى مواضع متفرقة ، ومن بينها ما حكاه عن لقمان (٣١ : ١٤ ، ٢ : ٨٣ ، ٤ : ٣٦ ، ٦ : ١٥١ ، ١٧ : ٢٣ ، ١٩ : ١٤ ، ٢٩ : ٨ ، ٤٦ : ١٥ ، ١٤ : ٤١ ، ٢٧ : ١٩) . وعرفت فيما بعد طريقة الإيصاء إلى الأبناء بين المفكرين الإسلاميين ، فاتخذوها فى رسائلهم وأصبح الولد ، أحيانا ، رمزا لشخصية فرضية يخاطبونه بالحكمة[٨] .

وتجلت النغمة التأديبية — أيضا — فى حكمة يسوقها الحكيم إلى أهله وذويه حين يفصل فى أقضيتهم ، أو يدعو إلى إصلاح شئونهم العامة والخاصة .

وتجلت تلك النغمة — كذلك — فى الحكمة الملكية ، يقدمها الحكيم إلى الملك أو الملكُ إلى شعبه ، أو يعبر فيها الحكماءعن شئون الملك وسياسته . و يبدو أن حكماء الشرق الأدنى ، بوجه عام ، قد خضعوا إلى حد ما ، لنوازع الرجعية التى قدست الملوك والرؤساء ، ودانت لهم بالطاعة العمياء ، بحسبانهم ظلال الله فى الأرض . فكان الحكماء أبواقا وصنائع لهم ، يعيشون فى كنفهم و يصانعونهم خوفا وطمعا . ولا نكاد نتصفح حكمة مصر وبابل وفلسطين و بلاد العرب فى الجاهلية ، حتى نلمس هذه الروح ظاهرة جلية . ففى الحكمة الواردة فى سفر الأمثال يظهر الملك شبحا رهيبا مهيبا ، يملك بقوة الحكمة (٨ : ١٥ — ١٦) ، لسانُ الحق مرضاته ، وفعل الشر مكرهته ، ونذير الموت غضبه (١٦ : ١٢ — ١٥) . غير أن نوازع الشر تحول دون

---

(٧) سجستاني ١٢ ، ٢٠ ، ٥١ ، عسكرى ١/٥٥ ، مسكويه ١٥٥ ، عسكرى ١/١٧٦ والحكمة تورث طول العمر (سفر الأمثال ٦ : ٢٣ ، ٨ : ٣٥ ، ٩ : ١١ ، ١٣ : ١٤) .

(٨) جبور ٢٢٤ — ٢٢٥ هامش .

العدالة التى تثبّت عرشه (٢٥ : ٥) . وعلى المرء أن يراعى آداب السلوك فى حضرته (٢٥ : ٦) فلا يتفاخر المرء أمامه ، ولا يقف فى مكان العظماء (٢٥ : ٧) . وطمع الحكيم العربى فى التقرب إلى الملوك وتمنى صلتهم وعطاءهم[٩] . وقالوا فى أمثالهم (جاورْ بحرا أو ملكا) ، قال أبوهلال : (العرب يتفقون مع الفرس فى جميع أمثالهم إلا فى هذا المثل) . وهو يشير إلى مثل فارسى معناه : (لا تتعرف إلى الملوك ولا تجاور بحراً[١٠]) وإلى جانب الطمع فى جاه الملوك ومالهم ، كان الخوف من بطشهم وطغيانهم . ويظهر ذلك فى قول دريد بن الصمة + ٨ هـ ، حكيم جشم ، من أهل نجد ، وهو يخاطب قومه بقوله : (أما أول ما أنهاكم عنه ، فأنهاكم عن محاربة الملوك فانهم كالسيل بالليل ، لا تدرى كيف تأتيه ولا من أين يأتيك ، وإذا ما دنا منكم الملك واديا فاقطعوا بينكم وبينه واديين)[١١] .

أرسلت الحكمة خيوطها إلى فئات مختلفة من الناس ، إلى الأبناء والنشء ، وإلى الملوك والرعية ، ولكنها كانت تدور فى مجال خاص ، فعنيت عناية ظاهرة بالمجتمع الحضرى ، أو مجتمعات الخاصة . فدارت حول مراكز السيادة والقضاء ، ومجالس الشورى ، وآثرت حياة الحضر على حياة الريف والبادية . ولعل معظم ما ورد فى سفر الأمثال ، من تجارب ، يتعلق بحياة المدن وما يصدر عن أهلها[١٢] . والحكمة الجاهلية العربية ، كما تتمثل فيما رواه السجستانى ، هى فى جملتها من الخاصة وإليهم . ولا نستطيع أن نزعم أن حكمتهم فى مجموعها كانت متغلغلة فى أوساط أهل البادية ، فهؤلاء قد اصطنعوا أمثالهم الشعبية ، ولم تكن حكمة الحكماء فيما يظهر إلا دستورا للحكم والقضاء وشئون القبائل العامة ، وأحوال الجماعات ، قبل أن تكون

---

(٩) سجستانى ١٨ ، ١٩ ، ٤٨ .

(١٠) عسكرى ١/٢٠٤ — ٢٠٥ .

(١١) سجستانى ٢٢ .

(١٢) EBr ٢٢/٥٠٧ — ٥٠٨ ، نظرة سفر الأمثال إلى المال والثروة هى نظرة الطبقات المتوسطة المتنعمة فى المدن والأقاليم حيث كان المعلمون الأتقياء يؤدبون أبناء الأغنياء ، ولذلك منحوا الثروة معنى روحيا (بفايفر ٦٥٧) .

وصفا جزئيا يهمُّ كل فرد منهم على حدة . لم تكن الحكمة الموجزة فى الغالب مادة للسمر أو شواهد مألوفة لعامة الناس . فطبيعىٌّ أن يكون مجالها طبقة الخاصة يستخدمونها فى مجال الوعظ والتبيين وفى لحظات التأمل . ولعل هذه النغمة التأديبية الظاهرة فى المثل الكتابى ، قد قلَّت من نفوذه فى الأوساط الشعبية . والفرق بين المثل الشعبى والمثل الكتابى هو — فى حقيقة الأمر — فرق بين الطبيعة والشريعة . فالأول لا يصدم غالبا طبائع الناس ، بل يصورها أو يتلطَّف بمسايرتها : يصف الأشياء والأشخاص فلا يعارض خُلُقا جروا عليه ، أو سجية درجوا عليها معارضة سافرة قاطعة . أما المثل الكتابى فهو فى كثير من الأحيان تنبيه ظاهر على فساد شائع فى الخُلُق أو اعوجاج معروف فى الطبع ، وهو فوق ذلك تحذير من ذلك الفساد وتخويف من هذا الاعوجاج .

يصور المثل الشعبى الرذائل أو الفضائل البشرية ، فنشعر أن الصورة التى تواجهنا لا تَعْرِضُ فى ظاهرها إلاّ ما تحتويه من مبالغة ووصف . فحين نسمع قولهم (أطمع من أَشعب) ، ونستعرض قصص أشعب فى الطمع ، لا نحس أن قائل هذا المثل ينهانا عن الطمع نهيا صريحا ، وأنه يمسك بعصا المعلِّم يوعدنا و ينذرنا مَغِبَّة هذه الرذيلة ، ولكن أذهاننا تتجه أولا وقبل كل شىء إلى ما فى هذا المثل من مادة مضحكة باعثة على التسلية . وعلى العكس من ذلك قول أكثم : « من قنع بما هو فيه قرَّت عينه » — « لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير » — « من لم يرج إلا ماهو مستوجب له كان قَمِنًا أن يدرك حاجته » — « غنك خيرٌ من سمين غيرك » — « حسبك ما بلَّغك المحل »[١٣] . ففيها النغمة التأديبية التى تنهانا عن الطمع ، وتأمرنا بالقنوع ، وتحثُّنا على الاكتفاء باليسير . ونسمع المثل الشعبى (ثأْطَة مُدَّت بماء) فترتسم صورة أحمق قد تأصلت الحماقة فيه فلا تفارقه ، ومع ذلك لا نرى إلى جانب هذه الصورة شخصية المؤدِّب تلوِّح بيدها الحازمة . فإذا سمعنا المثل الكتابى الوارد فى التوراة : « لا تجاوب الجاهل

(١٣) سجستاني ١٢ ، ١٣ ، ٢٤ .

حسب حماقته » (أمثال ٢٦ : ١٤) ، برزت أمامنا تلك النغمة التأديبية . وهكذا تجد هذه النغمة فى قول أكثم فى النهى عن الظلم « الجزاء : بالجزاء والبادى أظلم — إن أخا الظلم أعشى بليل — لا تعاقب على الذنوب إلا بقدر عقوبة الذنب فتكون مذنبا »[١٤] ، وقوله فى النهى عن التورط والتهور : « ليس من القوة التورط فى الهوّة — ليس من العدل سرعة العذل — لا تنطح جَمّاء ذات قرن — تثبتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين أركنهما »[١٥] ، وقوله فى النهى عن التبذير : (إياك والتبذير فإن التبذير مفتاح البؤس — خير السخاء ما وافق الحاجة)[١٦] ، وقوله فى النهى عن الثرثرة : (المكثار كحاطب الليل ومن أكثر أسقط — أحسن القول أوجزه — الصمت يكسب المحبة)[١٧] .

وتتطلب النغمة التأديبية التفصيل والبيان . ولعلنا نلاحظ فى الأمثلة المتقدمة أن عنصر التأديب قد اقتضى من الحكيم تقسيما لمعانى المثل وتفصيلا لأجزائه ، حتى تكون الحكمة مؤثّرة ناجحة ، ومن ثَمّ دخل المثلَ الكتابىَّ شىءٌ من التنسيق اللفظى والمعنوى ، وقلت آثار الارتجالية فيه . فبينما يقول المثل الشعبى (أَسْرِ وقمرٌ لك) يريد أن القمر قد ظهر ، ففى إمكان المسافر أن يسرى على ضوئه قبل أن يغيب ، نجد المثل الكتابى يقول : (اغتنم الفرصة قبل الغُصّة) . وبينما يقول المثل الشعبى : (أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك) ، نجد المثل الكتابى يقول (من يخوّفك حتى تلقى الأمن أشفق عليك ممن يؤمّنك حتى تلقى الخوف)[١٨] . وقلما نجد فى الحكمة الكتابية مثلا مفردا ، أو مضافا ، أو مقتضباً مجزوءا أو ما شاكل ذلك مما عرفناه فى المثل الشعبى . فالمجال هنا مجال إيضاح وبيان وليس مجال إغراب وتعمية وإشارة.

---

(١٤) نفسه ١٥ ، ١٩ .
(١٥) نفسه ١٢ ، ١٤ .
(١٦) نفسه ١٨ ، ١٩ .
(١٧) نفسه ١٧ ، ١٨ .
(١٨) عسكرى ١/٥٤ .

وضاعت من الكتابى آثار اللغة الخشنة الجاسية والخيال الساذج النابى عن الذوق ، فبينما نجد المثل الشعبى يقول : (أعط أخاك من عَقَنْقَلِ الضَّب) ، نرى المثل الكتابى يقول : (إنما الجود للمُقِل المواسى) . و بينما يقول المثل الشعبى (بال حمار فاستبال أحمرة) ، نرى الكتابى يقول (فى الجريرة تشترك العشيرة) ، و بذلك خطا المثل الكتابى خطوة واسعة نحو الإجادة الفنية والصقل الاجتماعى فى اللغة والخيال .

وكثرت فى المثل الكتابى أساليب الأمر والنهى والتحذير كما رأينا فى أمثلة متقدمة . وقفزت الجمل الشرطية فاحتلت مكانا بارزا فى الحكمة الكتابية ، فقالوا : (إذا ضربت فأوجِعْ و إذا زجرت فأسمع — إذا نُصِرَ الرأى بطل الهوى — من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له — من برَّ يوما بُرّ به — من طال رشاؤه كثر متحه) . والوحدة الأدبية للمثل الكتابى هى الجملة ، لذلك صاغها الحكماء مستقلة بمعناها . وهى بخلاف المثل الشعبى ، لا تفتقر إلى قصة تشرحها ، ولا ترتكز على مناسبة توضحها . ومن ثم كانت الفكرة المعبَّر عنها فى الجملة الواحدة كاملة ونهائية ، مثال ذلك من القرآن الكريم : (كلُّ نفس ذائقةُ الموت — كلُّ مَن عليها فان — كم من فئةٍ قليلة غلبَتْ فئةً كثيرة — وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم — لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تحبُّون) .

٤ – المثل الكتابى الموجز : الصيغة الأدبية

فى سنة ١٧٥٣ درس العالم الإنجليزى « لوث » الأشكال المميِّزة للشعر العبرى ، وانتهى إلى أنه يتميز بما سماه توازن الأشطار العددى Parallelismus Membrorum ، وهو عبارة عن ارتباط الأسطر فى مجموعات ثنائية أو أكثر ، ولا يشترط أن تكون الأسطر المترابطة متكافئة فيما بينها ، فقد تكون تابعة ومتبوعة . وتتنوع العلاقة بين معنى كل سطر والذى يليه . فقد تكون المعانى متقاربة Synonymous ، وقد تكون مختلفة Antithetic ، وقد تكون مؤتلفة Synthetic ، وقد تكون متناقلة Step-Parallelism ، والأشكال الثلاثة الأولى موجودة فى التوراة ، وقد أشار إليها لوث . أما الشكل الرابع فقد ورد فى نصوص الإنجيل[1] ، وقد أثبته العالم بيرنى Burney [2] . وفيما يلى أمثلة لكل منها فى التوراة :

المتقارب : يا بُنَىَّ أَصْغِ إلى حكمتى . أَمِلْ أُذُنَكَ إلى فهمى (أمثال ٥ : ١) .

المختلف : فم الصديق ينبوع حياة . وفم الأشرار يغشاه ظلم (أمثال ١٠ : ١١) .

المؤتلف : انتظرت الرب انتظارا . فمال إلىّ وسمع صراخى (مزامير ٤٠ : ٢) .

وأمثلة أخرى من الإنجيل :

المتقارب : أحبوا أعداءكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . باركوا لاعنيكم . وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم (لوقا ٦ : ٢٧ — ٢٨) .

---

(١) ذكر مانسون أن الآرامية كانت اللغة التى تكلم بها المسيح ، وهى لغة صلاته ومخاطباته للعامة والتلاميذ جميعا ، غير أنه لا يبعد أنه كان يناقش علماء اليهود وأحبارهم بلغتهم وهى العبرية المتأخرة — عبرية المدارس الربانية (مانسون ٥٠) . وناقش مانسون الرأى القائل بأن اللغة الأصلية التى كتبت بها الأناجيل هى اليونانية (٤٦ — ٤٧) ، وبين أن فلسطين فى عصر المسيح كانت تستخدم أربع لغات : الآرامية لغة الشعب ، واللاتينية لغة الجيش الرومانى المحتل ، واليونانية لغة الحكومة الرسمية ، وعبرية الربانيين لغة المدارس اليهودية (٤٦) .

(٢) مانسون ٥١ ، بتسن ١/١١٩ ، بفايفر ٦٤٧ .

المختلف : من أراد أن يخلِّص نفسه يهلكها ، ومن يُهلِكْ نفسه من أجلى ومن أجل الإنجيل فهو يخلِّصها (مرقس ٨ : ٣٥)[٣] .

المؤتلف : جئت لألقى نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت (لوقا ١٢ : ٤٩).

المتناقل : من قَبِل واحدا من أولادٍ مثل هذا باسمى فقد قَبِلنى . ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا بل الذى أرسلنى (مرقس ٩ : ٣٧) .

وتشقيق الكلام على هذا النحو ، طريقة مألوفة فى الشعر المصرى القديم ، والبابلى ونقوش رأس شمرا[*] . فنجد حكم أمينموف (١٠٠٠ — ٦٠٠ قبل الميلاد) التى نقلها سفر الأمثال (٢٢ : ١٧ — ٢٤ : ٢٢) تحتوى تركيباتٍ ثُنائية كقوله فى مطلعها : أمل أذنك واسمع ما يقال . وجه قلبك إلى فهمه[٤] . وفى النقوش الأكادية (البابلية) وردت أمثال ترجع كتابتها إلى ما بين ١٨٠٠ ، ١٦٠٠ قبل الميلاد ، وهى عبارة عن شعر يصطنع توازن الأشطار العددى ، مثال ذلك : « لولا معاشرة المرأة ما حبلت . لولا الأكل ماصارت سمينة » — « إذا اجتهدتُ أخذوا أجرى ، فمن الذى يعطينى إذا ضاعفت جهدى » — « الرجل القوى يتغذى من عمل يده ، والضعيف يتغذى من أجر ولده » — « تمضى وتأخذ حقل العدو . والعدو يأتى ويأخذ حقلك »[٥] . فهذه كلها تركيبات ثنائية الأول منها متقارب ، والثانى مؤتلف ، والثالث مختلف ، والرابع متناقل .

وقبل أن نقف على نصيب العربية من هذه الطريقة السامية ، نشير إلى أن بعض الباحثين قد نبهوا على أن لوث ومن تبعه قد بالغوا فى حسبان الموازنة العددية

---

(٣) بعض هذا النوع يسمى براداكس Paradox كالمثال الذى ذكرنا ، وهو تعبير يدل ظاهره على التناقض أو يبعث على الاستغراب لتعارضه مع الفكرة الشائعة أو الرأى السائد ، ولكن إذا دققنا وجدنا فيه جانبا كبيرا من الحق . والمسيح مشهور بأقوال من هذا النوع (متى ٥ : ٣٩ ، ١٨ : ٩ ، يوحنا ١٢ : ٢٤ ، كورنثوس ٢/٦ : ٩ — ١٠)

(*) بنتسن ١/١١٩ .

(٤) ANET ٤٢١ ب .

(٥) نفسه ٤٢٥ .

بين الأشطار هى الصفة المميزة للشعر السامى القديم[٦] . والراجح لدى أولئك أن توازن الأشطار العددى كان نهجا فى الإنشاء الأدبى يستوى فيه النثر والشعر . فكانوا إذا أرادوا الشعر أضافوا إليه الإيقاع rhythm أو الإيقاع مع السجع . ولعل الذى جعل الباحثين يختلفون فى هذه المسألة ، هو أن الإيقاع فى اللغات القديمة أمر ليس من السهل الاهتداء إليه دائما . فنحن الآن نجهل النطق الصحيح للغة المصرية والبابلية والعبرية والآرامية على نحو ما نطقها أهلها وقت أن كانت حية مستعملة[٧] .

والعربية كأخواتها تأخذ من طريقة توازن الأشطار العددى بنصيب . وليس بمتعذر على الباحث أن يجد أشباها ونظائر فى نثر الكهان وفى الأمثال الكتابية . وقد يضيق المجال إذا ذكرنا شواهد لهذه الطريقة من أقوال حكماء الجاهلية والإسلام . ففى حِكَم أكثم وقس وعامر بن الظرب ، وفى حكم على بن أبى طالب والحسن البصرى ، وفى الحِكَم التى جمعها الثعالبى فى كتابه الموسوم (كتاب الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد لأبى منصور الثعالبى + ٤٢٩ هـ)[٨] — فى هذه الحكم نجد أمثلة لاحصر لها من توازن الأشطار العددى ، وحسبى أن أذكر الأمثلة الآتية[٩] :

إذا ضربت فأَوجِعْ ، وإذا زجرت فأسمع (متقارب) .

فضل القول على الفعل لؤمٌ ، وفضلُ الفعل على القول مكرمة (مختلف) .

من شدَّد نفَّر ، ومن تآخى تألَّف (مختلف) .

أشراف القوم كالمخ من الدابة ، فإنما تنوء الدابة بمخها (مؤتلف) .

ومما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (من كثر كلامه كثر سَقَطه ، ومن كثر سقطه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه

---

(٦) ستانلى كوك ٦٣ ، بنتسن ١١٩/١ .

(٧) بنتسن ١١٩/١ ، مانسون ٥٣ ، EBr ٩٤ ٣٧ وما يليها ، ٣٩١٠ .

(٨) ويسمى أيضا بالعقد النفيس ونزهة الجليس (طبع الحلبى ١٣٢٧ هـ) .

(٩) سجستانى ١٥ ، ١٨ .

كانت النار أولى به)[١٠] . وقول الرسول هذا تركيب رباعى من نوع المتناقل . ومن التركيبات الثلاثية قول مالك الشيبانى : (رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا) وهو من المختلف . والتركيب الثلاثى قليل فى التوراة ، فمعظم ما ورد فيها تركيبات زوجية . ومن الثلاثى فى سفر الأمثال ١٩ : ٧ (كل إخوة الفقير يبغضونه . فكم بالحرى أصدقاؤه يبتعدون عنه . من يتبع أقوالا فهى له) . ويرى « بفايفر » أن هذا المثل تركيب زوجى فى الأصل سقط منه الشطر الرابع ، أو أقحم عليه الشطر الثالث[١١] .

وليس من بحثنا هذا أن نعرف الصلة بين الموازنة بين الأشطار و بين الشعر الموزون المقفّى المعروف لدى شعراء العرب ، وحسبنا أن نشير إلى أن العربية قد انفردت من دون أخواتها القديمة بهذا النوع من الشعر . وإذا رجعنا إلى معظم النقوش الجاهلية العربية التى عثر عليها حديثا — وهى قليلة — على اختلاف اللهجات التى دونت بها ، لا تجد شيئاً منها فى صورة شعرية موزونة ، فى حين نرى طائفة من النقوش التى كشفت لدى أمم أخرى كانت مصنوعة فى أوزان . وربما يعيننا هذا على افتراض أن الوزن شىء مستحدث عند العرب فى عصور قريبة فى الجاهلية[١٢] . وهذا يؤدى بنا التى فكرة تتعلق بالمثل الكتابى ، وهى أن الأمثال التى تتألف من أشطار موزونة على العروض العربى ، هى صنعة مستحدثة راج أكثرها فى عصور إسلامية . أما الأمثال المبنية على الموازنة العددية بين الأشطار فمنها ما هو قديم يرجع إلى عهود جاهلية[١٣] ومنها ماهو مستحدث .

لاحظنا — فيما سبق — أن السجع قد اقترن أحيانا بالتوازن العددى للأشطار. والسجع ظاهرة قديمة يشترك فيها المثل الشعبى والمثل الكتابى . غير أنه فى المثل

---

(١٠) عسكرى ١/١٠ .
(١١) بفايفر ٦٤٧ .
(١٢) مرجوليوث ٤١٩ ، ٤٢١ — ٤٢٢ .
(١٣) راجع ضبى ٦١ ، وبعض أقوال منسوبة إلى لقمان (ضبى ٧٤) .

الشعبي أقرب إلى البساطة وأدلُّ على الفطرة . وقد استخدمه الحكماء فى أمثالهم الكتابية ، أداة من أدوات الصنعة ، ومظهرا من مظاهر التأنق فى التعبير ، ووسيلة فعالة من وسائل التعليم . فهو يعين على تلقف الذهن للكلمات Catchword-principle. وكان هذا المبدأ معروفا لدى العرب القدماء . ويروى الجاحظ أن أعرابيا : كان يؤثر السجع فسئل : لم تؤثر السجع على المنثور ؟ فقال إن كلامى لو كنت لا آمُلُ فيه إلاّ سماعَ الشاهد لقلّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر . فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وقلة التفلُّت[١٤] . وهذا قد يفسر لنا لِمَ عُنى العرب بتسجيع أخبار البطولة القومية والأسمار الليلية[١٥] . ومما ساعد على ذلك ماعرف به العرب من التلذذ الذوقى باللغة من حيث جرس الألفاظ ورنينها ووزن لحنها الموسيقى[١٦] .

وقيد العرب علومهم فى سجع أحيانا ، كعلم الأنواء ، وهو يقابل عند المحدثين علم الظواهر الجوية مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة إلى طلوع الكواكب أو غروبها ، ولذلك كان علم الأنواء فرعا من علم النجوم[١٧] . والعرب ينظمون أمثلة من ذلك العلم شعرا ، وهذا كثير عندهم ، ولكن ورد إلى جانب الشعر أقوال مسجوعة كقولهم : (إذا طلع السرطان استوى الزمان . وحصرت الأوطان . وتهادت الجيران . إذا طلع البطين . اقتضى الدين . وظهر الرين ... واقتنى بالعطار والقين ... إذا طلعت الهقعة . تقوض الناس للقلعة . ورجعوا عن النجعه . وأردفتها المنعة) . وصياغة هذه الأفكار فى صورة شعرية أو مسجوعة ، هى طريقة مألوفة فى أمم كثيرة سامية وغير سامية ، قصدوا بها أن تكون وسيلة للاحاطة بأحوال الجو والتكهن بما يجىء فى المستقبل منها[١٨] . وبعض هذه الأقوال

---

(١٤) بيان . طبعة هارون ١/٢٨٧ .
(١٥) قصص لقمان (ضبى ٧٤ — ٧٦) .
(١٦) يوهان ١٥١ . (١٧) زيدان ١/١٧٩ .
(١٨) The Meteorological Glossary (Air Ministry), 2 nd. ed. London, 1930, Pp. 129 sq.

متناقض ، وبعضها قائم على الوهم والافتراض ، وذلك راجع إلى ميل القدماء ، عادة ، إلى تقدير المكاسب المثيرة فى حياتهم ، و إغفال جوانب الخسران والإخفاق[١٩] . والشعوب السامية تتداول أمثالا وأقوالا من هذا النوع ، ولا يزال المصريون المحدثون يستخدمون طائفة منها فى لهجاتهم الدارجة ، وكذلك الأحباش المعاصرون يتناقلون فى اللغة الأمهرية ، عددا من الأمثال المسجوعة تتعلق بالشهور وفصول السنة[٢٠] .

والأسلوب العددى شائع فى المثل الكتابى ، يحصر المثل تجارب أو ملاحظات معينة فى أعداد يبدأ بذكرها ثم يفسرها . ولعله كان كذلك وسيلة من وسائل التعليم ، تعين الذاكرة على الحفظ والإيعاب . والرأى السائد أن عامة الأمثال العددية الكتابية هى صور أدبية متطورة من ألغاز بسيطة[٢١] . وقد شاعت الأمثال العددية فى الأدب السنسكريتى وظهرت فى الأصول المنقولة عنه إلى الفهلوية والآرامية ككتاب كليلة ودمنة ، ففى باب الأسد والثور عدد منها كقوله : (إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور ، لن يدركها إلا بأربعة أشياء . أما الثلاثة التى يطلب : فالسعة فى الرزق ، والمنزلة فى الناس ، والزاد للآخرة . وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى دَرَك هذه الثلاثة فاكتساب المال من أحسن وجه يكون . ثم حُسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ، ثم انفاقه فيما يُصلح المعيشة و يُرضى الأهل والإخوان وقوله : (إن أموراً ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج ، ولا يسلم منهن إلا القليل : هى صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة) . ومن الملاحظ أن العددين ثلاثة وأربعة هما محور الأمثال العددية التى وردت فى الإصحاح الثلاثين من سفر الأمثال وفى جامعة ابن سيراخ . ففى سفر الأمثال نجد الإصحاح الثلاثين (ما عدا ٣٠ : ١٧،٣٢) مشتملا على هذا النوع ، وكذلك الإصحاح السادس (١٦ — ١٩)

---

(١٩) نفس المرجع السابق ١٩٢ . (٢٠) تقويم ١٠٠ وما يليها .

(٢١) راجع اللغز العددى فى الفصل الثالث من الباب الثانى من هذا البحث .

وفى جامعة ابن سيراخ ٢٥ : ١ — ٤ . وفى هذا السفر الأخير ورد : (ثلاث هن زينة لى وبهنّ قمت جميلة أمام الرب والناس : اتّفاق الإخوة ، وحب القريب ، والمصافاة بين المرأة ورجلها . ثلاثة تبغضهم نفسى وتمقت حياتهم : الفقير المتكبر ، والغنى الكذاب ، والشيخ الزانى الناقص الفهم) . وعنى اليهود فى العصر التلمودى بالأمثال والألغاز العددية (مِدّاه) ، وفى التلمود والمِدْراس طائفة كبيرة منها[٢٢] .

ولم تقتصر وسائل قيد الأمثال وتيسير حفظها على الروابط التى اصطنعت بين أجزاء المثل الواحد ، وهى التى أوردناها فيما سبق ، بل تعدى ذلك إلى خلق روابط بين مجموعة من الأمثال لتحقيق الغاية التعليمية نفسها ، ويبدو أن الدافع الأول عند كُتّاب العبرانيين ، إلى اصطناع هذه الوسائل هو إعانة الحفاظ على إيعاب مجموعة بأكملها من الأمثال المقدسة فى التوراة وغيرها . من ذلك أنهم ربطوا بين طائفة من الأمثال بتوحيد بداياتها ، فجعلوها مبدوءة بحرف مماثل بتلك التى وردت فى سفر الأمثال (٢٦ : ١ — ٢) مبدوءة بكاف التشبيه (كالثلج ... كالمطر ... كالعصفور ... كالسنونة) ، وفى السفر نفسه (١١ : ٩ — ١٢) مبدوءة بالباء حرف الجر (بالفم ... بالمعرفة ... بخير الصديقين ... ببركة ... بفم الأشرار) . وأداروا مجموعة من الأمثال على حروف الهجاء فبدءوا كل مثل منها بحرفٍ حسب الترتيب الأبجدى (أمثال ٣١ : ١٠ — ٣١) . وهذه إحدى طرائق الاستظهار التى تسمى عندهم acrostic style . وهذه كلها محاولات لها نظائرها فى مصنفات الأمثال العربية المرتبة ترتيبا أبجديا . ولم يرد شىء من ذلك فى القرآن ولا فى الحديث . غير أن هذه الطرائق التعليمية تتجلى فى الأدب العربى فى عصر متأخر بصورة واضحة ، فقد امتصت الحكمة الكتابية العربية أكثر ما كان شائعا فى الشرق القديم من طرائق تعليمية وكتابية ، عند مستهل القرن الرابع الهجرى . ففى هذا القرن ظهرت آثار الشعوب الشرقية فى الحضارة الإسلامية فى صورة واضحة جلية ، وقد حملت معها تراثها الأدبى والتعليمى القديم ، واجتمعت

(٢٢) ZDMG, B. 65, 1911, (A. Wünsche; Die Zahlensprüche in Talmud und Midrasch.)

الظواهر والأسباب التى تذكرنا إلى حد كبير بتلك الظواهر والأسباب التى بعثت الحكمة الكتابية فى الشرق القديم .

اشتدت النزعات التعليمية ، وكانت تتمسك فى أغلب الأحيان بالطريقة التقليدية التى تعتمد على الذاكرة ، وازدهر نظام الكتابة والكُتّاب الذى هو شديد الشبه بالنظام القديم . كان الكاتب ذا منصب خطير فى الدولة ، وكان عليه أن يلم بكثير من اللغات ، ويجمع أطرافا شتى من الثقافة ، وكان فن الكتابة مادة تدرس فى ديوان الإنشاء الذى كان يلحق عادة بقصر الحاكم . وكان الكُتاب مؤدِّبين يعلمون أبناء الخليفة والأشراف . ولعل أشهر الذين تولوا هذا المنصب كانوا من أصول فارسية وتركية ومسيحية [٢٣] . وعلى أيدى المعلمين والكتاب برزت صناعة الرسائل والمقامات والكتب التى امتلأت بألوان وطرائق مما رأينا نظائر لها فى الأمثال الكتابية القديمة . فتفننوا فى أسلوب التنظيم الأبجدى acrostic style ، وفى التصرف فى أوضاع الألفاظ فى داخل العبارات .

---

(٢٣) راجع صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٢ (ج أول) وآدم متز ١/١٣٥ وما يليها .

٥ ـ المثل القياسى فى القرآن

المثل القياسى هو سرد قصصى أو وصفى ، يتعاطى أحد أمرين، فهو : إما أن يصور نموذجا من السلوك الإنسانى بقصد التأديب أو التمثيل والتوضيح ، وإما أن يجسِّم مبدأ يتعلق بملكوت الله ومخلوقاته[١] . فالمثل القياسى كلام مطنب إذا قورن بسابقه ، وهو بعد يجمع بين مزايا المثلين الكتابى والشعبى : يجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير ، ويقرن بين الغايتين فقد يقصد إلى التأديب وقد يرمى إلى مجرد التوضيح والتصوير . وهو بعد ليس تلخيصا لقصة ولا إشارة إليها ، وليس اقتباسا ولا اقتضابا ، وإنما هو قصة بأكملها أو صورة مجازية مبسوطة جاء بها الحكيم للإيضاح أو التأديب والتحذير .

ورد عدد قليل من المثل القياسى فى أسفار العهد القديم وهو لا يتجاوز العشرة (صموئيل الثانى ١٢ : ١ — ١٤ ، ١٤ : ١ — ١١ ، الملوك الأول ٢٠ : ٣٥ — ٤٠ ، إشعيا ٥ : ١ — ٧ ، حزقيال ١٧ : ٣ — ١٠ و ١٩ : ٢ — ٩ ، ١٠ — ١٤ ، ٢١ : ١ — ٥ ، ٢٤ : ٣ — ٥) وعنى الربانيون والأحبار فى تعاليمهم باستخدام هذا المثل ، وجاء المسيح فشاعت أمثاله القياسية فى الأناجيل . وقد عدها الباحثون فاختلفوا فى إحصائها بين ٣٠ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧١ مثلا قياسيا[٢] . والاجتهاد فى استخراج المثل القياسى من الأناجيل مجاله واسع ، فالمسيح فى أقواله التى عدت أمثالا قياسية ، لم ينُصَّ هو عليها دائما بأنها أمثال ، بل يقال : « فقال المسيح » ، أو « فتكلم المسيح » أو نحو ذلك مما لا يصرِّح فيه بأنه مثل . ومن ثم اختلفت نظرة العلماء إلى هذه الأقوال ، وإن كانوا قد اتفقوا فى ما قدمه الإنجيل نفسه فعدَّه مثلا ، كالذى ورد فى مرقس ٤ : ٢ (فكان يعلمهم كثيرا بأمثال وقال لهم فى تعليمه . . .) وفى

---

(١) مانسون ٦٥ .

(٢) مانسون ٦٦ — ٦٩ ، ERE ٩/١٦٣٠ .

مرقس ١٢ : ١ (وابتدأ يقول لهم بأمثال : إنسان غرس كرما الخ) . وفى متى ٢١ : ٣٣ (اسمعوا مثلا آخر : كان إنسان رب بيت الخ . . .) . أضف إلى ذلك أن بعض العلماء قد أدخلوا العبارات التشبيهية ، مجازا كانت أم قصة ، فى المثل القياسى ، فى حين قَصَر بعضهم الآخر مدلول المثل القياسى على القصة دون الصورة المجازية ، وإن اعترف هؤلاء بأنه ليس من اليسير دائما أن يميز الباحث بين المثل القياسى والصورة المجازية البسيطة[٣] . ويبدو لى أن جعل المثل القياسى قاصرا على القصة وحدها هو تضييق لمدلوله دون مبرر مفهوم .

ورد فى القرآن الكريم عدد من الأمثال القياسية التى ورد فيها لفظ المثل صراحة . وتبلغ الثلاثين مثلا[٤] . وقد أخرجنا منها نحو قوله : (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) ٥٦ : ٢٢ فهذا تشبيه بسيط لا نعده مثلا قياسيا ، وإنما نعد من المثل القياسى ما سماه البلاغيون العرب (التمثيل المركب) كقوله تعالى : (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ٦٢ : ٥ فقد شبه اليهود وقد حملوا التوراة ، وقرأوها وحفظوا ما فيها ، ولم يعملوا بها ، بحال حمار يحمل أسفارا هى مستودع العلوم وثمرات العقول ، وهو جاهل بمضمونها . ووجه الشبه شقاء كل باستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة من غير أن يحصل على شىء منها ؛ والغرض هو ذم اليهود بتلك الحال وتقبيح أمرهم . وليس من السهل انتزاع هذا الوجه ولا حصول هذا الغرض إلا إذا روعى فى المشبه به أمور ثلاثة : (الأول) حمل فيه مشقة وعناء ، (والثانى) محمول مخصوص هو أسفار العلوم ، (والثالث) حامل هو الحمار الذى هو مثل فى الجهل والبلادة . ثم لا يمكن اعتبار كل واحد من هذه

---

(٣) مانسون ٦٦ .

(٤) وتفصيلها كالآتى : ستة أمثال (البقرة) — مثلان (آل عمران) — مثل واحد (الاعراف) — مثل واحد (يونس) — ثلاثة (إبراهيم) — ثلاثة (النحل) — مثلان (الكهف) — واحد (النور) — واحد (العنكبوت) — واحد (يس) — واحد (الزمر) — واحد (محمد) — واحد (الفتح) — واحد (الحديد) مثلان (الحشر) — واحد (الجمعة) — مثلان (التحريم) .

الثلاثة مستقلا عن الآخر لتكون تشبيها بعد تشبيه أى متعددا ، لأن الغرض المتقدم لا يتحقق إلا بامتزاجها ، فإنه لا يتعلق بالحمل حتى يكون المحمول الأسفار ، ولا بهذين حتى يقترن بهما جهل الحمار الحامل (٥) . كذلك أخرجنا من المثل القياسى نحو قوله تعالى : (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ٢ : ٢٦ ، ونحو قوله (وضرب لنا مثلا ونَسِي خَلْقَه قال : من يحيي العظام وهى رميم) ٣٦ : ٧٨ . ونحو قوله : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) ١١ : ٢٤ فهذا وشبهه ، و إن صرح فيه بلفظ المثل ، فهو إما تشبيه مفرد ، أو سؤال مجمل . ولعلنا ندرك الفرق بين هذه الآيات و بين ماورد فى قوله تعالى : (أو كصيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد و برق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير) ٢ : ١٩ — ٢٠ . فهاهنا صورة مجازية مسهبة هى مثل قياسى ، يصف حياة هؤلاء الكفار الذين آثروا الضلالة على الهدى ، فأحاط الله بهم ، وأخذهم أخذا شديدا ، فهم يسومون حياة قلقة معذبة ، أشبه بمن انقض عليهم الوابل المنهمر ، فجرفهم فيما جرف ، لا يستطيعون الخلاص ، وصكت أصوات الرعد آذانهم فألقت فى نفوسهم الرعب الشديد ، وَبَغَتْهم البروق الخاطفة فهم يذودون عن أعينهم بأيديهم ، وخشُوا أن تنقضَّ عليهم الصواعق فوضعوا أناملهم فى آذانهم . فهم بين هذه المشاهد المتتابعة والأحداث المتلاحقة والحركات العنيفة المفزعة ، مفزَّعون حيارى قد أخذ منهم الخوف والوجل كل مأخذ .

على أن المفسرين والبلاغيين لم يقتصروا على هذه الأمثال التى ذكرنا حين تحدثوا عن التمثيل فى القرآن ، بل أضافوا إليها قصصا وصورا مجازية أخرى وعدُّوها من قبيل التمثيل ، على الرغم من أن لفظ المثل لم يرد فيها صراحة . فمن ذلك قول

---

(٥) دراسات تفصيلية ٤٤ — ٤٥ .

الأستاذ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى : (أو كالذى مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال أنّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه . قال كم لبثت . قال لبثت يوما أو بعض يوم . قال بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّهْ . وانظر إلى حمارك ، ولنجعلَكَ آيةً للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير) (٢ : ٢٥٩) . قال الأستاذ : (ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم)[٦] . ومن ذلك قول ابن القيم فى قوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه) ٤٩ : ١٢ . قال ابن القيم : (وهذا من أحسن القياس التمثيلى ، فإنه شبه تمزيق عِرْض الأخ بتمزيق لحمه)[٧] . وفى تفسير سورة البقرة الآية ٢٥ ، فى صدد القصة التى زيد فى تنميقها ... أن الله مسخ الذين اعتدوا فى السبت (قردة خاسئين) ، فنى ذلك يقول مجاهد : إن المسخ لم يقع على أجسامهم بل على قلوبهم ، فبقُوا أناسِيَّ لهم نفوس القردة ، وإذاً يكون المراد مجرد التمثيل ، كما مثل الذين حملوا التوراة ، فى موضع آخر (الآية ٥ من سورة الجمعة) ، بمَثَل الحمار يحمل أسفارا (انظر البيضاوى فى تفسير هذه الآية) ، الدميرى (حياة الحيوان ٢ / ٢٩٠ — مادة : قرد) ، حيث علق على ذلك بقوله : (وهذا قول تفرد به عن جميع المسلمين)[٨] . وظاهر مما سبق أنه اجتهاد من المفسرين . ومن العسير أن نهتدى إلى الأمثال القياسية فيما لم يصرِّح القرآن به تصريحا .

وإذا بحثنا فى مادة المثل القياسى بوجه عام ، استطعنا أن نميز بين طائفتين : إحداهما تتجه فى موضوعها إلى السلوك الإنسانى إزاء رسالة الله ودعوته ، والثانية تتجه إلى ملكوت الله ومخلوقاته[٩] . ومعظم الأمثال القياسية فى القرآن من الطائفة الأولى

---

(٦) تفسير المنار للشيخ محمد عبده ٣/٥٢ .

(٧) ابن القيم ١/١٤٦ . وراجع كذلك تفسير المنار ١/٢٨٠ — ٢٨١ .

(٨) مذاهب التفسير الإسلامى لجولدتسيهر ترجمة عبدالحليم النجار (القاهرة ١٩٥٥ ص ١٣٠)

(٩) هذا التقسم الثنائى ذكره مانسون (٦٣) فيما يتعلق بأمثال التوراة والإنجيل . وسمى الطائفة الأولى ad hominem ، والثانية ad rem .

(٢٢ مثلا) ، والباقى من الطائفة الثانية (ثمانية أمثال) . ومثال الأولى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروْا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ٢ : ١٦ — ١٧ . فهذا بيان لحالة الكفار ، وقد كانوا يترقبون الدعوة و يتطلعون إلى نور يهديهم إلى الحق ، فلما أشرق هذا النور صدوا عنه ، وسلكوا سلوكا معيباً إزاء الدعوة . وكذلك سائر الأمثال التى تندرج فى هذه الطائفة . فالكفار فى دعواهم وعنادهم كالذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء (٢ : ١٧١) . والطيبون الذين ينفقون فى سبيل الله ، يضاعف لهم الأجر كمثل الحبّة التى أنبتت سبعَ سنابلَ فى كل سنبلة مائة حبة (٢ : ٢٦١) ، أو كمثل جَنَّةٍ بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين (٢ : ٢٦٥) . أما الذين ينفقون أموالهم رياء ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر فمثلهم كمثل صَفْوانٍ — صخر أملس — عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا (٢ : ٢٦٤) . أما هذا الذى وهبه الله آياته فانصرف عنها ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث (٧ : ١٧٦) . والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لايقدرون مما كسبوا على شىء (١٤ : ١٨) الخ . . .

أما الطائفة الأخرى من الأمثال فهى لا تتعرض بصفة مباشرة لسلوك الناس وتصرفاتهم إزاء الله و رسالته ، و إنما هى بيان لما فى هذا الملكوت الواسع الذى يدبِّر الله أمره ، فهذه الحياة الدنيا مثلها كماء أنزله الله من السماء (فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناسُ والأنعامُ ، حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفَها وازَّيَّنت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تَغْنَ بالأمس) ١٠ : ٢٤ ، أو أصبح هشيماً تذروه الرياح (١٨ : ٤٥) . أما نور الله فمثله (كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونةٍ ، لاشرقيةٍ ولاغربيةٍ ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء) (٢٤ : ٣٥) . وهذا المال الذى يعتز به الكفار لايغنى عنهم من الله شيئاً ،

فمثله كمثل ريح فيها صرٌّ — برد شديد — أصابت حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته (٣ : ١١٧) الخ . .

وهذا التقسيم الثنائى يصدُقُ على ما ورد فى التوراة من أمثال قياسية . فمن النوع الأول : مَثَل نعجة الفقير (صمويل الثانى ١٢ : ١ — ١٤) ، ففيها بيان لمسلك داود إزاء كلمات ربه التى لم يُصْغِ إليها ، فأراد الله بهذا المثل أن يوقظ قلبه وينبهه على مابدر منه . ومن النوع الثانى أمثال حزقيال (١٧ : ٣ — ١٠ ، ١٩ : ٢ — ٩ ، ١٠ — ١٤ ، ٢١ : ١ — ٥ ، ٢٤ : ٣ — ٥) ، فهى تصوير لحوادث مستقبلة يتنبأ بها ، وفى سردها بيان لقدرة الله وما أوحى به إلى نبيِّه من هذه الحوادث[١٠] .

وهذا التقسيم الثنائى يصدق كذلك على أمثال المسيح . فمن النوع الأول مَثَل صاحب الكَرْم (مرقس ١٢ : ١ — ١١) ، ومَثَلُ البانى الحكيم والبانى الأحمق (لوقا ٦ : ٤٧ — ٤٩) . ففى المثل الأخير يشبه المسيح مَنْ يسمع كلامه ويعمل به بإنسان بنى بيتا ، وحفر وعمَّق ، ووضع الأساس على الصخر ، فلما جاء السيل صدم النهر ذلك البيت ، فلم يقدر أن يزعزعه ، لأنه كان مؤسسا على الصخر . وأما الذى يسمع ولا يعمل ، فيشبه إنسانا بنى بيته على سطح الأرض من غير أساس ، فصدمه النهر فانهار . فالمسيح هنا يصور سلوك المرء المطيع والمرء العاصى إزاء كلماته . ومن النوع الثانى مَثَلُ حبَّة الخردل (مرقس ٤ : ٣٠ — ٣٢) : « وقال : بماذا نشبه ملكوت الله أو بأى مثل نمثِّله . مثل حبة خردل متى زُرعت فى الأرض فهى أصغر جميع البذور التى على الأرض » . ويضيف مانسون قسما ثالثا هو مزيج من القسمين السابقين ، وفيه يتألَّف المَثَلُ من سلوك شخصى ومبدأ ملكوتى[١١] .

وقد ازدهر المثل القياسى — بعد عصر القرآن — على أيدى طبقتين — على الأقل — من علماء المسلمين : إحداها طبقة رجال الدين ، والفقهاء بخاصة ، فقد وجهوا عنايتهم الى جَمْع أمثال القرآن القياسية ودراستها من ناحية ، واستخدام المثل القياسى فى شرح

(١٠) مانسون ٦٣ . (١١) نفسه ٨٠ .

تعاليمهم وتفسير آرائهم من ناحية أخرى . فكان القياس موضع نقاش حاد بين الفقهاء . وكان منهم من يؤمن بضرورة استخدام القياس أصلاً من أصول الفقه ، فقاموا يُثبتون للناس أن القرآن قد قاس ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته قاسوا . وكانت هذه الحركة فيما يظهر من أهم ما لفت أنظار العلماء إلى ما فى القرآن والحديث من أمثال قياسية . ولم ينته القرن الرابع الهجرى حتى رأينا أحد العلماء ، وهو نِفْطَويه الأزدى + ٣٢٣ هـ يؤلف كتابا فى أمثال القرآن[١٢] . ثم توالت الكتب فى هذا الموضوع[١٣] . وخصص ابن القيم + ٧٥٤هـ فى كتابه (اعلام الموقعين) مايقرب من أربعين صفحة من الجزء الأول فى هذا الموضوع[١٤] .

وكان لمدرسة القياس فى العراق نصيب كبير فى توسيع مسائل الفقه وتفريعها وتدعيم المنهج الأصولى . واشتهر أبو حنيفة + ١٥٠ هـ ، وأتباعه من بعده ، بالقياس . ويروى عنه طائفة من الأخبار ، تدلنا على أنه كان مولعا باصطناع التمثيل القياسى فى احتجاجه ، وفى حياته العملية كذلك[١٥] . وتذكّرنا هذه المرحلة من تطور النظر الفقهى والدينى فى الإسلام ، بما حدث فى تاريخ الديانات السابقة ، من قيام شُرّاح التوراة بشرح أسفار العهد القديم وتكوين المذاهب الفقهية ، والاستعانة فى ذلك بالأمثال القياسية فى شرح تعاليمهم وآرائهم . وكان للمثل القياسى فى مقدمة الأساليب التى اصطنعوها فى هذا المجال[١٦] .

أما الطبقة الثانية التى ازدهر على يدها المثل القياسى فى الإسلام ، فهم أولئك الكُتّاب الإسلاميون الذين خضعوا لمؤثرات شرقية قديمة : آرامية وفارسية وغيرها .

---

(١٢) فهرست ١٣٩ (ليبسك) . ولم نعثر على هذا الكتاب . ويخيل إلينا أنه يتضمن الأمثال القياسية ، وهذا العنوان قد أطلق فيما بعد على هذا النوع بعينه فى كتب المتأخرين .

(١٣) محمد بن حسين السلمى النيسابورى + ٤٠٦ ، وعلى بن محمد الماوردى + ٤٥٠ (كشف الظنون ط . (١٣١٠) ١/١٥٠ .

(١٤) ١/١٢٨ وما يليها .

(١٥) أذكياء ٤٥ — ٤٨ ، وضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٢ ص ١٨٧ — ١٩٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥ .

(١٦) ERE ٨/٦٢٧ — ٦٢٨ .

فهؤلاء حملوا معهم تراثا من الأمثال القياسية ونقلوه إلى العربية . والمعروف أن المثل القياسى كان أسلوبا شائعا لدى حكماء الهند ، وقد علم به بوذا ، فأخذ مادة أمثاله من أحداث الحياة الزراعية ، ومن حياة الملوك ، ومن قصص الحيوان والنبات[١٧] . وعرف الآراميون المثل القياسى الذى شاع على أيدى شراح الكتب المقدسة من الربانيين والأحبار وعلماء النصارى . والتقت أمثال الهند وفارس بأمثال الآراميين فى منطقة الهلال الخصيب ، وغيرها من مناطق الشرق .

ونلاحظ فى أمثال هذه الطبقة أنها كثيرا ما تستخدم الخرافة فى المثل القياسى . والمثل القياسى ، من حيث المبدأ ، لا يأبى الاستشهاد من الخرافة . فقد يستمد قصته من خرافة حيوانية أو نباتية أو جمادية . وقد ورد فى التوراة مثلان قياسيان من الخرافة النباتية (خرافة يوثام فى سفر القضاة ٩ : ٧ — ١٥ ، وخرافة العوسج والأرز فى سفر الملوك الثانى ١٤ : ٩)[١٨] . وفى الجاهلية العربية شاعت فى الأوساط الكتابية خرافات حيوانية نقلها الناقلون فى قالب شعبى ، وبعضها يدخل فى باب المثل القياسى . وبعد عصر القرآن ، وجدنا كاتبا كابن المقفع ينقل إلى العربية كليلة ودمنة ، وفيه جملة من الأمثال القياسية تستمد قصصها من الخرافات الحيوانية .

على أن هذا ليس له نظير فى أمثال القرآن الكريم . فقد استمد قصصه وأوصافه فى هذه الأمثال ، من حياة البشر (٢ : ١٧ ، ١٦ : ١١٢) ، ومن الحياة الزراعية (٢ : ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ١٤:٢٦ ، ١٠ : ٢٤) ، ومن الحياة الجبلية والصحراوية (٢ : ٢٦٤ ، ٣ ١١٧) ، ومن وسائل الحياة المنزلية (٢٤:٣٥)،ومن الحيوان . فضرب مثلا بالكلب الذى يلهث (٧ : ١٧٦) والعنكبوت ذى البيت الواهن (٢٩ : ٤١) والحمار الذى يحمل الأسفار (٦٢ : ٥) . وكل ذلك ليس من الخرافة فى قليل ولا فى كثير .

فإذا كانت هناك صلة وثيقة بين المثل القياسى والخرافة فيما شاع من أمثال الشرق القديم ، فلا وجود لهذه الصلة فى أمثال القرآن الكريم .

---

(١٧) نفسه ٩/١٦٣١ .

(١٨) مانسون ٦٢ — ٦٣ .

٦ — أمثال كليلة ودمنة

كان الرأى السائد لدى العرب والفرنجة — إلى عهد قريب — أن كتاب كليلة ودمنة قد نقله ابن المقفع حوالى ١٣٢ هـ = ٧٥٠م من الفهلوية إلى العربية . ولكن الباحثين اليوم أخذوا يعيدون النظر فى هذه القضية . ونود أن نقف قليلا عند ذلك الرأى السائد لنعرف مدى صحته .

من أقدم المصادر التى أشارت بوضوح إلى تراجم ابن المقفع « طبقات الأمم » لصاعد الأندلسى + ٤٦٠هـ . فقد ورد فيه بعد أن سرد كتب المنطق التى ترجمها عبد الله ابن المقفع : (وترجم الكتابَ الهندى المعروف بكليلة ودمنة . وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية) . وورد فى موضع آخر من الكتاب أن ابن المقفع قد نقل الكتاب من الفارسية إلى العربية[١] . ولكن لدينا من الدلائل مايشكك فى صحة هذا الرأى الذى قال به القدماء وأكثر المحدثين :

(ا) ترجم السريان كتاب كليلة ودمنة قبل أن ينقل إلى العربية بحوالى مائة وثمانين عاما فيُروَى : (أن الترجمة السريانية القديمة لهذا الكتاب من وضع القس بُودْ ، جعل عنوانه « كليلج ودمنج » على اسم شخصيتين بارزتين فى الكتاب لابنى آوى[٢]) وروى «عبد يشوع» فى فهرسه ، أن بود وضع ترجمته السريانية عن أصل سنسكريتى ولكن بعض الباحثين يرى[٣] — عن طريق بعض الخصائص اللغوية — أن الترجمة السريانية قد أُخِذت عن ترجمة فهلوية ، وضعها برزويه الحكيم الفارسى لكسرى الأول ملك فارس ، ومنه نقل «بُودْ» ترجمته السريانية قبل الإسلام وقد نشر « بيكلّ » هذه الترجمة .

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبعة لويس شيخو ببيروت سنة ١٩١٢) ص ٤٩ ، ١٤ .
(٢) مراد وبكرى ١٧٠ .
(٣) نفسه ١٧٠ - ١٧١ .

والمعروف أن العلاقة بين الفرس والسريان كانت وثيقة قبل الإسلام . ويذكر المسعودى + ٣٤٥ أن السريانيين سكان العراق (ويسمِّيهم أيضا الكلدانيين) ، قد دخلوا فى جملة الفرس الأولى لغلبتهم عليهم[٤] . وكان فى الرها مدرسة فارسية تُعَدّ المركز الأساسى للدراسة اليونانية ، والنقل إلى السريانية فى القرن الخامس الميلادى[٥] . وكان دعاة السريان يطوفون بالمقاطعات الفارسية ويتصلون بأهلها ويجادلونهم فى المذاهب . وعلى أيدى النساطرة نُقِلت الثقافات اليونانية والفارسية إلى اللغة السريانية[٦] . وكانت السريانية لغة الكنيسة الفارسية[٧] . وقد أثبت الأستاذ «بول كراوس» أن الكتب المنطقية التى ترجمها ابن المقفع ، أو لخصها ، لم تنقل عن الفهلوية ، ورجّح أنها نُقلت عن السريانية[٨] . وليس ببعيد أن يكون ابن المقفع كان يعرف السريانية إلى جانب الفارسية والعربية ، يؤيد هذا الافتراض تلك الصلات الثقافية الوطيدة التى كانت بين الفرس والسريان ، وقرب الموطن الأول لابن المقفع — وهو إقليم الأهواز — من مناطق السريان بالعراق ، أضف إلى ذلك استمرار حركة التدوين والترجمة التى قام بها السريان قبل الإسلام إلى ما بعد الفتح العربى[٩] .

(ب) إذا رجعنا إلى ماذكره المؤرخون عن طريقة الحصول على الأصل الفهلوى فى عهد المنصور ، نجدهم يذكرون ذلك فى شىء من الغموض . فقالوا إن المنصور احتال حتى حصل على كتاب كليلة ودمنة من بعض أمراء الفرس . (ولم يذكروا اسم الأمير الفارسى الذى كان الكتاب فى حوزته ، كما أنهم لم يذكروا كيف اتصل المنصور بهذا الأمير . مع أن المعروف أن ملوك الفرس وأمراءهم من آل ساسان قد انقرضوا بالقضاء على يزدجرد الثالث سنة ٣١ هـ فى خلافة سيدنا عثمان[١٠]) .

(جـ) من المستبعد أن يكون النصان السريانى والعربى قد نقلا العنوان —

---

(٤) تنبيه ٥ — ٦
(٥) مراد وبكرى ١٢٣
(٦) نفسه ١٦٩
(٧) دى بور ١٧
(٨) التراث اليونانى ١٠١ وما يليها .
(٩) دى بور ٢١ ، دونالدسون ٩٦ .
(١٠) حامد ٣٣ .

عن طريقين مختلفين — من النص السنسكريتى . فاسما ابنَىْ آوى بالسنسكريتى هما (كَراتَكا ودَمانَكا) ، واسماها فى السريانية « كليلج ودمنج » ، واسماها بالعربية « كليلة ودمنة » ، ومن الواضح البين أن الترجمة العربية للفظين أقرب إلى الترجمة السريانية منها إلى السنسكريتية ، مما يجعلنا نفترض أن النص العربى قد نقَلَ العنوان — على الأقل — من السريانية .

(د) أضاف ابن المقفع إلى الكتاب الأصلى فصولا . والبيرونى يتهم ابن المقفع بزيادة «باب برزويه» فى ترجمته لكتاب كليلة ودمنة قصداً منه إلى (تشكيك ضَعْفَى العقائد وكسبهم للدعوة إلى مذهب المَنَّانيَّة) . ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل ما لكلام البيرونى من قيمة ، لأنه فى أغلب الظن عرف الأصل الهندى والفارسى القديم ، وهو فوق ذلك العالم المحقق الذى لايلقى الكلام إلقاء [١١] . فالراجح أن باب برزويه مَزِيدٌ على الأصلين الهندى والفارسى . وسواء أكان هذا الباب من زيادة ابن المقفع نفسه أم من زيادة أصل آخر نقل منه ابن المقفع ، غير الأصل الفارسى ، فقد لاحظ كراوس أن هناك شَبَهاً ظاهرا بين باب برزويه وآراء بولس الفارسى التى ذكرها فى مقدمة منطقه [١٢] . ومن المعروف أن بولس هذا قد ألَّف كتبا بالسريانية [١٣] . (وليس هنالك مايمنع من أن يكون ابن المقفع قد عرف مقدمة بولس نفسها فى السريانية ، واقتبس منها ، ووسَّع ما اقتبسه ، ومزج ذلك بما وجده من كلام عن برزويه ، إن كان مثل هذا الكلام موجوداً حقيقة فى الأصل الفهلوى) [١٤] .

(هـ) وفى باب برزويه هذا ، وردت قصة المصدِّق المخدوع ، وهى قصة جماعة من اللصوص ظنوا أنهم إذا صعدوا الدار ، وعوّذوا أنفسهم برُقْيَة معينة سبع مرات ، ثم ألقوا بأنفسهم من كُوَّة السطح فإنهم يَسْلَمون من الأذى .

يقول ابن المقفع : (فقام قائدهم إلى مدخل الضوء ،وقال :(شَوْلَم شَوْلَم) سبع مرات

---

(١١) دى بور ٢٩٠ (تعليق بالهامش)
(١٢) نفسه ٢٩٠
(١٣) نفسه ٢٣ .
(١٤) نفسه ٢٩١ .

ثم اعتنق الضوء (أى ضوء الكوة) لينزل إلى أرض المنزل ، فوقع على أُمِّ رأسه منكسا) . وقوله شولم شولم هذا لفظ عبرى أو آرامى مشتق من ܫܠܡ بمعنى (سَلِم) . ومعنى قوله : « ليكن سالما صحيح البدن لا يؤذَى بشىء » .

ولهذا كله نرجح أن الكتاب ترجم من الآرامية الشرقية (السريانية) ، وليس من الفهلوية .

والأمثال فى الكتاب ، بصفة عامة ، متنوعة الأشكال ، وهو جامع لصنوف المثل الكتابى : (المثل الموجز ، والمثل القياسى ، والمثل الخرافى) . ويلاحظ أنها تدور غالبا فى داخل أبواب عامة هى بمثابة أُطر واسعة تحيط بمجموعات من هذه الأمثال على اختلافها . وفى داخل كل إطار ، يتنقل المؤلف من قصة إلى قصة مسوقا بالتداعى والاستطراد . وليس من النادر أن نجد الروابط بين الأمثال الفرعية واهية ضعيفة . ولا تكاد تجد تصميما متماسكا محكما Plot للقصص الكبيرة منها . وكثيرا ما نجد الأمثال فى داخل القصة أشبه بألوان مختلفة من الطعام على مائدة واحدة أو بصفحات مختلفة يقلِّبها المؤلف أمام القارئ ، ويعرض فيها صنوفا متباينة من الحكمة .

ومع ذلك فالكتاب فى طريقة تأليفه ، وفى بعض مواده ، قد أتى بجديد فى عصره . فهو خطوة إزاء الربط القصصى ، ومحاولةٌ أولية لتصنيف الأمثال على أساس موضوعى . فباب الأسد والثور محاولة لجمع عدد من الأمثال حول فكرة رئيسية ، هى التى أشار اليها فى مطلع الباب بقوله : (اضرب لى مثلا لمتحابَّيْن يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء) . وسنجد بعد جيلين من وفاة ابن المقفع عالِماً من علماء الاسلام ، وهو أبو عبيد القاسم ابن سلام + ٢٢٣ ، يلتفت إلى هذه الطريقة الموضوعية فى تصنيف الأمثال (١٥) .

والمثل الخرافى ، فى كليلة ودمنة ، يختلف عن نظائره فى المثل الشعبى القديم ،

---

(١٥) شرح البكرى (مقدمة المخطوط) ، وكتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم ابن سلام (نسخة مصورة من مكتبة فيض الله بالآستانة رقم ١٥٧٨) .

فهو يتميز بأسلوبه الكتابى ، وإلحاحه على المَغْزَى ، وتعمقه الفكرة . نجد فيه جهد الكاتب ، ورويّة المفكر ، و إيقار العبارَة بالمعنى ، فهو نتاج كاتب عكف على قرطاسه يحكِّم عقله فيما يعبِّر فى تريث وأناة ، فيكتب ما يكتب دون حشو أو ثرثرة . تغيب آثار الارتجال والمحادثة فى ثنايا تكاليف الصنعة . فالعبارات متماسكة يربط بينها ربطا محكما ، يكاد يستبدُّ بها المنطق ، تكثر فيها أدوات الشرط والوصل والتعليل والتفصيل . فمن ذلك قول ابن المقفع فى باب عَرْض الكتاب : (وأما الكتاب فجمع حكمة ولَهْواً ، فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشطٌ فى حفظ ماصار إليه من أمر يُربط فى صدره ولايدرى ماهو ، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان كالرجل الذى لَمَّا استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعَقَدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته ، فأغناه ماأشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب) . فلعلنا نلاحظ تقسيم المعانى وتفصيلها فى قوله : (وأما الكتاب . . . إلى قوله : والسفهاء للهوه) ، ونحس تصفيفا للعبارات على طريقة منطقية كتابية فى قوله : (والمتعلم من الأحداث ناشطٌ ... ولا يدرى ماهو) ، وقوله : (قد كنزا له كنوزا وعَقَدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته ، فأغناه ما أشرف عليه الخ . . . العبارة) . ونحس أخيرا فى قوله : (وكان كالرجل الذى لَمَّا استكمل . . .) بقيود ثقيلة ترسف فيها العبارة ، وهى قيود الصنعة الكتابية من غير شك .

على أن أهم القصص الواردة فى كليلة ودمنة نوعان : فنوع إنسانى تقع فيه الحوادث ، ويجرى فيه الحوار بين شخوص آدمية حقيقية ، ونوع خرافى تقع فيه الحوادث ، ويجرى فيه الحوار بين حيوان وحيوان أو بين حيوان و إنسان . والفكاهة فى هذا النوع مقيَّدة خافتة تُعوِزها الحرية والانطلاق ، اللذان نجدهما لدى أدب أبى عثمان الجاحظ . مثلا . فى صورة جلية واضحة . وقد يُثير الضحكَ فى خرافة الحيوان تلك المفارقات التى تبدو فى تصوير حيوان أعجم ناطقاً بالحكمة الإنسانية العالية ، ومفكرا تفكيرا بشريا ساميا .

ولكنها مفارقات ساذجة ليس لها أساس من واقع الحياة . أضف إلى ذلك أن نقل هذا النوع من الأدب الأجنبي إلى اللغه العربية لابد قد أفقده شيئا من روحه الفكاهى ، فالفكاهة ترتبط فى كثير من الأحيان بملابسات اجتماعية خاصة . فإذا نَصَلَتْ عنها هذه الملابسات قلت بواعث الضحك فيها . وهذا ما حدث فى نقل بعض الآداب إلى لغات أخرى (١٦) .

قد يكون من الفكاهة أيضا ماصوّرته القصص الواردة فى الكتاب من حِيَل أو عيوب . فمن ذلك حكاية السارق الذى تسوّر الحائط على رجل كان نائما فى داره ، فلما علم به سكت عنه حتى ينظر ماذا يصنع ، فإذا بلغ اللص مراده قام إليه فنغّص ذلك عليه ، فأمسك عنه ، وجعل السارق يتردد فى جنبات الدار ، وظل يجمع ما يجده وقتا طويلا حتى غلب الرجلَ النعاسُ فنام ، وفرغ اللص مما أراد وأمكنه الذهاب . واستيقظ الرجل فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به . فنحن إذ نتتبع حيلة الرجل خطوة خطوة ، نتساءل منذ اللحظات الأولى : ما عسى أن يحدث بعد أن يسكت اللص ، هذا السكوت الطويل ، فإذا أمسك به نظرنا فيما عسى أن يحدث ، فربما قتله اللص وربما هرب فلم يدركه . ولكن النهاية تفجؤنا فيستسلم الرجل لنوم عميق ، ويلوذ اللص بالفرار ومعه ما سرق . ففى هذه الحكاية ونظائرها ، مزيج من الحيلة وتصوير للعيوب والسخافات فى حياة الفرد أو المجتمع ، ومن هنا كانت مادة للتفكه .

و إلى جانب الحكايات والخرافات الواردة فى الكتاب ، نجد طائفة من الأمثال الكتابية الموجزة ، وقد أشرنا إليها فى فصل سابق ، غير أننا نلاحظ أن الفكاهة فيها — بوجه عام — تقوم على المقابلات الذهنية ، كأن يجمع المثل بين أمور متعارضة فى رباط واحد : (أربعة ضائعة : سراج فى الشمس ، ومطر فى سبخة — وهو الأرض ذات نز وملح — وحسناء عند عِنِّين ، وطعام عند سكران (١٧)) ، (ليس خلة هى للغنيّ مدح إلا وهى للفقير عيب ، فإن كان شجاعا سُمِّى أهوج ، و إن كان جوادا سمى

(١٦) ليكوك ٢٣٦ ، ٢٤٢ . (١٧) أمراء ١٤١ .

مُفسِدا ، و إن كان حليما سمى ضعيفا ، و إن كان وقورا سمى بليدا و إن كان لَسِناً سمى مهذارا ، و إن كان صموتا سمى عَيِيًّا[١٨]) . وقد يكون مبعث التفكه المقارنة بين سلوك الشخص وسلوك حيوان ، كقوله : (فالغنىُّ الذى لا مروءة له يُهان ، و إن كان كثير المال ، كالكلب لا يُحْفَل به و إن طوِّق وخُلْخِل ، ومن يصول على الناس بقوم لا يأمنهم ، كراكب الأسد الذى يوجل من رآه ، والراكب أشد وجَلا[١٩]) .

---

(١٨) رسائل البلغاء نشرها كرد على (طبعة ١٩١٣ فى القاهرة) ص ٥٢ .
(١٩) أسرار ١٥٤ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الرابع

المَثَل المولَّد

نذكر فيما يلى عددا من الأمثال المولدة بأرقام مسلسلة وسنشير إلى هذه الأرقام فى الفصلين التاليين[1] :

١ — ليس الشامىُّ للعراقى برفيق — ميدانى ٢/٢٠٨

٢ — لا تعلِّم الشُّرطىَّ التفحُّص ولا الزطِّىَّ التلصُّص — » ٢/٢٠٨

٣ — ليس وراء عبّادان قرية — » ٢/٢١٢

٤ — مع كفره قَدَرِى — » ٢/٢٩٠

٥ — التسلط على المماليك دناءة — » ١/١٥٨

٦ — المملوكة من أُذنها تَسْمَنْ — » ٢/٢٩٢

٧ — تغافل كأنك واسطى — » ١/١٥٢

٨ — عليه ما على أبى لهب (أى اللعنة) — » ١/٥١٧

٩ — طُفَيْلى ومُقْتَرح — » ١/٤٥٨

١٠ — البَصَرُ بالزبون تجارة — » ١/١٢٨

١١ — الصناعة فى الكف أمان من الفقر — » ١/٤٣١

١٢ — إياك والعِينة فإنها لَعِينة — » ١/٩٢

١٣ — إذا افتقر اليهودىُّ نظر فى حسابه العتيق — » ١/٩١

١٤ — أصابَ اليهودىُّ لحماً رخيصاً فقال : هذا مُنْتِن — » ١/٤٣١

١٥ — عليه ما على أصحاب السبت (أى اللعنة) — » ١/٥١٧

١٦ — كن يهوديا تاما و إلا فلا تلعب بالتوراة (أى وسيلة لا تنفع) — » ٢/١١٩

١٧ — زاد فى الطنبور نغمة — » ١/٣٤٠

١٨ — قد جعل إحدى أذنيه بستانا والأخرى مَيْدانا (لمن لا يسمع الوعظ) ميدانى ٢/٧٥

١٩ — الشيطان لا يُخَرِّب كَرْمه — ١/٤٠٤

---

(١) الاشارات إلى مجمع الميدانى المطبوع (١٣٥٢) .

٢٠ — شرُّ السمك يكدِّر الماء ١/٤٠٤

٢١ — كالإبرة تكسو الناس واستُها عارية ٢/١٢٠

٢٢ — اسجُدْ لقرد السوء فى زمانه ١/٣٧١

٢٣ — فرَّ أخزاه الله ، خيرٌ من قُتِل رَحِمَه الله ٢/٣٧

٢٤ — خَلِيفةُ زُحَل — خفيف القلب (كلاهما يضرب للثقيل) ١/٢٧٢ — ٢٧٣

٢٥ — ضيِّق الحَوصلة (للبخيل) ١/٤٤١

٢٦ — رقيق الحافِر (للمتهم) ١/٣٣٠

٢٧ — ريح فى قفص (للباطل) ١/٣٣٠

٢٨ — رَقَصَ فى زَوْرقه . (إذا سخر به وهو لا يشعر) ١/٣٣٠

٢٩ — الرأس صومعة الحواس ١/٣٣١

٣٠ — سراويلُه فى زِيقِه (أى أن الحاجة والجهد ألجآه إلى رفع قميصه بسراويله) ١/٣٧٠

٣١ — سُوقُنا سوق الجَنَّة (كناية عن الكساد) ١/٣٧٠

٣٢ — السِّنَّور الصيَّاح لا يصطاد شيئا (لأن الفأر يأخذ منه حِذْره . يضرب لمن يُوعد ولا يفى) ميدانى ١/٣٧١

٣٣ — إن للخيطان آذانا (للنمام) » ١/٩٠

٣٤ — أم الكاذب بِكْر » ١/٩٣

٣٥ — أنت سَعْدٌ ، ولكن سعدُ الذابح » ١/٩٣

٣٦ — قيل لحبلى ما تشتهين ؟ فقالت : التمر واهًا لِيه (أى أشتهى كل شىء يذكر لى مع التمر ، وواهًا ليه أى أشتهيه و يعجبنى — يضرب لمن يشتهى ما يذكر) ميدانى ٢/٩٣

٣٧ — قيل للشقى : هلُمَّ إلى السعادة . قال : حسبى ما أنا فيه — (يضرب لمن قنع بالشر وترك الخير وقبول النصح) ميدانى ٢/٤٤

٣٨ — قيل للبغل : مَنْ أبوك ؟ قال : الفرسُ خالى . (يضرب المخلط) ٢/٥٦

٣٩ — قيل للشحم : أين تذهب ؟ قال أقوِّم المُعْوَجَّ (يعنى أن السِمَنَ يستر العيوب . يضرب للئيم يستَغْنِى فيبجَّل و يعظَّم) ٢/٥٤

٤٠ — وقعت آجُرَّةٌ ولَبِنة فى الماء . فقالت الآجرة : وابتلالاه . فقالت اللبنة : فماذا أقول أنا ؟ ٢/٣٤٥

٤١ ، ٤٢ — قيل للقمان : أى الناس أشرّ ؟ قال : الذى لا يبالى أن يراه الناس مُسيئا — وقيل للقمان : ما أقبَحَ وجهك قال : تعيب بهذا على النَقْش أو على الناقش ؟ (ثعلبى ٣٤٢)

٤٣—٤٧ — صلابة الوجه خيرٌ من غَلة بُستان — صفقة بنقد خيرٌ من بدرة بنسيئة — عناية القاضى خيرٌ من شاهدَىْ عدل — غبار العمل خير من زعفران العطلة — كفٌّ بَخْتٍ خير من كُرِّ عِلْمٍ (ميدانى ١/٤٣٠ ، ٥١٦ ، ٢/١٣ ، ١١٩)

٤٨—٥٢ — كالمرأة الثكلى ، والحبة على المقلَى — كالذئب إذا طُلب هرب ، وإن تمكَّن وثب — كالعصفور إن أرسلته فات ، وإن قبضت عليه مات — كالكمأة لا أصلٌ ثابت ، ولا فرع ثابت — كصاحب الفيل يركب بدانق ، وينزل بدرهم (ميدانى ٢/١١٩ — ١٢١)

٥٣—٥٧ — من ثَقُل على صديقه خفَّ على عدوِّه — من أهان مالَه أكرم نفسه — ما أبعدَ ما فات وما أقربَ ما هو آت — مَنْ أدَّبَ أولاده أرغَمَ حُسَّاده — مَنْ كَانَ لك كلُّه كان عليك كلُّه (ميدانى ٢/٢٨٤)

٥٨—٦١ — تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن — لا خير فى وُدّ يكون بشافع — ليس حىٌّ على الزمان بباق — الحُرُّ يكفيه الإشارة

(ميدانى ١/١٥٨ ، ٢/٢١١ ، ٢٠٨ ، ١/٢٤٠)

١ — المثل المولَّد : خصائصه

يرسم هذا المثل خطا ثالثا فى تاريخ المثل العربى . ولقد أطلق هذا الاصطلاح على الأمثال التى جرت على ألسنة الناس فى العالم الإسلامى بعد أن ضعف النفوذ العربى ، منذ نهاية العصر الأموى ، ومع ذلك فمن العسير أن نعين نقطة بداية لظهور هذا المثل فى الأدب العربى . فليس من شك فى أن بواكيره الأولى قديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام ، وأن الحكمة الكتابية ، وهى تراث مشترك كما قلنا ، لا بد قد سمحت لبعض أمثال الشعوب الشرقية والغربية أن تتسرب إلى العرب القدامى فى جزيرتهم . غير أن هذه الأمثال الأجنبية لم تكن من الكثرة والنفوذ بحيث تستطيع أن تسيطر على العربية وأدبها فى ذلك الوقت المبكر . فظلت الشعبية العربية ، والحكمة العربية الكتابية محتفظة بطابعها القديم وأسلوبها فى صياغة الأمثال وضربها ، حتى إذا ضعف النفوذ العربى فى نهاية بنى أمية ، وجدت الثقافات الأجنبية مجالاً واسعا للظهور والسيطرة على مناهج الفكر والتعبير جميعا ، وشقت أمثال المستعربين طريقها إلى العربية فى قوة وكثرة .

ولكى نزيد هذا الاصطلاح توضيحاً . ينبغى أن نقسم المثل المولد قسمين : فقسم يتألف من هذه العبارات التى جاءت فى عصر متأخر قياساً على أمثال عربية قديمة أو اقتباسا من نصوص عربية سابقة يعرفها أهل اللغة . ومن هذه الأمثال ، ما جاء على وزن (أفعل) . وقد سبق فى الفصل الذى عقدناه لهذه الأمثال أن انتهينا إلى أن معظمها حادث فى الإسلام ، ولم يظفر بالألفة الشعبية فى العصور القديمة . ولكن حفظها فى المدونات العربية ، وتداولها بين الدارسين وعلماء اللغة ، قد أتاح لبعضها أن يحيا على ألسنة المستعربين ، وأن يظفر بألفة شعبية فى عصور متأخرة . فهذه إذن أمثال مولدة وإن عدَّها الرواة من الأمثال القديمة . ومع ذلك قد يعثر الباحث على عدد من هذه الأمثال أورده الرواة والجامعون فى مدوناتهم ، ونصّوا على أنها

مولدة . وقد استمرت هذه الأمثال — أو بعضها — بعد أن ظفرت بالألفة الشعبية فى عصور التوليد ، حتى انتهت إلى العصور الحديثة فى الأمثال الدارجة (المحدثة) : ونحن نقول فى أمثالنا المصرية : أبرد من مية طوبة ، أجوع من كلبة يزيد ، أبخل من يهودى الخ . . .

أما القسم الثانى من المثل المولد فهو يتألف من أمثال لم يألفها العرب غالبا من قبل ، فهى جديدة على « الطابع العربى القديم » فى مادتها أو فى صيغتها أو فى الأمرين جميعا . وقد أفرد الميدانى لهذا القسم أبواباً خاصة فى كتابه وأطلق عليها « أمثال المولدين » . ونحب أن نقف قليلا عند هذه الأمثال .

إذا تصفحنا أمثال الميدانى المولدة هـذه اكتشفنا حقيقة هامة ، هى أن معظم الأمثال العربية القديمة ، والـكتابية أيضا ، قد اختفت من الاستعمال ، وأن أمثالا جديدة حلت محلها . فلم اختفت الأولى ؟ ومن أين جاءت الثانية ؟

أما عن السؤال الأول فإن أول ما نلاحظه انقطاع الصلة بين المولدين الذين نشئوا فى بيئات غير عربية ، و بين كثير من الحوادث والعادات والشخصيات التى تشير إليها أمثال الجاهلية وصدر الإسلام . ولم يبق منها إلا ما كان ذا مساس بحياة الناس ومجتمعاتهم الخاصة . فتقلص ظل كثير من الأمثال التى كان لها طابع محلى ، تنبىء بنصها عن واقعة غابرة أو عادة غير مألوفة ، أو شخصية طواها النسيان . ولأى شىء و بأى اعتبار ، تتطلب من النبطى أو الفارسى أو المصرى أو المغربى ، أن يتبنى أمثالا لا يجد هو فى حوادثها وشخصياتها ما يعبر عن نزعة خاصة ، أو ظاهرة تتعلق بحياة قومه و بيئته . فأى شىء يدعو أحداً من هؤلاء إلى أن يتشبث — مثلا — بصحيفة المتلمس ، وشؤم داحس ، وخلط أبى قعيس وأم قعيس ، وأيسار لقمان ، ومعزى الفَزْر ، وما نسبوا إليها من صفات وأعمال . قد يقال إن هـذه الأمثال على غرابة حوادثها وشخصياتها عن بيئات الناس ، فإنما تحمل من المغزى ما يمكن أن يصدق على أحوال الناس جميعا على اختلاف بيئاتهم وحياتهم . وقد يكون فى ذلك بعض

الصواب ، ولكن ينبغى أن نذكر أمرين : أحدهما أن هؤلاء المولدين كانت لهم أمثالهم الخاصة التى نشأت من بيئاتهم . وكانت هذه فى مادتها وصورتها ومغزاها أقرب بطبيعة الحال إلى نفوسهم من غيرها . والأمر الثانى هو ما أشار إليه غويطاين فى قوله : (إن الأمثال العربية المحلية — فى معظمها — كانت حتى فى الزمن القديم مقصورة على مجالات قبلية ضيقة ، ثم انتشرت من طريق جامعى الأمثال ورواتها فى كتب الأدب القديم ، وحرص الناس على روايتها جيلا بعد جيل لأنها عبارات مركزة تحتوى كثيرا من أخبار القوم الذين غبروا ، ولأنها تؤلف ما يشبه الألغاز ، وهى نوع من الكلام أولع به العرب من قديم)[٢] ، ولأنها — كذلك — حصيلة جيدة من ألفاظ اللغة وتركيبها . ولهذا كله ضمن لها البقاء فى بطون الكتب ، وفى صدور عدد من مثقفى العرب وعلماء اللغة . فإذا كان مجال هذه الأمثال فى الاستعمال اليومى ضيقا ، فى إبان ازدهار المثل العربى القديم فى العصور الأولى ، بالإضافة إلى ما تشير إليه من عناصر غريبة على بيئات المولدين ، فالأجدر أن يكون مجالها بين المولدين أضيق .

قام مقام هذه الأمثال بين المولدين أمثال مستمدة من بيئاتهم . ولقد أحصى الباحث غويطاين أمثال المولدين فى كتاب الميدانى فوجدها تقرب من الألفين ، ووجد منها مالا يزيد على ٣٦ مثلا من الأمثال العربية القديمة[٣] . وإذا نظرنا إلى الأمثال المولدة التى رقمناها مسلسلة فى أول هذا الباب ، وتأملنا الأمثال من ١ — ٢٣ ، وجدنا أنها تنطق بحوادث وعادات وطوائف تنتمى إلى بيئات المولدين وحياتهم ، فمنها ما يشير إلى الخصومة التى كانت بين الشام والعراق منذ عصر بنى أمية (١) ، ومنها مايتحدث عن الزُّط الذين ظهروا فى العصر العباسى (٢) ، وعن جزيرة عبَّادان فى زاوية الخليج الفارسى بين فرعى الدجلة ، ضربوا بها المثل فى رداءتها وملوحة مائها (٣) وعن فرقة القدرية التى عرفت منذ عصر بنى أمية (٤) ، وعن طوائف المماليك (٥ ، ٦) ، وعن مدينة واسط ، وكان الحجاج بن يوسف يسخِّر

(٢) غويطاين ١٧٣ .
(٣) نفسه ١٧٣ .

أهلها فى البناء ، فكانوا يهربون وينامون وسط الغرباء فى المسجد ، فيجىء الشرطى ويقول : يا واسطى ، فمن رفع رأسه أخذه وحمله . فلذلك كانوا يتغافلون (٧) وعن طائفة الطفيليين الذين ظهروا بالكوفة والبصرة ثم عرفوا فى العالم الإسلامى (٩) ، وعن الأوساط التجارية والصناعية حيث تنبع أمثال البيع والشراء والرواج والكساد والرهن والعِينة (١٠ — ١٣ ، ٣١) . ومنها المثل (١٢) ، قاله المهلب ، ويقصد بالعِينة نوعا من المعاملات المالية ، وتطلق أحياناً على الربا[٥] . ومن تلك الأمثال ما يشير إلى اليهود (١٣ — ١٦) ، وإلى أدوات اللعب والطرب المستحدثة (١٧) ، وإلى الحياة الحضرية (١٨) ، وإلى حرفة السماكين والحاكة (١٩) ، ثم نجد أمثالا تقرر مبادىء خلقية لا يألفها العربى القديم فى مثله العليا (٢٢ ، ٢٣) .

وتجافى الناس عن استعمال كثير من التشبيهات والكنايات المستمدة من الحياة البدوية القديمة ، فأصبحنا لا نجد بين عامة المولدين من يسيغ أمثال الصحراء ، وما يتعلق به من حيوان ونبات وعقائد وعادات . وحلت محل هذه أَخْيِلة جديدة ، وكنايات مستحدثة ، فوصفوا الثقيل بأنه خليفة زُحَل ، وبأنه خفيف القلب (٢٤) ، والبخيلَ بأنه ضيق الحوصلة (٢٥) ، والمتهم بأنه رقيق الحافر (٢٦) ، واستمدوا صورهم من أفكار جديدة ، فوصفوا الرأس بأنها صومعة الحواسّ (٢٩) ، وعبروا عن الباطل بأنه (ريح فى قفص) (٢٧) ، وكنَّوْا عن الكساد بقولهم : (سوقنا سوق الجنة) (٣١) وشخصوا الحيطان فجعلوا لها آذانا (٣٣) . واستمدوا التورية من مصطلحات علم النجوم فقالوا : أنت سعد ولكن سعد الذابح (٣٥) وهو عَلَمٌ على نجم فى السماء أراد أن يذم من يسمى سعدا فاستخدم التورية . وأبدعوا فى الكناية عن الكاذب فجعلوا أمه بِكْرًا (٣٤) تعبيرا عن إفراطه فى اختلاق الأكاذيب .

ونأتْ حياة الناس عن اللغة العربية (الكلاسيكية) ، فصاروا لا يتذوقون كثيرا من ألفاظها وتركيباتها . وقد لاحظ العرب القدامى أنفسهم ما طرأ على اللغة من تطوز

---

(٤) بخلاء ٣٦٤ .

(٥) نفسه ٣٣٨ .

عميق منذ نهاية عصر بنى أمية ، وذلك حين سمَّوْا لغة هذه الفترة بالمولَّدة ولم يحتجُّوا بها[٦] . وروى بعض علمائهم : (أن كلام العرب كان باقيا على نَجْره (أى أصله) الأول وعلى سِنْخ طبعه الأقدم إلى زمان بنى أمية ، ثم دخله الخلل فاختلَّ منه أشياء)[٧] . وصارت الفصاحة البدوية شيئا غير مألوف لدى سكان العالم الإسلامى[٨] . وكانت فئة قليلة من العلماء هم الذين تشددوا فى اللغة وحافظوا على مقوماتها الأولى . وكان منهم من أصرَّ على استخدامها حتى مع العامة فأثاروا بذلك سخريتهم[٩] .

أما اللغة المتطورة فى ذلك العصر فقد احتفظت بالتصرف الإعرابى وقواعد النحاة ، ولم تزل — من حيث بناؤها الحقيقى — على الرغم من بعض السِّمات المولدة تعد من اللغة الفصحى[١٠] . و إلى جانب هذه اللغة المتطورة ، عاشت لهجات دارجة كان يتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من السكان فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى . و يفهم مما سبق أن العربية قد شهدت فى عصور التوليد ثلاث صور مختلفة على الأقل . فاللغة الكلاسيكية التى كان يتشبث بها قلَّة من أنصار مبدأ تنقية اللغة ، واللغة الفصحى المولَّدة وفيها سمات من التوليد ، فى صياغة القوالب وتركيب الجُمَل والمادة اللغوية ، مع محافظتها على التصرف الإعرابى للغة القديمة . ثم اللهجة الدارجة التى لا تراعى قواعد الإعراب والتصرف الإعرابى .

ولعل من أهم ما كان يميز العربية الكلاسيكية عن العربية الفصحى المتطورة هو ما نسمِّيه : التركيب والتحليل . الأُولى أَمْيَلُ إلى التركيب والأخرى أجنح إلى التحليل . ونقصد بالتحليل بسطَ المعنى وظهورَ روح الانسياب والاسترسال فى الصياغة بوجه عام ، مع السهولة فى اللفظ ، مثال ذلك قول المثل القديم : (كالطاحنة) ،

---

(٦) مزهر ١/٣٠٤ ، كتاب الاشتقاق والتعريب لعبد القادر بن مصطفى المغربى (القاهرة ١٩٤٧) ص ٦٢ .

(٧) بيان إعجاز القرآن للخطابى + ٣٨٨ هـ (شرحه عبد الصديق) وطبع فى القاهرة ١٩٥٣ ص ٦٠

(٨) يوهان ٥٧ — ٦٠ .

(٩) نفسه ٢٧ .

(١٠) يوهان ١٠٠ .

وهو يضرب لمن يكسل عن الأمر بعد إيضاحه[١١] . يبسطه المولدون ويحللون معناه فى مثلهم القائل : (كالمختنقة على آخر طَحِينها)[١٢] . والقديم يقول : (جَدُّك لا كَدُّك) ، والمولد يقول : (إذا لم يساعد الجَدُّ فالحركة خِذْلان)[١٣] .

وكان من أثر التحليل ظهور (الأمثال الحوارية) ، وهى تتألف من محاورة أو سؤال وجواب . فمن ذلك ما ورد فى الأمثال المرقومة أول هذا الباب (٣٦ — ٤١). غير أننا رأينا الميدانى يورد الأمثال الأربعة الأولى منها فى الأمثال القديمة ، ونحن نفترض أن أكثرها مولد اعتمادا على أن هـذا الأسلوب جديد على المثل العربى ، فهو حوار مجرد سريع ، لا هو عبارة موجزة على النحو الذى ألفه العرب ، ولا هو خرافة حوارية من تلك التى عرفنا فى المثل الشرقى والحجازى القديم . أضف إلى ذلك أن هذا الأسلوب قد ظهر فى المثل المنسوب إلى لقمان المولَّد ولم يكن من أمثاله الجاهلية ولا القرآنية (٤١ ، ٤٢) . والميدانى نفسه يذكر بعض أمثال حوارية مشابهة فى باب المولد (٤٠) . وإذا كان لنا أن نفسِّر إدراجه تلك الأمثال الأربعة فى المثل القديم ، فذلك أنها ولِّدت فى عصر سابق على عصره ، فظَنَّها قديمة ، وقد عاش الميدانى إلى الربع الأول من القرن السادس الهجرى + ٥١٨ . والذين سبقوا الميدانى من جامعى الأمثال ، كابن سلاّم وأبى هلال العسكرى ، كثيرا ما أوردوا أمثالا ، ونصوا على أنها مولَّدة أو من أمثال العامّة[١٤] . ثم نَقَلها الميدانى فى جملة أمثاله القديمة دون أن يشير إلى أنها مولدة أو من أمثال العوام[١٥] .

ولعل من أسباب نشوء الأمثال الحوارية هو اتجاه المثل المولد — بصفة عامة — إلى « المثل القصصى » ، وساعد على ذلك الميلُ إلى التحليل والبسط .

---

(١١) ض ٨٢ . (١٢) ميداني ٢/١٠٦

(١٣) عسكرى ١/٢٠٥ .

(١٤) من يمدح العروس إلا أهلها (عسكرى ١/٢٣٣) — دون ذا وينفق الحمار (أمثاله ابن سلام ورقة ١٦ ، عسكرى ١/٢٩٦ — ٧) — عبد غيرك حر مثلك (نفسه ١/٣٣٠) — أم الجبان لا تفرح ولا تغتم (نفسه ١/٣١٧) .

(١٥) ميدانى ٢/٢٦٧ ، ١/٢٧٥ ، ١/٤٦٦ ، ١/٦٥ على الترتيب (١٣٥٢) .

و إذا كانت الأمثال الشعبية والكتابية قد اختفت من المثل المولّد أو ندرت فيه ، فإن هذا المثَل قد نَهَل فى أثناء نموه فى خلال العصور ، بين شعوب شتى ، من موارد شعبية و كتابية معا ، فوصل إلينا مزيجا من عناصر مختلفة ، تبدو فيه الصنعة حينا ، والإرسال على السجية حينا آخر ، وترنّ فيه النغمة التأديبية تارة ، وتطغى عليه النزعة الفنية تارة أخرى . أخذ بعضه من المنهل الكتابى تحليل العبارة ، والاستغناء عن القصة الشارحة ، وترك المعاظلة والإغراب فى اللفظ ، وتقسيم العبارة وتسجيعها (انظر الأمثال المرقومة ٢ ، ١٢ ، ١٨ ، ٤٨ — ٥٠) ، وتوازن العبارات (١٨ ، ٢٣ ، ٤٣ — ٤٧ ، ٤٨ — ٥٢) ، وأشطاراً من الشعر (٥٨ — ٦١) ، والنغمة التأديبية (١٦ ، ٥٣ ، ٥٤) .

وأخذ بعضه الآخر من المنهل الشعبى العبارة البسيطة المرسلة (٣ — ١١ ، ١٣ — ١٦) ، والنزعة الفنية التى ترمى إلى الوصف والتصوير أولا وقبل كل شىء (٦ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) ، وإلى الإلغاز واللعب باللفظ (٨ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٥) .

٢ — المثل المولد : منابعه

السؤال الثانى — من أين جاء المثل المولد ؟ وليس من اليسير أن نحدد جهة معينة صدر عنها . فقد التقت فى العالم الإسلامى أجناسٌ مختلفة وثقافات متعددة . أضف إلى ذلك أن من المتعذر فى كثير من الأحيان أن نعرف أصل مثل شعبى يعبر عن تجربة إنسانية عامة ، وليس فيه طابع إقليمى مميز . وهذا وشبهه عرضة للرحلة والتنقل من بلد إلى آخر .

على أن هناك أمثالا مولدة محلية كالتى تشير إلى حادثة أو جماعة أو شخصية إسلامية (١ — ٩) ، أو نقلت من شعر عربى (٥٨ — ٦١) . فهذه — مع التحفظ — يمكن أن نردَّها إلى منابع أو بيئات إسلامية . ولكن إذا تأمَّلنا سائر الأمثال المولدة الواردة فى الميدانى (على سبيل المثال ، أنظر أول هذا الباب من ٩ — ٥٥) ، فقد يدهشنا أن نعلم أن ما يشير منها إلى مادة إسلامية أو عربية فهو قليل ، وأن الكثرة الغالبة تتناول تجارب إنسانيةً عامة ، أو تشير إلى أشياء أو جماعات معروفة فى بلاد الشرق جميعا فى القديم والحديث . فإذا استثنينا هذا القليل الذى خلقته مناسبات طارئة فى حياة الشعوب الإسلامية ، فإن تلك الكثرة الغالبة من الأمثال لا يمكن أن تكون كلها مستحدثة فى الإسلام ، و إنما وصفت بأنها مولَّدة لأنها ظهرت فى تلك العصور ، لا لأنها اخترعت فيها . فالأقرب أن تكون الشعوب قد تمثَّلت بها منذ عصور عريقة فى القدم ، ثم حملتها معها حين استعربت أو — على الأقل — قَاسَتْها على أمثال قديمة عندها . والمثل المولد يحمل نصيبا غير قليل من تراث الشعوب ، وأمثال الشعوب فى أغلب الأحيان موروثة من عصور قديمة . فإذا شئنا أن نبحث من أين جاء المثل المولد ، فلا يكفى أن نوجه أنظارنا إلى العصور الإسلامية القديمة ، و إنما ينبغى أن نعود — كذلك — إلى تلك الشعوب القديمة التى وَرِثَها الإسلام من بَعْد ، ودقَّ أعلامَ نفوذه فى أرجائها الواسعة فى أفريقية وأوربة وآسيا . وهذا ما صنعه الباحث

غويطاين حين درس الأمثال العربية المحدثة (الدارجة) وقرنها بالمولدة ، ورأى أن يرجع فى بحثه إلى تراث الشرق القديم قبل الإسلام[١]. وإن مقارنةً بين المثل المولد، والمثل المحدث (الدارج) ، لتكشف لنا عن حقيقة ، وهى أن الصلة بينهما وثيقة قوية، فى كثير من الصيغ والمواد[٢]، وإن أمثالا بأعينها مشتركة بينهما (قارن المثل المولد ١٣ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ببعض أمثالنا المصرية المحدثة) ، إلى حد أنه يمكن أن يندرج النوعان فى مجموعة كبيرة لها خصائصها المشتركة ، فى مقابل مجموعة المثل العربى القديم .

وليس من اختصاص هذا البحث أن نعود إلى الشعوب القديمة غير السامية لنبحث عن آثارها المباشرة فى أمثال المولدين المستعربين . ولسنا ننكر — من حيث المبدأ — أن تكون هناك مخلفات غير ساميّة — إفريقية وآسيوية وأوروبية — قد تسربت بطريق مباشر وغير مباشر إلى المثل المولد . فإذا وقفنا عند بقايا الساميّة الإفريقية ، كالحبشية ، فلن نجد شيئا من الأمثال الحبشية التى نفترض أنها كانت متداولة بين الحبش فى لغتهم القديمة (جعز) ، فإذا نظرنا فى الحبشية الحديثة (الأمهرية) ، وهى تمت بصلة قرابة إلى اللغات السامية، وجدنا عدداً من أمثالهم قد نشره الباحثون[٣].

---

(١) غويطاين ١٧٧ .

(٢) فى الأمثال الحوارية عند المصريين المحدثين (قالوا أبو فصاده بيعجن القشطة برجليه قالوا كان بان عليه — يافرعون من فرعنك قال مالقيتش حد يردنى — قالوا ياجحا مراة أبوك بتحبك قال يمكن اتجننت — قال له نام لما أدبحك قال دا شىء يطير النوم) . قارن هذه بالأمثال المولدة المرقومة (٣٦ — ٤٢) — وفى أمثال التوازن والمفاضلة يقول المصريون (قيراط بخت ولا فدان شطارة ، قعاد الخزانة ولا جواز الندامة — حمارتك العرجا ولا سؤال اللئيم . كدب مساوى ولا صدق مبعزق) قارن هذه بالمولد (٤٣ - ٤٧) — وفى طريقة البدء بالتشبيه ثم اتباعه بالتفصيل والشرح يقول المصريون (زى الخروب قنطار خشب على درهم سكر . زى الطبل صوت عالى وجوف خالى . زى ساعى اليهود لايودى ولا يجيب خبر) قارن هذه بالمثل المولد (٤٨ — ٥٢) — وفى استعمال واو العطف القريبة من معنى الحال وفى المولد (طفيلى ومقترح) ، وفى المحدث (شحات وعينه غليضه) — كذلك يتشابه النوعان فى ألوان السجع والتجانس الصوتى وفى النزعات النفسية والخلقية الخ . (قارن هذا أيضا بالأمثال المراكشية الحديثة (وسترمارك ١ — ٣٣) .

(٣) أورد (بيتمان) فى قاموسه طائفة منها ، ونقل الدكتور مراد كامل عددا من الأمثال الأمهرية إلى العربية فى كتيبه (بلاد النجاشى — سلسلة اقرأ عدد ٨١) .

ويبدو لى ، وإن كان الأمر لا يزال فى حاجة إلى بحث أعمق ، أن هذه الأمثال الأمهرية لا تدل على ارتباط ظاهر بالمثل العربى المولد .

فإذا انتقلنا إلى آسيا ، رأينا أن حَمَلة التراث السامى فيها قبيل الإسلام كانوا هم الآراميون . زَحَفَتْ الآرامية من العراق إلى مناطق الشام ، وانتشرت فى آسيا الصغرى ببلاد العرب ، وزحفت إلى الشرق فاستولت على مناطق فى فارس وبلاد السغد والصين والهند[٤] . وكانت أداة للثقافة فى هذه المناطق إلى جانب لغات السكان المستوطنين . وأطلقت عليها أسماء مختلفة بسبب تعدُّد الأقاليم ، فقالوا : النبطية ، والتدمرية ، والآرامية الغربية ، وآرامية الكتاب المقدس ، والسريانية الخ . . . فكان لكل إقليم وكل دين لهجته الخاصة وطريقة كتابته الخاصة[٥] . ومن طريق اللهجات الآرامية ، دخل كثير من الثقافات غير السامية كاليونانية والرومية[٦] .

وصارت هذه اللهجات قبيل الإسلام ، هى كِنانةُ الشرق ، تحوى من آثار الديانات ومخلفات الأجناس الشىء الكثير . وأصبح التراث الآرامى مرادفا — أو يكاد — للتراث السامى الآسيوى . فإذا زعمنا أن الآرامية قد أسهمت بنصيب كبير — إن لم يكن أكبر نصيب — فى تكوين الأمثال المولدة العربية ، فلا نحسب أننا نذهب بعيداً . ويبدو أن الأستاذ غويطاين يرى هذا الرأى فيما يتعلق بالأمثال المحدثة والمولدة معا[٧] . وقد قارن بين عدد من الأمثال الآرامية وآخر من المحدثة[٨] . ولعل أوضح شاهد ، فى المثل المولد ، على التأثير السامىّ وغير السامىّ الذى تسرب إليه من طريق آرامى هو ما نسب إلى لقمان فى عصر التوليد .

لقمان المولد :

صورة جديدة عن لقمان لم تعرف من قبل . لعلها تكونت على أثر محاولة قام بها بعض أدباء المولدين للربط بين لقمان وشخصيات سابقة . فلقمان فى هذه المرة ،

---

(٤) JNES ٧٤ — ٧٦

(٥) غويطاين ١٧٤ .

(٦) برجشتراسر ١٤٧ .

(٧) غويطاين ١٧٧ .

(٨) نفسه ١٧٦ .

ليس بطلا أسطوريا كما كان فى الجاهلية ، وليس وزيرا ولا نبيا ولا قاضيا من قضاة بنى إسرائيل ، ولكنه الآن عبد حبشى[٩] كان لرجل من بنى إسرائيل ، فأعتقه وأعطاه مالا[١٠] ، أو نُوبىٌّ من أهل أيلة[١١] ، أو أسود نوبى من سودان مصر له مشافر[١٢] . أما حرفته فكان خياطا أو نجارا أو راعيا[١٣] . وكثير من هذه الروايات ينسب إلى سعيد بن المسيَّب المخزومى + ٩٣ وهو من التابعين .

فى هذا الدور تنسب إلى لقمان طائفة من الخرافات ، فيطلع الناس — لأول مرة فى الأدب العربى — على كتابٍ لأمثال لقمان يرجع تاريخ تدوينه إلى نهاية القرن السابع الهجرى ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م ، ظهرت منه نسخة خطية فى باريس ، وطبعت عدة مرات ، أقدمها طبعة ليدن ١٦١٥ م ، ولقيت عناية من الباحثين الغربيين منهم ديرنبورج ، رينيه باسيه ، وشوفان ، وبرنارد هلر[١٤] .

والكتاب فى صيغته ومادته غريب عن المثل العربى القديم ، ولم نجد أحدا من كتاب العرب السابقين قد أشار إلى شىء يتعلق بمضمون هذا الكتاب . ولاحظ «برنارد هلر» أن الحيوان الذى كان يستوطن بلاد العرب ويكثُر فيها ، كالنعامة والضبع والثعلب والجمل ، لا وجود له فى هذه الخرافات[١٥] . أضف إلى ذلك أن أسلوب القصص ملىء بالركاكة الأعجمية ، كثير الأخطاء النحوية والصرفية ، مما يدلنا على أنه منقول من لغة أجنبية[١٦] .

يرى بعض الباحثين أن هذه الخرافات المنسوبة إلى لقمان ، هى مجموعة من خرافات إيسوب نُقلت إلى العربية ، ويشك بعضهم فى شخصية إيسوب وفيما نسب

---

(٩) ثعلبى ٣٤٠ .
(١٠) معارف ٢٥ .
(١١) الروض ١/٢٦٦ .
(١٢) ثعلبى ٣٤٠ .
(١٣) نفسه ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .
(١٤) Derenbourg; Fables de Loqman le sage ,(Berlin 1850). , EI (Lukmàn).
(١٥) EI ٣/٣٦ .
(١٦) راجع أمثال لقمان المطبوع فى باريس سنة ١٨٤٧ .

إليه من خرافات . وبعضهم ينفى وجوده التاريخى ، ويعده صورة يونانية من الحكيم العربى لقمان[١٧] .

والواقع أن الغموض يحيط بشخصية إيسوب ، والمؤرخون اليونان أنفسهم لا يعرفون عنها شيئا كثيرا ، فهم يجهلون مكان مولده الحقيقى ، ولكن هناك بعض حقائق تتصل بمولد إيسوب وحياته وموته ، يعدها العلماء الآن من الأمور الثابتة . فمن المسلَّم به بما يقرب من الإجماع أنه ولد نحو سنة ٦٣٠ قبل الميلاد ، وأنه ولد عبداً مملوكاً ، وامتلكه سيدان من أهل ساموس (جزيرة إغريقية) هما كزانتاس ويادمون . وقد أعتقه ثانيهما مكافأة له على علمه وذكائه[١٨] . ومن المقرر أن إيسوب لم يدون خرافاته وإنما أشيرَ إليها بعد عصره[١٩] ، وأن القسم الأكبر مما وصل إلينا منها منسوبا إليه ، ليس من عمل إيسوب الأصلى ، وكثير منها ينسب إلى كُتَّاب عاشوا قبل عصره ، من ذلك خرافة (الصقر والبلبل) ، فقد رواها هزيود ، (والنسر الذى أصيب بسهم مريش من ريشه نفسه) وهى لإسخيلوس . وكثير منها كذلك يعزى إلى عصر متأخر عن عصره وينمى إلى رهبان العصور الوسطى[٢٠] .

ولسنا نميل إلى نفى وجود هذه الشخصية ، ولا إلى إنكار نسبة الخرافات إليه جملةَ وتفصيلا ، وإنما نقرر أن كثيراً منها قد انتحل على إيسوب انتحالا . ومن المنحول إليه بعض ما انتقل إلى اليونان من الشرق قبل عصر إيسوب وبعده. ويبدو أن الأدب السنسكريتى قد أسهم بنصيب فيها[٢١] .

وفى خرافات إيسوب نصيب كذلك من قصة أحيقار . فقد عرف ثيوفراست (حوالى ٣٠٠ ق م) أحيقار ، وجعل اسمه عنوان كتاب له (Αχίκαρος) ،

---

(١٧) رندل Ixxv ، Edwin Noble ; Aesop's Fables edited by Captain Edric Vredenburg, printed in G. B., p. 3.

(١٨) خرافات إيسوب ٣٠ .

(١٩) نفسه ١٨ ، EBr ١٠/١١٤ .

(٢٠) خرافات ايسوب ١٧ — ١٨ ، ٢٥ .

(٢١) EBr ١٠/١١٤ ب ، JE ١/٢٢١ ا (لندن ١٩٠٦) .

وأشار إليه استرابو (٦ ق . م) ، وشاعت أقوال من قصة أحيقار بين كُتّاب اليونان ، ونسبت طائفة منها إلى الفيلسوف ديموقريطوس[٢١] (ولد حوالى ٤٧٠ — ٤٦٠ق م). وفى حوالى ١٣٠٠ ميلادية جمع مكسيموس بلانودس وهو راهب عالم من القسطنطينية ، مجموعة من نحو مئة وخمسين من خرافات إيسوب ، وقد اتهم بلانودس بأنه اخترع هو نفسه الخرافات ونحلها إيسوب[٢٢] . ومما لاحظه الباحثون أن بلانودس فى كتاب حياة إيسوب Vita Aesopi قد ألبس إيسوب شخصية أحيقار ونسب إليه قصته وكانت قصة أحيقار معروفة لدى اليونان كما قلنا . واختلق بلانودس شخصية جديدة لتكون ابن أخت إيسوب وسماها إنو Enno ، ووصفه بالخيانة كما كان نادان ابن أخت أحيقار ؛ وجعل الملك الأشورى ملكا إغريقيا وسماه ليكوروس . وفيما عدا هذه الأسماء المتغيرة نجد الحوادث والأقوال متماثلة فى القصتين[٢٣] .

فإذا عدنا إلى الروايات العربية التى وصفت لقمان المولد ، وتأملنا فى أمثاله التى انتهت إلينا فى خاتمة العصر الوسيط ، فان القرائن تدل على أن هذه الأمثال الخرافيـة ، وإن نسبت إلى إيسوب ، لم ترد إلينا من طريق اليونان ، ولكن من طريق الآراميين .

لقمان المولد هو صورة محرفة من إيسوب ، والنعوت التى وصف بها لقمان فى هذا الدور ، هى مما نسب الى إيسوب من قبل ، غير أنها مزجت فى الرواية العربية بعناصر يهودية آرامية . قال العَرَب : لقمان عبد حبشى . ووصف اليونان إيسوب بهذه الصفة نفسها ، بل جعل بلانودس لفظ (إيسوب Αἴσωπος) مشتقا من إثيوبيا[٢٤] . وقال العرب: لقمان عبد حبشى كان لرجل من بنى اسرائيل فأعتقه . وقال اليونان : ايسوب عبد كان لرجلين من أهل ساموس فأعتقه أحدهما مكافأة له . أما عن موطنه ونسبه فقال العرب: إنه من أهل أيلة ، وأيلة هذه كانت قديما من المدن الآرامية ، وهى تقع

---

(٢١) لودز ٦٠٦ .
(٢٢) خرفات ايسوب ١٩ ، ٢٠ ، لودز ٦٠٦ .
(٢٣) لودز ٦٠٦ .
(٢٤) رندل lxxv .

على رأس خليج العقبة . وقالوا :هو لقمان بن عنقا ، وربما كانت (عنقا) لفظا آراميا ينتهى بألف التعريف ، كما هو الحال فى الأسماء الآرامية .

ثم ننظر فى أمثال لقمان ، وهى إحدى وأربعون خرافة معظمها حيوانى ، فنجد منها خرافة لا نظير لها فى إيسوب ، وهى الخرافة الثانية والعشرون ، « خرافة العوسجة والبستانى» وفيها تتضرع العوسجة إليه أن يعنى بها حتى ينعم الملوك بأزهارها وثمارها ، فكان يرويها مرتين كل يوم حتى فرشت ظلالها على البستان كله ، ولعل هذه الخرافة صدى لخرافة يوثام الواردة فى سفر القضاة — الاصحاح التاسع [٢٥] . ومعظم الأمثال الواردة فى الكتاب له نظائر فى خرافات إيسوب المنقولة إلى السريانية[٢٦] . أضف إلى ذلك أن إيسوب كان معروفا بين أحبار اليهود منذ القرن الأول الميلادى . وكانت خرافاته تتدارس فى حلقات الدرس[٢٧] .

وصفوة القول ، نستطيع أن نرجح أن أمثال لقمان قد وصلت إلى أيدى العرب من طريق آرامى .

و بعد :

فقد اتضح لنا الآن أن الآرامية كانت ذات آثار فى تاريخ المثل العربى ، فقد التقت به فى ثلاثة ميادين :

الأول : ميدان المثل الشعبى القديم ،حيث كان نفوذها منحصرا فى جمعه و تدوينه ، وفيما أمدت به من معان وأفكار .

الثانى : ميدان المثل الكتابى ، حيث استطاعت الآرامية أن تدخل من باب أوسع ، فتؤثر فى الصيغة والمادة معا ، وتضيف إلى الحكمة العربية تراثا مشتركا .

الثالث : ميدان المثل المولد حيث تدفق التيار الآرامى بمظهريه : الشعبى والكتابى معا . فكان من أهم الدوافع التى أحدثت تغييرا شاملا لأساليب التفكير والتعبير جميعا ،

---

(٢٥) EI ٣/٣٦ .
(٢٦) نفس المرجع السابق .
(٢٧) JE ١/١٢٢١ ، ٥/١٣٢٤ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الملحق الأول

تحقيق مخطوطة فى الأمثال منسوبة إلى أبى على القالى

توجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٧٤٤٢ وعنوانها : (الأمثال لأبى على القالى) . وهى ناقصة فى عدة مواضع ، ومكتوبة بالخط المغربى . وهى فى الأمثال التى على وزن أفعل . ويقول مؤلفها فى مقدمته : (هذا كتاب أودعته فنا من الأمثال السائرة عن العرب ، وهو أكثر ما يجيء منها على ألسنة الفصحاء ويختلط بخطاب البلغاء ، ويدخل فى نوادر الأدباء وبدائع الشعراء . وهو ما جاء من الأمثال على قولهم « هو أفعل من كذا » . وقد سبق إلى هذا التأليف جماعة من علماء اللغة. فللأصمعى فى ذلك كتاب خفيف الحجم مقدار عشر ورقات . وللّحيانى أيضا كتاب (أيضا) يقرب من كتاب الأصمعى . وفى آخر كتاب أبى عبيد باب ضمنه بعض ما فى كتاب الأصمعى واللحيانى . وتعقب هؤلاء محمد بن حبيب البصرى ، وألف فى ذلك كتابا نقل إليه ما فى كتاب الأصول وزاد عليهم زيادة كبيرة . إلا أن جل[1] ما أودع كتابه من هذه الأمثال يبلغ عددها ثلاثمائة وتسعين مثلا . وقد أودعت ذلك كله هذا الكتاب ، وزدت عليه زيادة بلغت بعدد الأمثال ألفين ومائتى مثل، سوى أمثال مولدة مزدوجة جمعتها فى الباب التاسع والعشرين يبلغ عددها أربعمائة مثل ، فتبلغ أمثال هذا الكتاب بها ألفين وستمائة مثل وكسرا . وألفته على نظام حروف المعجم ليسهل تناول ما يراد منه على ملتمسه . وختمت الكتاب بنوادر من الكلام لم يصنف فى مثلها كتاب) أ هـ .

ولا تشير كتب الطبقات والتراجم والأدب التى وقعت فى يدى على كتاب للقالى بهذا العنوان . ومن المعروف أن حمزة الأصفهانى + ٣٥٠ — ٣٦٠ هـ قد ألف كتابا

---

(١) لعلها (جل) .

فى الأمثال على أفعل ، ومنه نسخة خطّية فى ميونيخ[٢] . وقد استغله جامعو الأمثال الذين جاءوا بعده ، فنقل عنه أبو هلال العسكرى + ٣٩٥ فى جمهرة الأمثال . ثم نقله الميدانى — كما يقول الميدانى نفسه فى مقدمته — ولكنه أسقط ما أورد حمزة من خرزات الرقى وخرافات الأعراب . ونشر متفوخ فى سنة ١٩١٣ جزءا من مخطوطة حمزة ، وهو الملحق الذى وضعه حمزة فى آخر كتابه ويتضمن ثلاثين خرافة من خرافات الأعراب . وإذا قارنا بين المخطوطة التى بين أيدينا ، والتى نسبت إلى أبى على القالى ، وبين ما أورده الميدانى ومتفوخ من كتاب حمزة ، قطعنا بأن النسخة المنسوبة إلى القالى ليست إلا كتاب حمزة الأصفهانى . فإن هذه النسخة تذكر بعد الباب الثلاثين ما يتفق بالنص مع ما نقله متفوخ من مخطوطة حمزة المحفوظة فى ميونيخ . كذلك تماثل النصوص التى رواها الميدانى عن حمزة ، وما يقابلها فى النسخة التى بين أيدينا (قارن — على سبيل المثال — بين ميدانى ١ / ١١٩ . قال حمزة « وحدثنى أبو بكر بن دريد قال حدثنى أبو حاتم عن أبى عبيدة . . . . . » وبين ماورد فى المخطوطة من الورقة (٦) ا — وقارن بين ميدانى ١ / ٢٦٩ (قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهائم بضروب من المراعى) وبين المخطوطة ورقة ١٤ ا — وقارن بين ميدانى ١ / ٣٢٨ (قال حمزة فى تفسيره . . . .) وبين المخطوطة ورقة ١٧ ب — وقارن بين ميدانى ١ / ٣٣٨ — ٩ (قال حمزة : ونوادر إياس كثيرة قد كتب المدائنى عليها كتابا) وبين المخطوطة ورقة ١٨ ب — وقارن بين ميدانى ١ / ٣٦٦ (وقال حمزة : هى الذئبة ولم يزد على هذا) وبين المخطوطة ورقة ٢١ ب .

ويبدو أن النساخ تلقوا هذه النسخة الناقصة دون اسم مؤلفها فوجدوه يروى عن أبى بكر بن دريد فخطر لهم أن المؤلف هو القالى لأنه اشتهر فى كتابه الأمالى بالرواية عن ابن دريد .

---

(٢) بروكلمان فى مادة مثل (EI) ولم أتمكن من الحصول على صورة من هذه المخطوطة . وأخبرنى الدكتور خليل نامى عن نسخة أخرى فى دار الكتب فى مكتبة قوله (فهرست مكتبة قوله وهو ٤ مجلدات) .

الملحق الثانى

(تحقيق رسالة منسوبة إلى أبى عبيد القاسم بن سلام)

وهناك رسالة منسوبة إلى أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ = ٨٣٧ – ٨٣٨ م نشرت فى كتاب «التحفة البهية والطرفة الشهية» وهو مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ ، ويشتمل على سبع عشرة رسالة من بينها تلك الرسالة (من صفحة ٢ إلى صفحة ١٦) ، وهى تحتوى ما يقرب من ٨٢٠ مثلا مرتبة حسب حروف المعجم ، وتتوالى فيها عبارات الأمثال دون شرح أو تعليق .

ونكاد نجزم بأن نسبة هذه الرسالة إلى أبى عبيد غير صحيحة . فإن لأبى عبيد القاسم ابن سلام كتابا فى الأمثال يختلف تماما فى مادته وترتيبه . ولم تذكر الكتب القديمة إلا كتابا واحدا فى الأمثال ألفه أبو عبيد . ذكره كُتّاب الطبقات : كابن النديم (الفهرست — ليبسك ص ٧١) وياقوت (١٦/٢٦٠) والسيوطى (بغية ٣٧٦) . وهؤلاء جميعا يسمونه كتاب (الأمثال السائرة) . ووصفه القلقشندى (صبح الأعشى ط دار الكتب ١٩٢٢ ، ١/٢٩٨) بأنه (مرتب على ترتيب الوقائع التى تقع فيها الأمثال) . وأشار القفطى فى إنباه الرواه (ط دار الكتب ١/٢٩ الترجمة رقم ٨) إلى أن كتاب أبى عبيد جامع على الأبواب .

ووصل إلينا شرح كتاب أبى عبيد القاسم لأبى عبيد البكرى ، ومنه نسخة خطية موجودة فى مكتبة لا لهلى رقم ١٧٩٥ بالآستانة ، وعنوانها (فصل المقال فى شرح كتاب الأمثل لأبى عبيد البكرى) . وهو مرتب على عشرين بابا (الباب الأول فى حفظ اللسان ويتفرع منه أبواب فى معناه . الباب الثانى فى معايب المنطق ويتفرع منه أبواب فى معناه . الباب الثالث فى جماع أحوال الرجال واختلاف نعوتهم وأحوالهم ويتفرع منه أبواب فى معناه . الباب الرابع فى تعاطف ذوى الأرحام وتحنن بعضهم على بعض ويتفرع منه أبواب الخ . . .) (الورقة ٢ ا من شرح البكرى) .

بل وصل إلينا كتاب الأمثال الذى عرفه القدماء لأبى عبيد ، وله نسخ مصورة لا تزال تنتظر من ينشرها . منها نسخة مصورة من اليمن وهى مكتوبة فى القرن الخامس ، وأخرى أحدث منها بقليل ، مصورة من مكتبة فيض الله أفندى بالآستانة رقم ١٥٧٨ .

وفيما يلى نورد جزءا من مقدمة الكتاب نقلا عن هذه النسخة الأخيرة : « هذا كتاب الأمثال ،وهى حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ و إصابة المعنى وحسن التشبيه . وقد ألفناها فى كتابنا هذا على منازلها ،ولخصنا صنوفها ،وذكرنا المواضع التى يتكلم بها فيها ، وتضرب عندها وأسندناها إلى علمائها ، واستشهدنا بنوادر الشعر عليها أو على ما أمكن منها . وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثّنا عليه ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد ضربها وتمثل بها هو ومن بعده من السلف . وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبنا) .

الملحق الثالث

نعرض فيما يلى طائفة من الأمثال العربية ومعها نظائرها فى الآرامية :

١ — إنك لا تجنى من الشوك العنب (ميدانى ١/٣٤ (١٣١٠)) ينسب إلى أكثم بن صيفى . نظيره فى إنجيل متى ٧ : ١٦ (من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا) .

٢ — يأكل الفيل ويغتصُّ بالبقَّة (ميدانى ٢/٣٩٥ « ١٣٥٢ ») يضرب لمن يتحرج كذبا . نظيره فى متى ٢٣ : ٢٤ (أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل) .

٣ — يا طبيب طبَّ لنفسك (ميدانى ٢/٣٧٥ « ١٣٥٢ ») يضرب لمن يدعى علما لا يحسنه . نظيره فى لوقا ٤ : ٢٣ (تقولون لى هذا المثل : أيها الطبيب اشف نفسك) .

٤ — كما تدين تدان (ميدانى ٢/٦٧ « ١٣١٠ ») . نظيره فى متى ٧ : ٢ (لا تدينوا لكى لا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون) .

٥ — كما تزرع تحصد (ميدانى ٢/٧٣ « ١٣١٠ ») نظيره فى غلاطيه ٦ : ٧ (فإن الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضا) .

٦ — كيف تبصر القذى فى عين أخيك ، وتدع الجذع المعترض فى عينك (ميدانى ٢/٦٧ « ١٣١٠ ») نظيره فى متى ٧ : ٣ (ولماذا تنظر القذى فى عين أخيك. وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها) .

٧ — لا تبل فى قَلِيبٍ قد شربتَ منه (ميدانى ٢/١٦٣ « ١٣٥٢ ») القليب البئر . يضرب لمن يسىء القول فيمن أحسن إليه. نظيره فى الآرامية (غويطاين ١٧٦)

(لا تلق طينة فى قليب تشرب منه) . وفى العبرية (نفس المرجع السابق) (لا تلق حجرا فى قليب تشرب منه) . وله نظائر فى اللهجات الدارجة (يَمنِيكا ٤٥ — ٤٦) .

٨ — سبِّح ليسرق (ميدانى ١/٣٥١ « ١٣٥٢ »*) يضرب لمن يرائى فى عمله . نظيره فى الآرامية اليهودية (اللص يدعو الله وهو يكسر البيت) (غويطاين ١٧٦) .

٩ — سَمِن فأَرِنَ (ميدانى ١/٣٥١) نظيره فى سفر التثنية ٣٢ : ١٥ (سمنت وغلظت واكتسيت شحما) .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كشاف الموضوعات

التي لا تحمل عناوين رئيسية في أبواب الكتاب وفصوله (ش = هامش)

الآرامية والآراميون : ٦، ٢٤، ٢٦، ٢٨ — ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٥١، ٦٣، ٧٦، ٧٧ — ٧٨، ٨٤، ٨٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٨، ١٥٥، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٥
الآشورية : انظر (البابلية)
أبو كريفا : ١٢٨، ١٤٠، ١٥٦
أحجية . انظر (لغز)
إسرائيليات : ٢٩ ، ٨٢ — ٨٣
أسفار العهد القديم : ٢، ٣ ، ٦، ٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٦٢، ٦٧، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٩ — ٩٠، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٨، ١١٢ — ١١٣، ١٢٢، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧ — ١٤٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٥، ١٩٦
الإسلام والمسلمون : ١٢، ٢٤، ٢٦ ش ، ٢٩، ٣٦، ٣٧ ، ٤٦، ٦٥، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٧، ١٢٤، ١٢٦، ١٨٤
أسلوب الحوار : ٣٣ ، ٨١ — ٨٤ ، ١٠٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ش
الأمهرية : انظر (الحبشية)
إنجيل : ٧ ، ٦٢، ١٢٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦٣ ، ١٩٥ — ١٩٦
البابلية والبابليون : ٢، ٥، ٦، ١١، ١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٣٣، ٤٦، ٧٦، ١٠٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٥، ١٥١
التدمرية وتدمر : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٨٦
ترجوم : ٢٩
التشبيه والتمثيل : انظر (مجاز)
تفسير القرآن : ٣ ، ٥ ش ، ٤٤
تلمود : ١٤ ، ١٥٦
توراه : انظر (أسفار العهد القديم)
الحبشية والأحباش : ٤ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٤٧، ٦٦، ٨٩ — ٩٠، ١٠٣، ١٢٩، ١٥٥ ، ١٨٥ — ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩
الحديث النبوى : ٤ ، ٦ ، ٧
الحكم والمثل : ٢ — ٣ ، ٤ ، ١٩ — ٢٢
الحكمة والحكم : ٣ — ٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ — ١٤٦
الحكمة والدين : ٢٠ — ٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٣
الحكمة والكتاب : ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢، ١٢٦، ١٣٢ ، ١٣٣ — ١٣٤
الحكمة والمثل : ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٤
الحكمة والمجاز : ١٧ ، ١٨
الحنيفية : ١٣٠ ، ١٣٣
الحيوان فى المثل : ٥٥ — ٥٨، ٧٧ — ٨١ ، ٨٢ — ٨٤، ٩١، ٩٥ — ٩٦، ١٦٥، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٧
الخرافة : ٨ ، ١٢ — ١٣، ٢٣، ٣٦، ٤٢ — ٤٣ ، ٧٦ — ٨٤، ٩٩ — ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩، ١٦٥، ١٦٩ — ١٧٢، ١٨٧، ١٩٠
رواية الأمثال ورواتها : ٤٩، ٥٣ — ٥٤، ٥٩، ٧٤ — ٧٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩
السبئية والسبئيون : ٤٧ ، ٤٨ ، ١٠٥

السحر والشعر : ٥ ، ١٨ ، ٢٠
السحر والمثل : ٢١ — ٢٢
السريانية والسريان : ٦ ، ١٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٦٦ — ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٠
السمر : ١١٦ — ١١٨
أسواق العرب : ٢٦ — ٢٨
الشعر العربى : ٣١ ، ١٥٣
الشعر والمثل : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ — ١٦ ، ٢١ — ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥٠ — ١٥٣ ، ١٨٣
العبريةوالعبرانيون : انظر(أسفار العهدالقديم)
العرب : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤
العربية (اللغة) : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٨ ، ٥٧ ، ٥٩ — ٦٠ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٠ — ١٠٧ ، ١٢٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ — ١٨٣ ، ١٨٥ ش
الفارسية والفرس : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٨
الفكاهة فى المثل : ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ١١٦ — ١٢٤ ، ١٧٠ — ١٧٢
الفهلوية : أنظر (الفارسية)
القرآن الكريم : ٣ — ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ — ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨ — ١٦٥
قصص الأمثال ٣٦ — ٥١ ، ٥٢ — ٥٤ ، ٧٧ — ٨٤ ، ١٥٨ — ١٦٣ ، ١٦٩ — ١٧٢
القياس فى المثل : ٨٧ ، ١٦٤ ، ١٧٧
الكتابة : ١٥٧
كتب الأمثال : ٣١ — ٣٥ ، ٣٦ — ٤٠ ، ٥٢ — ٥٦ ، ٧٧ ، ١٦٤ ، ١٩١ — ١٩٤
الكلدانيون . أنظر (البابلية والبابليون)
الكهانة والمثل : ١٠
اللغز : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٨ — ٦٢ ، ٧٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ — ١٥٥ — ١٥٦ ، ١٧٩
المجاز والمثل : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ — ١٩ ، ٥٠ ، ١١٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨٠
المحاورة فى المثل . أنظر (أسلوب الحوار)
المدارس الكوفية-للرواية : انظر (كوفه) فى كشاف الأعلام
المسيحية : ١٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨١ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٧ ، ١٦٥
مغزى المثل : ٨٧
الموشليم : ١٣ ، ٥٤
النبطية والنبط : ٢٩ ، ٣٨ ، ١٧٨ ، ١٨٦
النبوءة والمثل : ١٠ ، ١٨ ، ٢٣
النصرانية : انظر (المسيحية)
اليمنية واليمن : ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٧٤ ، ٨١ — ٨٢ ، ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
اليهودية واليهود : ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٦
اليونانيةواليونان : ٨ — ٩ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٢ — ٤٣ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كشاف الأعلام

أسماء الناس والقبائل والأماكن

(ش = هامش ، ق = قبيلة ، م = مكان)

(أ)

آدم : ٣٣
آزر (أبو إبراهيم عليه السلام) : ٤٤
ابن الأثير (صاحب المثل السائر) : ٦١ ، ٧٠
ابن الأعرابي : ٣٥ ، ٦٧
ابن دريد (أبو بكر) : ٦٠ ، ١٩٢
ابن سلمة : انظر (المفضل بن سلمة)
ابن سيراخ : ١٣١
ابن قتيبة : ٤٤ ، ١٣٩
ابن قيم الجوزية : ١٦١ ، ١٦٤
ابن الكلبي (هشام) : ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٧٥
ابن المقفع (عبد الله) : ٨٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ — ١٧٢
ابن النديم (إسحاق) : ٣٢ ، ١٩٣
أبو بكر الصديق (رض) : ٦٨
أبو جهل : ٧٠
أبو حنيفة : ١٦٤
أبو زيد الأنصاري : ٣٧
أبو سفيان : ٦٩
أبو طالب : ١٣٠ ، ١٣١
أبو عبيد القاسم بن سلام : ٩ ، ١٣ ش ، ٥٦ ، ٨٦ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٣ — ١٩٤
أبو عبيدة معمر بن المثنى : ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٥
أبو غبشان : ٨٩ ، ٩٣ — ٩٤
أبو هلال : انظر (عسكرى)
أجريت (م) : ٢٠ ، ١٣١ ، ١٥١
أجور بن ياقه : ١٢٨
أحنف بن قيس : ٩١
أحيحة بن الجلاح : ٦٩
أحيقار : ١١ ، ٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٨٨ — ١٨٩
إدريس : ٣٣
أدوم (م) : ١٢٨ ، ١٣٤
أذينة : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
أرستوفان : ٧٨
أرسطو : ٩ ، ١٢ ش
أزد (ق) : ٥٩ — ٦٠
استرابو : ١٨٩
أسد (ق) : ٥٢
إسرائيل (ق) : ٦ ، ٢٠ — ٢٩ ، ٨٣ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩
إسكندرية (م) : ٨١
أسيد بن أوس : ١٤٥
أشعب بن جبير : ٧٢ ، ٩١ ، ١٢٤ ، ١٤٧
الأصمعي : ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩١ ، ١٩١

أكثم بن صيفي : ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٩٥
ألقاه (معبود يمنى قديم) : ٤٧
امرؤ القيس : ٥٢ ، ٦٢ ، ٧٥
أمينموف : ١٢٧ ، ١٥١
أمية (ق) : ٥٤ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ١٢٩ ، ١٧٩ ، ١٨١
أمية بن أبى الصلت : ٣١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١
أمية بن عوف الكنانى : ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤
الأنبار (م) : ٢٩
أوريجين : ٨١
إيثان الأزراحى : ١٢٨
إيسوب : ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٧ — ١٩٠
أيوب (عليه السلام) : ١٣٩ ، ١٤٠

(ب)

باعور بن ناحور : ٤٤ ، ١٤٠ ، ١٤١
باهلة (ق) : ٥٢
بتاح — حتب : ١٤٤
البحرين (م) : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٢
براقش : ٤٧
برجشتراسر : ٦٦ ش
برزويه : ١٦٨
برنارد هلر : ٤٤ ، ١٤١ ، ١٨٧
بصرى : ٢٧ ، ٣١ ، ٦٣
البصرة : ٣٢ ، ٥٩ ، ٩١ ، ١٨٠
بغداد : ٥٩ ، ٧٢
بفايفر : ٩٨ ، ١٥٣
بكر (ق) : ٥٢ ، ٦١
البكرى (أبو عبيد) : ٣٠ ش ، ١٩٣
بلانودس (مكسيموس) : ١٨٩
بلعام : ١٤٠ — ١٤١
بنتسن : ٩
بندقة (ق) : ٧٤
بود (قس) : ١٦٦
بوذا : ١١ ، ١٦٥
بولس الفارسى : ١٦٨
البيرونى (أبو الريحان) : ١٦٨
البيزنطيون : ٣١

(ت)

تدمر (م) : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١
ترك (ق) : ١٥٧
تميم (ق) : ٥٢ ، ٥٦ ، ٦١
تميم الدارى : ٨٢
التهانوى : ١٦

(ث)

الثعالبى : ١٠٥ ، ١٥٢
الثعلبى : ٤٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
ثيوفراست : ١٨٨

(ج)

الجاحظ : ٤ ش ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٧ ، ١٥٤
جاسترو : ٣ ش
جبل النسور (م) : ٤٦
جحا : ٨٩

جديس : ٤٦
جذيمة : ٤٠ ، ٤١
جزيرة العرب (م) : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠
الجعدى (النابغة) : ٨٨
جفكن : ١٨
جواد على : ٤٠ ش
جورجى زيدان : ٣١
الجوف (م) : ٤٦
جيمس هاول : ٨٥ ، ٩٧

(ح)

حبيبة بنت سهل : ١٣٢
الحجاج بن يوسف : ٥٨ ، ٦٦ ، ١٧٩
الحجاز (م) : ٣٠ ، ٣١ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠
حدا (ق) : ٧٤
حريث بن حسان الشيبانى : ٦٩
حسان بن ثابت : ٨٨
الحسن البصرى : ١٥٢
حضرموت (م) : ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٦
حضير الكتائب : ٢١
أحقاف (م) ، ٤٦ ، ٤٩
حمار (ق) : ٧٥ ، ٩١ — ٩٢
حمزة الأصفهانى : ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٩١ — ١٩٢
حمورابى : ٦ ، ٤٦
حمير : انظر (اليمنية)
حنيفة (ق) : ٤٦ ، ٥٢
حوران (م) : ٢٧
الحيرة : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٩ — ٣٠ — ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ١٢٤ ، ١٢٩

(خ)

خثعم (ق) : ٧٥
الخضر (عليه السلام) : ٤٥
الخليل بن أحمد : ٦٠ ، ٧٦
خيبر (م) : ٢٩ ، ٨٨

(د)

داحس : ٩٠ ، ١٧٨
داود (عليه السلام) ١٤٠ ، ١٤٣
دبا (م) : ٢٦ — ٢٧
دختنوس بنت لقيط : ٩١
دريد بن الصمة : ١٤٦
دغة : ٨٩ ، ٩٠
دومة الجندل : ٢٦ ، ٢٨
ديرنبورج : ١٨٧
الديلم (ق) : ٣٢
ديموستين : ٩٩
ديموقريطس : ١٨٩

(ذ)

ذو الخلصة (معبود قديم) : ٧٥
ذو المجاز (م) : ٢٧
ذو نواس : ٤٩
ذويد بن نهد : ١٤٥

(ر)

راس شمرا : أنظر (أجريت)
ربيعة (ق) : ٥٢
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٢،٨٣ ، ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٥٢
رندل هاريس : ١٣٩ ، ١٤٠
رؤبة : ٧٦
الروم : ٦٣ ، ٦٥
الرومان : ٣٨ ، ٤١
رينيه باسيه : ١٨٧

(ز)

الزباء (ابنة الزباء) : ٣٨ — ٤١ ، ٦٧
زباى (قائد خيالة تدمر) : ٣٩ ، ٤٠
الزجاج : ٤٤
زرقاء اليمامة : ٤٥
زنوبيا : أنظر (الزباء)
زهير بن جناب : ٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٣
زياد بن أبيه : ٧١ ، ٨٢

(س)

السجستانى(أبوحاتم) : ٣٢،٤٤ ، ٤٩ ، ١٤٦
سعيد بن العاص بن أمية : ٩٤
سعيد بن المسيب : ١٨٧
السغد (م) : ١٨٦
السكاسك (ق) : ٤٦
سكينة بنت الحسين : ٧٢
سلول (ق) : ٧٠
سليمان بن داود (عليهما السلام) : ٥ ش،١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤
سنخريب (ملك أشور) : ١٣٨
السهيلى : ٤٤ ، ٥١ ش ، ١٣٩
سورية : ٢٨ ، ٣٨ ، ٦٤
سويد بن الصامت : ٢١ ، ٥١ ، ١٣٧ ، ١٣٨
السيوطى (جلال الدين) : ٨٦،١٠٥،١٩٣

(ش)

الشام (م) : ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٣٢ ، ١٧٩
شاول بن قيس : ١٤
شايدر (هـ . هـ) : ١٨
الشحر (م) : ٤٦
شرقى بن القطامى : ٣٥ ، ٧٤ ، ٧٥
شمس (معبود قديم) : ٤٧
شوفان (كاتب فرنسى) : ١٨٧
شيشرون : ٩٩

(ص)

صاعد الأندلسى : ١٦٦
صحار (م) : ٢٧
صحار بن عياش : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤
صحر بنت لقمان : ٤٤ ، ٤٨ ، ١٣٠
صنعاء : ٣١ ، ٣٢ ، ٦٣
الصين : ١٨٦

(ض)

ضبة (ق) : ٣٥ ، ٥٣ ، ٥٨
الضبي (المفضل) : ٢٢، ٣٥، ٣٦، ٤٤ ، ٥٢ — ٥٦ ، ٦٧، ٧٤، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٤، ١٠٢، ١٠٤ ، ١٢٠
الضحاك بن قيس : ٧١

(ط)

طبرية (بحيرة) : ٤٧
طرفة بن العبد : ٥٢
طسم : ٤٦
طويس : ٩١
طيسفون : ٣٨

(ع)

عاد (عاديا) : ٤٤ : ٤٦ : ٤٨ : ٥٠
العاص بن وائل ١٣١
عامر بن الطفيل : ٧٠
عامر بن الظرب : ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤ ، ١٥٢
عبد الله بن جدعان : ٦٨
عبد القيس (ق) : ٣١ — ٣٢ ، ٥٢
عبد الله بن مصعب : ٧٢
عبد الله الحمار : ١٢٤
عبد المطلب بن هاشم : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢
عبد الملك بن مروان : ٧١
عبد يشوع : ١٦٦
عبيد بن شرية : ٢٩ ، ٣٢ — ٣٤ ، ٨١
عبيد الله بن زياد : ٨٨
عثتر (معبود قديم) : ٤٧
عثمان بن عفان : ٧٢ ، ٨٤
عجل بن لجيم : ٨٩
عدن أبين (م) : ٢٧
عدى بن زيد : ٤٠ ش
العراق : ٢٨، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٦٧، ٧٦ ، ٧٧، ١٣٢ ، ١٧٩
العسكرى (أبو هلال) : ١٨، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٨٤ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ، ١٩٢
عكاظ : ٢٧
على بن أبى طالب : ٦٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١٣١ ، ١٥٢
العمالقة (ق) : ٤٦
عمان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٥٩
عمر بن الخطاب : ٦٧
عمرو بن العاص : ٧١ ، ١٣١
عمرو بن عمرو : ٩١
عنقا بن سرور : ٤٤
عوانة الكلبي : ٣٥

(غ)

الغاضرى : ١٢٤
الغزى (بدر الدين) : ٧٠
الغساسنة : ٣٠ ، ٣١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ش، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
غطفان (ق) : ٥٢
غويطاين : ٩٧ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦

(ف)

الفارابى (أبو نصر) : ٩
الفرات : ٣١ ، ٤٠ ، ٥٢
الفراء : ١٠٥
الفضل بن العباس بن أبى لهب : ٧٢
فلسطين : ٢٧ ، ٧٩ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٥
فيلو (فيلسوف إسكندرى) : ٨١

(ق)

القالى (أبو على) : ١٩١ ، ١٩٢
قتيبة بن مسلم : ٥٨
قريش : أنظر (مكة)
قس بن ساعدة : ٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢
قضاعة (ق) : ٥٣ ، ١٣٠
القلقشندى : ١٩٣
قيل بن عنق : ٤٨
كسرى : ٥٦
كعب الأحبار : ٥١ ، ٨٢
كلب (ق) : ٢٦ ، ٣٥
كليب بن وائل : ٨٨ ، ٩٠
كندة (ق) : ٥٢
كهلان (ق) : ٢٩
الكوفة : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨٠

(ل)

لبد (نسر) : ٤٩ — ٥٠ ، ٩١ ، ٩٤
لبنان (م) : ٢٨
لقمان : ٣٨ ، ٤٣ — ٥١ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٢٣ ، ١٣٧ — ١٤٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٦ — ١٩٠
لقيم : ٤٤ ، ٤٨ ، ١٣٩
لوث : ١٥٠

(م)

مأرب : ٤٧
مالك الشيبانى : ١٥٣
المبرد (أبو العباس) : ٩٢ ، ٩٣
متفوخ : ١٩٢
المتلمس : ٥٢ ، ١٧٨
محمد بن إسحاق : ١٤٠
محمد بن حبيب : ٩٢ ، ١٩١
محمد عبده : ١٦١
المخبل السعدى : ٤٠
المختار بن أبى عبيد : ٣٠
المدائن : ٣٤
المدائنى : ٩٥
المدينة : ٢٧ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ١٢٤
مسا : ١٢٨
المسيح (عليه السلام) : ١٢٩ ، ١٥٠ ، ١٥٠ ش ، ١٥١ ، ١٥٨ — ١٥٩ ، ١٦٣
مصر : ١٣ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٧٨ ، ١٨٧
مصعب بن الزبير : ٧٢
معاوية بن أبى سفيان : ٣١ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٨
المعينيون : ٤٦ ، ٤٨

المغيرة بن شعبة : ٧١
المفضل بن سلمة (أبو طالب) : ٣٥ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٣
مكة : ٦٨ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٤
الملطاط بن السكسك : ٤٦
المناذرة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ١٣١
المنذر بن ساوى : ٢٦
منسه : ١٤٠
المنصور (أبو جعفر) : ١٦٧
الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد) : ٤١ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦

(ن)

النابغة الذبيانى : ٣١
نادان : ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،
تاران (ثاران ؟) : ٤٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠
نجد : ٥٢
نجران : ٤٦
النضر بن الحارث : ٣٠
نطاة خيبر (م) : ٢٧
النظام (إبراهيم بن سيار) : ٩
النعمان : ٥٣ ، ٨٧
نعمان بن عمرو : ١٢٤
نفطويه الأزدى : ١٦٤
نكرح (معبود قديم) : ٤٧
النمر بن تولب : ٨٨
نوح (عليه السلام) : ٣٣ ، ٧٩
نورس (إدوارد) : ١٨

(هـ)

هاشم بن عبد مناف ، ١٣٠ ، ١٣١
هاوبت (بول) : ١٥
هبنقة : ٨٩
هجر (م) : ٢٦ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٨٩
هلر (برنارد) ٤٤ ، ١٤١ ، ١٨٧
الهمدانى : ٦٦ ش
هنب : ٧٣
الهند : ٤٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨

(و)

ود (معبود قديم) : ٤٧ ، ٤٨
وهب بن منبه ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٠
وهب اللات : ٣٨

(ى)

ياقوت الحموى : ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ١٩٣
يزيد بن الطثرية : ٩٦
يزيد بن مفرغ الحميرى : ٨٢
اليمامة (م) : ٥٢
يونس بن حبيب : ٣٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رموز المصادر وعناوينها

فيما يلى نورد المصادر التى ذكرنا لها رموزا فى هوامش الصفحات :

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
آدم متز	حضارة الإسلام فى القرن الرابع الهجرى تأليف آدم متز وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده . (جزءان) طبع القاهرة ١٩٤٦ م
ابن الأثير	الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين المتوفى ٦٣٠ (مصر ١٣٤٨) .
أذكياء	كتاب الأذكياء تأليف أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى صححه ونقحه قسطاكى الحمصى بك . وطبع فى القاهرة .
أرنولد	الدعوة إلى الإسلام تأليف السير توماس أرنولد — نقله إلى العربية حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى (طبع فى القاهرة ١٩٤٧) .
أسد الغابة	أسد الغابة فى معرفة الصحابة لأبى الحسن بن الأثير الجزرى (طبع القاهرة ١٢٨٠) .
إصابة	الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى + ٨٥٢ (مصر ١٣٢٣ هـ) .
أصنام	الأصنام لابن الكلبى نشره أحمد زكى باشا . وطبع فى القاهرة ١٩٢٤ .
أغانى	الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . طبع فى القاهرة بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥ . وطبع فى دار الكتب المصرية ١٩٢٧ — ١٩٤٤ (إلى الجزء الحادى عشر) .
إكليل	الجزء العاشر من كتاب الإكليل لأبى محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمدانى + ٣٣٤ هـ نشر وتحقيق محب الدين الخطيب القاهرة ١٣٦٨ م) .
أمثال ابن سلام	كتاب الأمثال تأليف أبى عبيد القاسم بن سلام . نسخة مصورة تسعون ورقة مأخوذة من مكتبة فيض الله بالآستانة رقم ١٥٧٨ .

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
أمراء	أمراء البيان لمحمد كرد على — طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .
بخلاء	كتاب البخلاء للجاحظ — حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى . طبع فى القاهرة ١٩٤٨ .
برجشتراسر	التطور النحوى للغة العربية — سلسلة محاضرات ألقاها الأستاذ برجشتراسر — طبع فى مصر ١٩٢٩ .
بغية	كتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة — تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى — طبع فى مصر ١٣٢٦ هـ .
بفايفر	Introduction to the Old Testament by Robert H. Pfeiffer – New York, 1940.
بلاذرى	فتوح البلدان للبلاذرى — طبع فى مصر ١٩٠١ .
بلوغ الأرب	بلوغ الأرب للألوسى — طبعة الرحمانية ١٩٢٤ .
بنتسن	Introduction to the Old Testament by Aage Bentzen, (2 vols. second edition. Copenhagen, 1952).
بولانو	The Talmud, (selections from the contents of that ancient book, its commentaries, teachings, poetry, and legends). Translated from the original by M. Polano. London, (5636 Tamuz).
بيان	البيان والتبيين للجاحظ — نشره وحققه عبد السلام هارون — وطبع فى القاهرة .
بيتمان	J. Baetman ; Dictionnaire Amarigna - Français suivi d'un Vocabulaire Francais - Amarigna, (Ethiopie 1929.
التراث اليونانى	التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى (مصر ١٩٤٠) .
تفسير المنار	تأليف الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا ، ط . القاهرة ١٣٢٤ — ١٣٥٣ هـ .
تقويم	The Ethiopian Calender, by Murad Kamil (Reprint from the Bulletin of the Faculty of Arts-Fouad 1. University vol. XII, Part II. Dec. 1950). Cairo, 1950.

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
تنبيه	التنبيه والإشراف لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى + ٣٤٥ نشر وتعليق الصاوى (القاهرة ١٩٣٨ م)
التمهيد	تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية — تأليف مصطفى عبد الرازق القاهرة ١٩٤٤
الثعلبى	قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس — تأليف أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى (الطبعة الأولى ١٣٧٦ ﻫ) القاهرة .
جاسترو	Dictionary of the Talmud Babli, Yerushalmi, Midrashic Literature and Targumim. by Prof. Marcus Jastrow. (New York, 1950).
جبور	نظرات فى فلسفة العرب لجبور عبد النور (بيروت ١٩٤٥) .
ابن الجزرى	النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الجزرى المعروف بابن الأثير — طبع فى القاهرة سنة ١٣٢٢ .
جمع الجواهر	جمع الجواهر فى الملح والنوادر لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصرى طبع فى القاهرة سنة ١٣٥٣ .
جمعة	النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية لمحمد محمود جمعة — طبع فى القاهرة فى مطبعة السعادة سنة ١٩٤٩
جواد	تاريخ العرب قبل الإسلام تأليف جواد على (بغداد ١٩٥١ — ١٩٥٣) .
جوستاف	حضارة بابل وآشور — تأليف جوستاف لوبون وترجمة محمود خيرت (مصر ١٩٤٧) .
جولدبرج	Isaac Golberg; The Wonder of Words (London 1938).
حامد	القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية تأليف حامد عبد القادر — طبع فى القاهرة ١٩٥٠ .
حمزة (مخطوط)	مخطوطة بعنوان (الأمثال لأبى على القالى) وهى نسخة مصورة من مخطوطة ناقصة مكتوبة بالخط المغربى وقد ثبت لنا أنها لحمزة الأصفهانى (رقم ٧٤٤٢ أدب بدار الكتب) .

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
حمودة	القراآت واللهجات لمؤلفه عبد الوهاب حمودة — القاهرة ١٩٤٨ .
حيوان	الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — بتحقيق وشرح عبد السلام هارون (سبعة مجلدات) ط الحلبي بالقاهرة ١٩٣٨ — ١٩٤٤ .
خرافات إيسوب	خرافات إيسوب ترجمها إلى العربية مصطفى السقا وسعيد جودة السحار — وطبع بالقاهرة ١٩٤٧ .
دراسات تفصيلية	دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل — التقديم والتأخير . ألفها عبد الهادى العدل وضبطها وعلق حواشيها عبد السلام أبو النجا سرحان (القاهرة ١٩٥٠) .
دونالدسون	Studies in Muslim Ethics by Dwight M. Donaldson. (London, 1955).
دى بور	تاريخ الفلسفة فى الإسلام تأليف ج . دى بور De Boer نقله إلى العربية وعلق عليه محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٤٨) .
ديورانت	قصة الحضارة تأليف ديورانت ترجمة محمد بدران وزكى نجيب محمود . طبع فى القاهرة ١٩٤٩ — ١٩٥٤ .
رابين	Ancient West - Arabian, by C. Rabin (London, 1951).
الراغب	المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى — طبع القاهرة ١٣٢٤ هـ .
رندل	The story of Ahikar, by F. C. Conybeare, J. Rendel Harris and Agnes Smith Lewis. Cambridge 1913 (2 nd. ed.)
روجيه	مبادىء علم الاجتماع الدينى تأليف روجيه باستيد نقله إلى العربية محمود قاسم وطبع فى مصر (١٩٥١) .
الروض	الروض الأنف للسهيلى — طبع فى القاهرة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م) وعلى هامشه سيرة ابن هشام الحميرى البصرى المتوفى سنة ٢١٣ هـ .
زبيدى	طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — طبع فى القاهرة سنة ١٩٥٤ .

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جرجى زيدان — طبع فى مصر ١٩١١ .
ستانلى كوك	An Introduction to the Bible, by Stanley Cook. Penguin Books ed. 1952. (Third edition).
سجستانى	كتاب المعمرين من العرب تأليف أبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى + ٢٣٥ هـ — طبع فى القاهرة .
ابن سعد	طبقات ابن سعد — طبعة ليدن ١٣٢٢ هـ .
سلى	An Essay on Laughter, by James Sully; London 1902.
سيسل	A Short History of the Jewish People, by Cecil Roth. London, 1948.
شرح البكرى (مخطوط)	شرح الأمثال السائرة لأبى عبيد القاسم بن سلام . مخطوطة مصورة من مكتبة لالهلى رقم ١٧٩٥ بالآستانة وعنوانها (فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى) .
صفة	كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى + ٣٣٤ هـ نشره وحققه محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى (القاهرة ١٩٥٣) .
ضبى	أمثال العرب للمفضل الضبى (يليها أسرار الحكماء لياقوت المستعصمى بخطه (كتب ٦٨٩ هـ) مطبعة الجوائب — قسطنطينية سنة ١٣٠٠
طبرى	تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى طبع فى القاهرة فى مطبعة الحسينية ، ونشره دى جويه ، وطبع فى ليدن سنة ١٨٧٩ .
عبيد	أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال والحمد لله على كل حال ، (فصل من كتاب التيجان) طبعة حيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٧ هـ .
عسكرى	جمهرة الأمثال لأبى هلال حسن بن عبد الله العسكرى النحوى المتوفى ٣٩٥ (على هامش مجمع الأمثال للميدانى طبعة القاهرة ١٣١٠).
عمدة	العمدة لابن رشيق القيروانى — مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٧ .
عيون المسائل	عيون المسائل من أعيان الرسائل لعبد القادر الحسينى + ١٠٣٣ هـ (طبعة القاهرة ١٣١٦) .

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
غويطاين	Islamic Culture, vol. XXVI, No. 1. Jubilee Number, Part II. January 1952, published in Hyderabad-Deccan. An Article titled (The Origin anp Historical significance of the present-day Arabic Proverb, by S.D. Goitein pp. 169 — 179.
فاخر	كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة . نشره C. A. Storey لمؤسسة دى غويه ، وطبع فى ليدن ١٩١٥ م .
فندريس	اللغة تأليف فندريس وترجمة الدواخلى والقصاص طبع فى القاهرة ١٩٥٠ .
فندلاى	Jesus and His Parables by J.A. Findlay, London, 1951. (2 nd. edition).
فهرست	الفهرست لابن النديم أبى الفرج محمد بن اسحاق الوراق نشره فلوجل ، طبع فى ليبسك سنة ١٨٧١ — ١٨٧٢م ، وطبع فى القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ .
قاموس سريانى	Syriac English Dictionary by P. Smith (Oxford, 1903).
قاموس عبرى	Hebrew and English Lexicon of the Old Testament (Based on the lexicon of W. Gesenius) edited by Francis Brown, S. R. Driver, C. A. Briggs. (Oxford, 1950).
قدامة	نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر . نشره طه حسين وعبد الحميد العبادى ، وطبع فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٣ م .
ابن القيم	أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية + ٧٥١ (إدارة الطباعة المنيرية) (أربعة أجزاء) .
كريستوماتى	Chrestomathia Aethiopica ab Augusto Dillmann. (Lipsiae 1866).
كشاف	كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى محمد بن على الفاروقى طبع فى كلكوتا بالهند سنة ١٨٦١ م .
كوك	A Text - Book of North Semitic Inscriptions by G. A. Cooke (Oxford, 1903).
لسان	لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى — طبع فى بولاق سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٢ .

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
لسان الميزان	لسان الميزان لأحمد بن حجر العسقلانى المصرى — طبع فى حيدرأباد سنة ١٣٣٠ هـ .
لودز	Adolphe Lods ; Histoire de la Litterature Hebraique et Juive. (Paris. 1950).
ليرو	Libri proverbiorum Abi Obeid Elgasimi filii salami Elchuzzami (Gottingae 1836). نشره : Ernest Bertheau
ليكوك	Humour by S. Leacock. (London. 1935).
ماسينيون	شخصيات قلقة فى الاسلام دراسات ألف بينها وترجمها عبد الرحمن بدوى (القاهرة ١٩٤٦) .
مانسون	The Teaching of Jesus : Studies of its form and Content, by T. W. Manson (Cambridge, 1943).
متفوخ	Aberglaubische Verstellungen und Brauche der Alten Araber nach Hamza Al-Isbahani, Von Engen Mittwoch. (Berlin, 1913).
المثل السائر	المثل السائر لابن الأثير . نشر محمد محيي الدين عبد الحميد . طبع فى القاهرة ١٩٣٩ .
مجريطى	كتاب غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم المنسوب إلى أبى القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى تحقيق هـ . ريتر (كليقشتاط وهامبورك ١٩٢٧) .
مخصص	المخصص لابن سيده أبى الحسن على بن إسماعيل المرسى طبع فى بولاق سنة ١٣١٦ — ١٣٢١ هـ .
مراح	المراح فى المزاح لبدرالدين الغزى + ٩٨٤هـ. طبع دمشق ١٣٤٩هـ.
مراد وبكرى	تاريخ الأدب السريانى تأليف الدكتور مراد كامل والدكتور حمدى البكرى — طبع فى مصر ١٩٤٩ م .
مرجوليوث	.R. A. S. (The Origins of Arabic Poetry, 1925. .pp 417 — 449). by O. S. Margoliouth.
مزهر	المزهر فى علوم اللغة لعبد الرحمن جلال الدين السيوطى شرحه وعلق عليه محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة الحلبى بالقاهرة) الجزء الأول (الطبعة الثانية)

الرمز	عنوان الكتاب والمؤلف
مسكويه	الحكمة الخالدة (جاويدان خرد) لأبى على أحمد بن محمد مسكويه ، حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوى القاهرة ١٩٥٢ .
معجم البلدان	كتاب معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموى + ٦٢٦ هـ (القاهرة ١٩٠٦) .
معارف	المعارف لابن قتيبة (طبعة مصر ١٩٣٤) .
مقامات البديع	مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى ، شرحها الشيخ محمد عبده (بيروت ١٩٢٤) .
ملاحن	الملاحن لأبى بكر بن دريد (طبعة القاهرة ١٩٤٧) نشره إبراهيم أطفيش الجزائرى .
ميدانى	مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى المتوفى سنة ٥١٨ ، طبع فى بولاق ١٢٨٤ هـ وطبع فى القاهرة سنة ١٣١٠ وعلى هامشه جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ، وطبع فى القاهرة (طبعة عبد الرحمن محمد) سنة ١٣٥٢ .
ميور	The Life of Mohammad by Sir William Muir, ed. Edinburgh. 1923.
نزهة	نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى + ٥٧٥ هـ (نشره على يوسف تحت عنوان كتاب تاريخ الأدباء النحاة) . الكتاب ليس عليه تاريخ طبع ويحمل اسم (جمعية إحياء مآثر العرب) .
نولدكه	Sketches from Eastern History by Néldeke (London and Edinburgh 1892).
وات	W. Montgomery Watt ; Muhammad at Mecca (Oxford 1952)
وسترمارك	Wit and Wisdem in Marocco : A Study of native proverbs by Edward Westermarck (London 1930)
ولفنسون	تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون (طبع فى مصر ١٩٢٩)
يمنيكا	Jemenica, Sprichwörter und Redensarten aus Zentral Jemen (Leipzig 1934) by S.D.F. Goitein.

الرمز	وعنوان الكتاب المولف
يوهان	العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب من عمل يوهان فك Johann Fück نقله إلى العربية وحققه وفهرس له الدكتور عبد الحليم النجار (القاهرة ١٩٥١)
ANET	Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament, edited by James B. Pritchard (Princeton Universitty press 1950)
E B i	Encyclopaedia Biblica, edited by Black and Cheyne, London (1899—1903).
E B r.	Encyclopaedia Britannica (1910 — 1911) 11th. edit. with Supplementary vols. XXX—XXXII, 1922.
E I.	Encyclopaedia of Islam (4 vols. and Supplement) Leyden 1908—38.
E R E.	Encyclopaedia of Religion and Ethics. ed. Hastings 1908—22.
J E.	The Jewish Encyc. New York and London 1906
J N E S.	Journal of Near Eastern Studies, volume VII, January — October 1948. pp. 65 ff. (Raymond Bowman; Arameans, Aramaic and Bible).

كتب للمؤلف

١ — « والدة » Genetrix لفرنسوا مورياك ترجمه من الفرنسية عبد المجيد عابدين (بالاشتراك) ١٩٤٦ « دار الكاتب المصرى » بالقاهرة .

٢ — «جنة على نهر العاصى» Un Jardin sur l'Oronte لموريس باريس — ترجمه من الفرنسية عبد المجيد عابدين (بالاشتراك) ١٩٤٦ « دار الكاتب المصرى » .

٣ — « الدعوة إلى الإسلام » The Preaching of Islam تأليف توماس أرنولد ترجمه (من الإنجليزية) عبد المجيد عابدين (بالاشتراك) ١٩٤٧ مطبعة الشبكشى بالقاهرة .

٤ — بين الحبشة والعرب تأليف عبدالمجيدعابدين ١٩٤٧ — دار الفكر العربى بالقاهرة

٥ — « التجانى شاعر الجمال » بقلم عبد المجيد عابدين ١٩٥١ — مطبعة الشبكشى بالقاهرة ، والطبعة الثانية ١٩٥٥ .

٦ — «المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية» بقلم عبد المجيد عابدين ١٩٥١ — مطبعة الشبكشى بالقاهرة .

٧ — «بين شاعرين مجددين إيليا أبوماضى وعلى محمود طه المهندس» بقلم عبدالمجيدعابدين ١٩٥٢ — مطبعة الشبكشى بالقاهرة ، والطبعة الثانية ١٩٥٥ .

٨ — «تاريخ الثقافة العربية فى السودان» تأليف عبد المجيد عابدين ١٩٥٣ — مطبعة الشبكشى بالقاهرة .

٩ — الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظائرها فى الآداب السامية الأخرى تأليف الدكتور عبد المجيد عابدين — ١٩٥٦ دار مصر للطباعة بالقاهرة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تصـــويب

الصفحة	السطر أو رقم الهامش	الخطـأ	الصـواب
٢	الهامش ٢،٦	EBr	EBi
٢	» ٦	ص ١٤٠	ص ٩٤٠
١٠	» ١٠	٤٠٩ — ٤١٠	٤٠٩/٣ — ٤١٠
١٠	» ١٠	١٨١/٤ ب	٢٨١/٤ ب
١٠	» ١٢	ميداني ١١/١	ميداني ٩١/١
١١	» ١٧	٦٣١/١ ب	٦٣١/٩ ب
١٢	» ١٩	٦٢٩ ب	٦٢٩/٩ ب
١٢	» ٢٢	٨٨٥	٨٥٥
١٤	سطر ١٤	تهب رينا . . يدعى لينا	تهب ريثا . . يدعى ليثا
١٤	هامش ٣٠	٣٨٦	٢٨٦
١٧	» ٨	ابن سيراخ ٤٢ : ٢٣	ابن سيراخ ٤٣ : ٢٣
١٩	سطر ٧	الفـكرة ليستمد منهما	شكل الأسطر ليستمدمنهما
٥٠	» ١٥	ومن قبل	من قبل
٥١	» ٢	وثم أسلم	ثم أسلم
٦٦	» ٥	t	î
٨٩	» ١١	ey-words	by-words
١٠٤	» ١٠	فليأ كلك	ليأ كلك
١٠٥	» ٩	غرام نوح	غراب نوح
١٠٥	» ١٠	وخاتم سليمان	(تحذف)
١١٢	» ٢	القنفد	القنفذ
١١٩	هامش ١٢	منفوخ	متفوخ
١٢٠	سطر ١١	بتطيبه	بتطييه
١٢٣	» ١٥	روح التعاطف يفسح	روح التعاطف الذي يفسح
١٢٤	» ١٦	Humowr	Humour
١٢٧	» ١٨	أمينوف	أمينموف
١٢٨	هامش ٨	سائر الأمثال	سفر الأمثال
١٤٤	سطر ١	٢ — المثل الـكتابي . .	٣ — المثل الـكتابي . .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار مصر للطباعة
٢٧ (أ) شارع كامل صدقي الفجالة